

التدوين التاريخي في موريتانيا

من إشكالية الوعي إلى أزمة الخطاب

فترة القرنين 12ـ 14هـ / 18ـ 20م

منّي بونْعامَهْ



دائرة الثقافة والإعلام الشارقة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التدوين التاريخي في موريتانيا

من إشكالية الوعي إلى أزمة الخطاب

فترة القرنين 12ـ 14هـ / 18ـ 20م

إهــداء

إلى أمي الغالية... رمز محبة وتقدير

منّــي بونْعامَهْ

منّـي بونْعامَهْ

التدوين التاريخي في موريتانيا

من إشكالية الوعي إلى أزمة الخطاب

فترة القرنين 12ـ 14هـ / 18ـ 20م

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: دائرة الثقافة والإعلام، 2014

الرقم الدولي: ISBN 978-9948-02-035-6

الطبعة الأولى 2014

الناشر: إدارة التراث - دائرة الثقافة والإعلام

ص.ب: 5119 - هاتف: 97165123333+ فاكس: 97165123295+







كلمة شكر

لا يسعني في نهاية هذا العمل إلا أن أتقدم بشكر مستحق لدائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، التي احتضنت هذه الدراسة وأخرجتها إلى النور. كما أتوجه بجزيل الشكر وعميق الامتنان إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في اكتمال العمل على هذا النحو؛ وأخص بالذكر الإخوة مع حفظ الألقاب: عبدالعزيز المسلم مدير إدارة التراث والشؤون الثقافية في دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، عمار السنجري، عبد الله جمعة المغني، عبدالمجيد القدوري، خليل السعداني، عبدالودود ولد عبدالله، محمد ولد بوعليبه، محمد محمود ودادي، محمد المختار ولد السعد، أحمد الشكري. حماه الله ولد السالم، محمد المختار ولد سيدي محمد، إزيد بيه ولد محمد محمود، محمدو ولد محمذن، محمد فاضل الحطاب، محمد ولد عبدي، محمد ولد محمد سالم، محمد الأمين ولد محمد المختار، عبدالرحمن ولد عمار، عبد الله ولد أحمد الهادي، سيدي أحمد ولد أحمد سالم.

مِنِّـي بونعامه

(... وليعلم من ينظر فيه أني لما تدبرت ونظرت؛ علمت أن ما قبل المائتين بعد الألف ليست فيه فائدة، لحصول الغرض المطلوب منه في الزمان، فتركت المائتين والألف قبلهما. فإن كان الناظر يطلب منه الخبر ذكرت له ما يكفيه، وإن كان يطلب منه الانتفاع الشرعي كعمر مفقود وصوم صبي، فقد ذكرت له ما يزيد على ذلك).

المحجوبي، حوليات ولاتة، ص: 18.

(وطريقتي - غالباً - هي الإتيان بالخبر على أكمل وجه إن أمكن، وحكاية رواياته إذا تعددت، ضنّاً بها عن الضياع والنسيان).

المختار بن حامد، التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص: 9.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا مراء في أن الاهتمام بتدوين تاريخ أي أمة يعتبر أمرا بالغ الأهمية، لما له من دور بارز في حفظ تراثها وأخبار الفارط من أيامها، والسوابق من قرونها، وهو يشي بتطور وعيها بذاتها وبما يجري حولها مهما كانت وسائله أولية، إذ تعتبر لحظة التدوين في حد ذاتها لحظة فارقة وقفزة كيفية في حياة الإنسانية لما تشير إليه من وعي الإنسان بالزمن باعتباره لحظات فاعلة تعكس فعل السابق في اللاحق[1]، وهو الفيصل الوحيد بين المجتمعات في تصنيفها إلى مجتمعات تاريخية وأخرى غير تاريخية[2].

وقد تنبه «الشناقطة» لذلك فلم يعدم التاريخ بعض عنايتهم، فكان منهم من أكثر فيه بحسب جده وجهده وبذله، وكان منهم المقلّون والمعدمون. وقد اقتصر التدوين التاريخي في بداياته الأولى على السيرة النبوية والأنساب العربية دون أن يلامس جوانب من التاريخ المحلي، مما يدفع للتساؤل عن الأسباب الكامنة وراء عزوف القوم عن تدوين تاريخهم وانصراف همّتهم عن الاعتناء به، وبم يمكن تفسيره؟ على أن القرن الثاني عشر الهجري عرف ظهور مجموعة من النصوص التاريخية التي تتحدث عن الأنساب والمناقب والتراجم وحوادث السنين، ثم عرف التدوين التاريخي طفرة عجيبة خلال القرن الثالث عشر الهجري، مما يستدعي التساؤل كذلك عن أسباب هذا التحوّل وبواعثه التي حدت بالقوم إلى الانكباب على تدوين تاريخهم وإن لم تتغير الأنماط المدونة؟ بيد أن ريح التدوين سرعان ما سكنت قليلا أو تراجعت خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، وإن ظهرت نصوص جديدة تنشد الشمولية والاستقصاء والتنوّع.

1ـ محمد وقيدي، كتابة التاريخ الوطني، الرباط، دار الأمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1990، ص5.

2ـ عبدالله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 2005، ج1، ص: 24.

ولئن أمعنا النظر في نصوص المدوّنة التاريخية الموريتانية خلال القرنين الثاني عشر والرابع عشر الهجريين؛ فإننا نلاحظ أنها تطرح العديد من الإشكالات المنهجية العويصة بالنسبة لدارسها، فضلاً عن كون بعضها غير معلوم ولا متداول على نطاق واسع. ومن بين تلك الإشكالات ما يتعلق بأولية نشأة التدوين التاريخي في موريتانيا ودوافعه وأسبابه، ومنها ما يرتبط بالمؤرخين أنفسهم ومجال اهتمامهم ومصادرهم في ما نقلوا.

ومن أجل إلقاء أضواء كاشفة على الموضوع ومختلف تمفصلاته، والإجابة عن تلك الإشكالات وما يتفرع عنها؛ ارتأينا إفراد دراسة تضع نصوص المدوّنة التاريخية ومنتجيها على بساط البحث، لمناقشة مختلف القضايا المتعلقة بها، تحت عنوان: (التدوين التاريخي في موريتانيا خلال القرنين 12 ـ 14هـ/ 18 ـ 20م)، وهي أول دراسة منهجية عن التاريخ الموريتاني.

وقد شدّنا إلى الاهتمام بهذا الموضوع ودفعنا إلى خوض غماره، ما رأيناه من عزوف تام عن الانشغال به رغم أهميته، ومن نفوقٍ بيّن لمثل هذه المعارف في المكتبات ومراكز الأبحاث العلمية، وغياب للنصوص المعروضة فيه عن التداول، اللهم باستثناء ما طاله التحقيق منها، أملاً في أن يسهم ـ قدر الإمكان ـ في التعريف بتاريخ البلاد وثقافتهما ونحلة عيش أهلها ومختلف أحوالها ومن كان فيها من القبائل والمجموعات وما دار على أرضها من حروب وصراعات، وذلك من خلال الاستظهار بما تضمنته مدونتها التاريخية.

ولمّا عقدنا العزم على المضي في هذا الموضوع؛ اعترضتنا جملة من العوائق التي كادت تعصف بأصل الفكرة لولا أن تداركنا الله بلطفه، من أهمها:

1 ـ غياب الدليل «البيبليوغرافي» الشامل[3] عن تاريخ البلاد:

وقد تطلب منا ذلك جهداً مضاعفاً لجمع وحصر ما أمكن من شتات نصوص المدوّنة التاريخية الموريتانية، التي ما زال أغلبها يذوي ويتآكل في الخزانات الأهلية والشخصية، فضلا عما نجده من إحالات في هوامش بعض الدراسات إلى نصوص تاريخية هامة، لكنها مع ذلك لا تتجاوز الهامش فقط، إذ لا وجود لها

---

3 ـ قام المؤرخ الكبير المختار بن حامد ـ رحمه الله ـ والخبير الدولي هايموفسكي خلال سنتي (1965-1966) بإعداد دليل "بيبليوغرافي " بأسماء المؤلفين الشناقطة ومؤلفاتهم، وقاما بإحصاء (2054) عنواناً لنحو 394 مؤلفاً. لكن هذا العمل رغم أهميته الكبيرة في رصد وجمع العديد من أسماء المؤلفين ومؤلفاتهم، جاء غير شامل لكل ما دوّن من مؤلفات تناثرت وتطايرت وضاع أغلبها وراح في طي النسيان.

في الواقع، وإن كانت ـ على أحسن تقدير ـ فليس الوصول إليها بالأمر الهيّن كما قد يخاله البعض.

2 ـ وضعية المخطوطات الموريتانية:

التي تتوزع ما بين مخطوطات مرقونة في المعهد الموريتاني للبحث العلمي؛ وهي في أحسن أحوالها غير مرتبة ولا منظمة بما فيه الكفاية، كما أن بعضها بل أكثرها في حكم المفقود، لأنه ما بين رديء الخط ـ الذي لا يقرأ ـ أو ساقط الأول، أو مبتور الأخير، وآخر جرى عليه من التحريف والتصحيف ما طمس هوية مؤلفه أو كاد، ومخطوطات أهلية وشخصية يصعب الحصول عليها وإن كانت هناك جهود تذكر لأصحابها فتشكر.

3ـ قلة مراكز البحوث والدراسات

التي من شأنها العناية بجمع وتوثيق وحفظ ما تناثر من تراث البلاد وتاريخها وتصنيفه بشكل علمي دقيق ليسهل على الباحثين الاطـلاع عليه ودراسته وتمحصيه، وتكاد الجهود في هذا السياق تنحصر فيما يقوم به المعهد الموريتاني للبحث العلمي، وهو جهد معلول ويعتوره الكثير من النقص والقصور والعجز في الإمكانات والوسائل، ثم مركز البحوث والدراسات التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة نواكشوط، الذي يقوم بحفظ وتصنيف بحوث التخرج بما فيها البحوث التاريخية التي تتضمن تحقيق مجموعة من النصوص التاريخية المهمة، لكنها سرعان ما تختفي بفعل قادر، ولا يتسن للباحث الوصول إليها، لذلك لا يمكن التعويل على ما يقدمه المركز فضلاً عن تواضع إمكاناته المادية. يضاف إلى ذلك الجهد المتواضع الذي يقوم به مختبر الدراسات التابع لقسم التاريخ في جامعة نواكشوط، ومراكز أخرى مستقلة ظهرت خلال الآونة الأخيرة، لكنها أميل إلى خدمة المصالح الشخصية والمآرب الذاتية منها إلى توثيق المخطوطات وحفظها.

ولم نسع في هذه الدراسة المختصرة إلى حصر كامل وشامل لكل نصوص المدوّنة التاريخية، وإن لامسنا أغلبها ودرسنا أهمها وأحطنا به علما. وحسبنا من ذلك إطْلاعُ القارئ العربي ـ الموريتاني على ما يزخر به ذلك المنكب البرزخي من معارف تاريخية كادت تنمحي آثارها وتندرس معالمها وتأتي عليها عوادي الزمن لولا اهتمام ثلة قليلة من العلماء النبهاء والفطاحل البلغاء ضنّاً بها على الضياع والاندثار. فانبروا ـ على شدة عصرهم وتواضع إمكاناتهم ـ لتدوين أبرز الأحداث والوقائع؛ من وفيات أعيان، وسني قحط وجفاف وغلاء، ورخاء وخصب ونماء،

وظواهر كونية، وما إلى ذلك من الأحداث العظيمة المعروضة، والأمور الجسيمة المرفوعة والمخفوضة. كما اهتموا بتدوين الأنساب والتراجم والقصص والأخبار والمناقب والكرامات التي لم تخل أحياناً من مبالغات واضحة.

ولم ندرج ضمن المدوّنة المنتخبة العديد من النصوص ذات الصبغة التاريخية، أو تلك التي حوت في تضاعيفها إشارات تاريخية، كـ : الرسائل الإخوانية والنصائح والوصايا والفتاوى والنوازل الفقهية والأقضية وغيرها. وهي كلها تعجّ بمعطيات تاريخية هامة يمكن استنطاقها والاستفادة منها في كتابة تاريخ البلاد. ويعود ذلك إلى ارتكازنا على محض النصوص التاريخية. كما عزفنا كذلك عن إدراج النصوص التاريخية ذات الاهتمام الخارجي ضمن المدوّنة المدروسة، كـ : السيرة النبوية وأنساب العرب وأيامها، وما إلى ذلك مما سيجده القارئ مبسوطاً وموضّحاً في ثنايا هذا العمل.

كما أدى بنا حرصنا على أن تكون النصوص المعروضة أكثر وفاء بما نرمي إليه، إلى استبعاد النصوص المنظومة، لأنها تستحضر معانيَ أخرى، وتحيل إلى نمط مغاير عما درجت عليه نظيرتها المنثورة التي اعتمدنا عليها هنا، وهي في عمومها تستدعي دراسة مستقلة، ومع ذلك فلم نغفل ذكرها نهائيّاً، بل أوردنا بعض الاستشهادات من بعضها وفق ما يتناسب مع السياق.

أما مجال المدوّنة المدروسة؛ فهو فضاء ثقافي رحب يتجاوز حدود الجمهورية الإسلامية الموريتانية، إلى مناطق أخرى مجاورة لها تربطها بها وحدة اللغة والعادات والتقاليد والنسب والتاريخ، وهذه المناطق هي: من الشمال إقليم الساقية الحمراء ووادي الذهب وإقليم تيندوف ومن الشرق إقليم أزواد.[4] ويرد هذا الفضاء الرحب في نصوص المدوّنة التاريخية بعدة مسميات دالة عليه، وهي: (بلاد التكرور، بلاد شنقيط، بلاد السيبة، بلاد المغافرة، اتراب البيظان)

وتقع فترة هذه الدراسة ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الهجريين، الثامن عشر والعشرين الميلاديين. وهو إطار تاريخي واسع عرف فيه التدوين التاريخي الموريتاني مراحل متمايزة وأطوارا متعددة، حاولنا تتبعها وتفصيل القول فيها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

وقد جاءت فصول هذا العمل في أربعة فصول ومقدمة وخاتمة.

استعرضنا في الفصل الأول نشأة التدوين التاريخي في موريتانيا خلال القرن

4ـ المختار بن حامد، **الجزء الجغرافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

الثاني عشر الهجري وتاليه، وبدأنا بإشكالية تحقيب التاريخ الموريتاني من خلال إلقاء نظرة على التحقيبات المتداولة في حقل الدراسات التاريخية الموريتانية، ثم عرّجنا على مصادر ذلك التاريخ، فعرّفنا بها وذكرنا أصنافها. ثم تحدثنا عن نشأة حركة التدوين في موريتانيا خلال القرن العاشر الهجري. وقد ضربنا صفحا ـ تفادياً للتكرار ـ عن الإغراق في مراحلها وتطوراتها وما رافقها من إشعاع ثقافي وعلمي عزّ نظيره، وذلك نظرا لما اشتملت عليه بعض الدراسات من معلومات وافية يمكن الرجوع إليها لمن أراد الاستزادة فيه، واكتفينا بإيراد نتف مختصرة تفيد في فهم السياق المقصود. ثم تلمّسنا بداية التدوين التاريخي ودوافعه، ثم مظاهر تطوره وأقدم الأحداث المدوّنة وعلاقتها بتاريخ البلاد وأنواع التدوين وخصائصه وسماته.

وتحدثنا في الفصل الثاني عن مؤرخي القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ونصوصهم، وانتخبنا بعض الأسماء ـ وليس كلها ـ التي اشتغل أصحابها بالتاريخ، وعرضنا تراجم مختصرة لهم تفيد في معرفة تكوينهم المعرفي، وفهم نتاجهم التاريخي.

ووقفنا في الفصل الثالث على التدوين التاريخي خلال القرن الرابع عشر الهجري، وأبرزنا ملامح الشبه والاختلاف ومظاهر التطور الذي طرأ على التدوين خلال هذه المرحلة التي امتازت بقلة النتاج التاريخي عموما، إلا أنها كذلك تميزت بتنوع المادة المدوّنة ونزوعها للاستقصاء والشمولية. ولم نشأ إدراج الأطروحات العلمية التي بدأت تطفو على السطح مع النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، وعكف أصحابها على مواضيع هامة تعبّر عن اهتمام جديد ليس في التدوين، بل في الكتابة التاريخية الموريتانية المعاصرة.

وفي الفصل الرابع تحدثنا عن الحوليات التاريخية كنموذج من المدوّنة التاريخية، فقمنا بالتعريف بها وتصنيفها وإبراز مدى أهميتها التاريخية، من خلال ما اشتملت عليه من مواضيع متنوعة، ثم المصادر التي اعتمد عليها كاتبوها.

وختمنا الدراسة ببعض الخلاصات والاستنتاجات التي توصلنا إليها من خلال ما بسطناه في ثناياها.

وأخيراً؛ فقد نأينا بأنفسنا عن البواعث الضيّقة والقراءة السطحية والتعميم وأحكام القيمة. ونرجو أن يكون هذا العمل معيناً للطلاب والباحثين والمهتمين في

معرفة مصادر تاريخهم ومظانه، والاطّلاع عليها، فذلك هو مرمانا وعين مقصدنا من نشره حتى تعمّ الفائدة.

وعلى العموم؛ فقد سعينا إلى التعريف بمصادر البلاد ومدوّنتها التاريخية، وعزاؤنا فيما بدا من نقص أو خطأ أنه نتاج جهد مقلّ تتخطفه مشاغل جمة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

مِنّـِـي بونعامه

الشارقة: 15/4/2013

الفصل الأول
نشأة التدوين التاريخي في موريتانيا

خلال القرنين 12 ـ 13هـ /18 ـ 19م

أولاً: محددات أولية

I ـ تحقيب التاريخ الموريتاني:

التحقيب - بشكل عام - هو عملية عويصة ومعقدة، نظراً لما تنطوي عليه من إشكالات منهجية ومعرفية، رغم ما يراد بها في الأساس من تبسيط المعارف وتقريبها من الناس. وتحقيبُ التاريخ يعني تقسيمه إلى مُدَد، وتقسيم كل مدة إلى حِقَب متمايزة. وقد انقسم المؤرخون قديماً وحديثاً طرائق قدداً واختلفوا اختلافاً بيّناً في اعتماد تحقيب بعينه، لأن لكل منهم نظرته وتقييمه للأحداث التي على أساسها يُحقَّب التاريخ. ويقسّم التاريخ العالمي إلى حقب متمايزة تبدأ كل واحدة منها بحدث مفصلي وتنتهي بآخر، وهذه الحقب هي: قديم، حديث، وسيط، معاصر، راهن. وقد سرت حمى هذا التحقيب إلى البلاد العربية؛ فتم اعتماده أساسا لدراسة التاريخ وتدريسه في الجامعات والمؤسسات التعليمية. بيد أن هذا الأمر لا يخلو في حد ذاته من اعتباطية أو إقحام؛ لأن ذلك التحقيب إنما سيق أو وضع تمشّياً مع التطورات الكبرى التي عرفتها أوروبا على مر تاريخها، رغم ما يطرحه من إشكالات وإكراهات لدى الأوربيين أنفسهم. وإذا سلمّنا فرضا بجدوائية استخدامه في تاريخنا فلا يمكننا القول بتناسقه مع تاريخ الحضارة

العربية والإسلامية ومراحل تطورها وازدهارها وتراجعها وأفولها، لأننا حينها قد لا نسلم من السقوط في المفارقة التاريخية، بل نتعامل بنوع من اللّاتاريخية؛ لأن العصر الوسيط الأوروبي يختلف تمام الاختلاف عنه بالنسبة لنا، وما عاشه الأوربيون من عصور انحطاط وظلام كانت الحضارة الإسلامية فيه ترفل في النهوض والتطور، والعكس صحيح.

لذلك فإننا نرى من اللّازم علينا أن نعيد النظر في استخدام ذلك التحقيب؛ لأن له خصوصية تتعلق بخصوصية واضعه، وتناسقاً ينسجم مع تطور تاريخه. وهذا ما يدفعنا للتساؤل عن مدى إمكانية وضع تحقيب يتلاءم مع التطورات التي عرفتها الحضارة العربية والإسلامية، فهل ثمة إمكانية لذلك؟ وهل هناك تحقيب واحد أو عدة تحقيبات؟

إن محاولة الإجابة عن هذا الإشكال وما يتّصل به أو يتفرع عنه هي ما فتح الباب أمام المؤرخين والباحثين العرب والمسلمين للدخول في نقاش طويل من أجل اعتماد تحقيب إسلامي ينسجم والتطورات العامة في الحضارة الإسلامية، ولكن نفس الإشكال ما يزال قائما لحد الآن، في ظل غياب تقارب أو اتفاق على اعتبار أحداث بعينها أساساً لبداية حقبة أو نهاية أخرى، وإن كانت ثمة محاولات لوضع تحقيب إسلامي يبدأ مع بعثة النبي صلى الله عليه وسلم (مرحلة صدر الإسلام)، ثم الدولة الراشدة، إلخ... إلا أن هذا التحقيب لم يستوعب كل المراحل والأطوار التي مرت بها الأمة الإسلامية عبر تاريخها، وهو يعكس تصوراً واحداً بعينه، ويهمل تصورات أخرى لا تقلّ وجاهة عنه. وعلى كل فالنقاش ما يزال قائما حول عملية التحقيب تلك وما يتّصل بها، وهو نقاش قديم جديد أومتجدّد، ولن نستطيع نحن هنا حسمه من خلال هذه السطور[5].

وإذا تجاوزنا ما يثيره ذلك التحقيب وغيره من ملاحظات، أو يطرحه من إشكالات، فإن ثمة إشكالاً آخر عويصاً يتعلق بما يمكن أن نطلق عليه تحقيب التاريخ الوطني أي تحقيب تاريخ الدولة الحديثة، على أي أساس يمكن أن يكون؟ وما هي المرتكزات التي يمكن الاعتماد عليها في وضعه؟ سيما وأن بعض الدول حديثة النشأة، مثل موريتانيا، كانت مرتبطة تاريخيا بمجال أكثر رحابة واتساعاً منه الآن؟

إن محاولة الإجابة عن هذين الإشكالين تعتبر ضرباً من المغامرة بل المخاطرة،

5ـ عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، مرجع سابق، ج2، ص: 270 وما بعدها.

لأنها تحتاج إلى غوص عميق وسبح طويل وبعد نظر، علاوة على قوة الحس والدربة والمراس، وقد يخرج بنا تتبعها وتشعبها عما نرمي إليه من خلال هذه السطور؛ لأن التحقيب في حد ذاته يقتضي تحقيق التوازن بين الأطوار الكبرى والتحولات العميقة التي عرفها بلد ما عبر تاريخه. لذلك لا مناص من تجاوزها وعدم الخوض فيها، والتركيز، بما يتناسق مع سياقنا، على تحقيب التاريخ الموريتاني وما يطرحه من إشكالات ترتبط أساساً بمصادره، فهل هناك تحقيب لذلك التاريخ؟ وما هي المرتكزات التي ينبني عليها؟

ظهرت منذ سنوات قليلة بعض البحوث والدراسات التاريخية الموريتانية التي تحاول مقاربة الموضوع من خلال تقديم مقترحات لتحقيب التاريخ الموريتاني، سعياً إلى تبسيط دراسته وتدريسه، وهي مقاربات اختلفت باختلاف تصورات أصحابها وتقييمهم لتاريخ البلاد، ومن بينها: دراسة حول «عوائق البحث في التاريخ الموريتاني»[6] للبحاثة محمد المختار ولد السعد، حاول فيها وضع تحقيب إجرائي للتاريخ الموريتاني، وقسّمه إلى خمس فترات تاريخية متميزة وهي:

- العصور العتيقة: التي تنتهي بالفتح الإسلامي في القرن 2 هـ / 8م
- الطور الإسلامي الأول: ويبدأ من القرن 2هـ / 8م إلى منتصف القرن 5هـ / 11م
- الطور الإسلامي الثاني: ويبدأ من منتصف القرن 5هـ / 11م إلى القرن 9هـ / 15م
- الفترة الحديثة: وتبدأ من القرن 9هـ / 15م إلى 13هـ / 19م
- الفترة المعاصرة: وتبدأ من القرن 13هـ / 19م إلى اليوم.

تتمثل نهاية العصور العتيقة - حسب هذا التحقيب - «في انتشار الواقع الإسلامي بما يمثله من «قطيعة» مع ما قبل التاريخ، بينما يمثل الطور الإسلامي الأول طور تنظيم منطقة شمال غرب إفريقيا (بما فيها البلاد الموريتانية الحالية) على النمط الإسلامي، وانتظام العلاقات مع باقي العالم الإسلامي. في حين يمثّل الطور الإسلامي الثاني تحولاً حضارياً عميقاً في ظهور حركة المرابطين التي طبعت المنطقة بطابعها المتميز. بينما تمثل الفترة الحديثة بداية تحول اجتماعي وثقافي في البلاد، تساوقاً مع انسياح القبائل الحسانية المعقلية إليها»[7].

أما الدراسة الثانية فهي: «تاريخ موريتانيا.. العناصر الأساسية»[8] للبحاثة

6ـ محمد المختار ولد السعد، « عوائق البحث في التاريخ الموريتاني»، المؤرخ العربي، العدد: 48، 1994، ص: 44.

7ـ محمد المختار ولد السعد، « عوائق البحث في التاريخ الموريتاني»، م. س، ص: 44.

8ـ حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، الرباط، منشورات الزمن، 2007، ص: 13، 14.

حماه الله ولد السالم، التي استعرض من خلالها تصوراً عن التحقيب المذكور، ورأى فيها تقسيمه إلى خمس فترات هي:

- تاريخ قديم: ويبدأ من القرن 2م إلى القرن 7م
- تاريخ وسيط: ويبدأ من القرن 1هـ/7م إلى القرن 10هـ/ 16م
- تاريخ حديث: ويبدأ من القرن 10هـ/16م إلى القرن 12هـ/18م
- تاريخ معاصر: ويبدأ من 12هـ/18م إلى عام 1903م
- تاريخ راهن: ويبدأ من عام 1960م

وتتميز الفترة القديمة ـ حسب هذا التحقيب ـ «بظهور العربات التي جاء بها شعب الكرامانت، والتي شكّلت بداية التواصل مع إفريقيا الشمالية، وينتهي بالفتح الإسلامي للصحراء في القرنين السابع والثامن».

وتمتد فترة التاريخ الوسيط من الفتح الإسلامي خلال القرن الأول الهجري السابع الميلادي وحتى سقوط تنبكتو على يد الباشا جؤذر سنة 1591م.

أما التاريخ الحديث، أو العصر الحساني وفق هذا التحقيب، فيبدأ من سقوط تنبكتو سنة 1591م، وينتهي بحصار «الحنيكات»[9] سنة 1778، الذي يعدّ حداً فاصلاً بين التاريخ الحديث والمعاصر، حيث يبدأ هذا الأخير من نفس العام وينتهي برزوح البلاد تحت نير الاستعمار الفرنسي عام 1903م.

أما التاريخ الراهن فيبدأ مع قيام الدولة الوطنية عام 1960م ويستمر حتى الآن[10].

لا يخفى ما بين ذينك التحقيبين من بون شاسع واختلاف كبير، ولعل ذلك ما يدفعنا إلى إبداء بعض الملاحظات بخصوص الأحداث التي تم اعتمادها أساسا لبداية حقبة أو نهاية أخرى؛ فبخصوص التحقيب الأول فإننا نرى أن ثمة وجاهة ومنطقا في تقسيم المراحل التاريخية من خلال رصده واستحضاره للتحولات الكبرى التي عرفتها المنطقة، وأثرها في أحوال الاجتماع ونحلة العيش وما إلى ذلك، لكنه أغفل الحديث عن الفترة الراهنة. بمعنى تصنيفها كمرحلة تالية للفترة المعاصرة وفق ما بات معروفا في حقل الدراسات التاريخية، لذلك ربما يعتقد

9ـ الحنيكات: هي احنيكات أو «احنوك بغدادة»، موضع يقع إلى الشرق من مدينة تجكجة في الوسط الموريتاني حاصر به المغافرة وأولاد امبارك وأولاد عبد الله وأولاد الناصر وأولاد الغويزي وادوعيش الذين انتصروا عليهم، في نهاية المطاف، بعد حصار طويل. حوليات تجكجة، تحقيق عائشة بنت ديدي، بحث مقدّم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989/1990، ص: 20.

10ـ حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا «العناصر الأساسية، م. س، ص: 13، 14.

الناظر في ذلك التحقيب أن المرحلة المعاصرة تمتد من القرن 19م وإلى يوم الناس هذا، مما قد يشي بنوع من عدم الدقة، عكس ما يظهره تمعّن التحقيب وتفحّصه. إذ يبدو للوهلة الأولى استيعابه للأطوار الكبرى التي عرفتها البلاد، وهي دخول الإسلام، قيام حركة المرابطين، وصول القبائل العربية المعقلية، الاستعمار، فقيام الدولة الوطنية، وإن تم إدراج هذا الأخير ضمنيا في المرحلة المعاصرة بكاملها.

أما التحقيب الثاني فقد أضاف مراحل تاريخية جديدة وأهمل أخرى، وبتجاوز الأطر الزمنية التي انطلق منها التحقيب، والتي تختلف قليلا عما ورد في التحقيب الأول، فإن الأحداث التاريخية التي تم اعتمادها حدا فاصلا بين حقبة وأخرى، قد لا تكون على قدر واحد من الأهمية، بل إن هناك أحداثا أخرى أهم كان لها تأثيرها الكبير في مجرى تاريخ البلاد فيما بعد، زد على ذلك ما يبدو من اضطراب بيّن في نهاية الحقبة المعاصرة وبداية الحقبة الراهنة، حيث تنتهي الأولى مع مجيء الاستعمار عام 1903، وتبدأ الثانية مع قيام الدولة الوطنية، مما يعني أن المرحلة الاستعمارية كلها غير مدرجة ولا «محقّبة» كما يفهم من هذا التحقيب. وهي مرحلة كان لها ما بعدها بلا شك، وأثّرت - سلبا أو إيجابا - في تاريخ البلاد وحضارتها وتكوينها الحديث.

ويُظِهر هذا التحقيب ـ كسابقه ـ اطلاع البحاثة على المحطات الكبرى في تاريخ البلاد، وتوظيف ذلك في محاولة تنشد الإحاطة والاستقصاء. ويبقى هذان التحقيبان اجتهاداً من الباحثيْنِ يستند إلى ركن شديد.

لكن الإشكال الذي يفرض نفسه في هذا السياق هو: على ماذا اعتمد التحقيبان؟ أو بعبارة أدق: ما هي مرجعية التحقيبين؟ هل تم الاعتماد فيهما على المصادر المتوافرة عن تاريخ البلاد، أم على اعتبارات أخرى منهجية وموضوعية تعود إلى واضعيهما وتكوينهما التاريخي والمعرفي؟

لا شك أن الفرضية الأولى أكثر وجاهة ومنطقا من غيرها، إذ إن التحقيب المراد به في الأساس، كما تقدم، تبسيط فهم التاريخ وتقريبه من القارئ ـ الدارس، بتوزيعه على مدد وحقب مختلفة ليسهل عليه استيعابه، ومن ثم إمكانية كتابة تاريخ كل حقبة انطلاقا من مصادرها المتوافرة. ومن هنا نفهم علاقة المصادر بالتحقيب وبكتابة التاريخ إجمالاً.

II ـ مصادر التاريخ الموريتاني:

إنّ أولى العوائق التي تعترض دارس التاريخ الموريتاني، تتمثل في شحّ مصادره وندرتها في بعض الأحيان، ولعل ذلك ما يستدعي منّا تصنيفها والتعريف بها ليتنسى لنا فهم السياق التاريخي العام الذي بدأ في خضمه تدوين التاريخ الموريتاني، بغض النظر عما يطرحه ذلك التدوين في حد ذاته من إشكالات.

وتأسيساً على ذلك يمكن تقسيم مصادر التاريخ الموريتاني إلى ثلاثة أقسام هي:

1 ـ الآثار الأركيولوجية: والمقصود بها نتائج البحث الأثري الذي بدأ في البلاد منذ ستينيات القرن المنصرم في الحواضر العتيقة، مثل: كمبي صالح، تاوداغست، وأثمر ـ رغم محدودية أعماله في الزمان والمكان ـ بعض الأعمال الهامة التي من بينها "سلسلة اركيولوجيا اوداغست". وهذا النوع من المصادر خارج عن مجال اهتمامنا في هذا العمل.

2 ـ الرواية الشفوية: وهي أساس ما دوّن من التاريخ الموريتاني، لأن كل ما كتب من ذلك التاريخ منذ القرن 17م وحتى الآن، اعتمد بشكل متناهٍ على الرواية الشفوية. ولعل ما يؤكد وجاهة ما ذهبنا إليه هو ما تشير إليه صيغ الإحالة بشكل واضح، كأن يقول المؤلف: أخبرني فلان، أو حدثني فلان، أو سمعت من الثقة، دون تعيين، وأحيانا يذكر سلسلة الرواية الشفوية على شكل الحديث المسلسل. وقلّما يسلم سطر مما دبّج قديماً من ذكر أو إشارة إلى رواية شفوية اعتمد عليها المؤلف في كتابة موضوع معين تصريحا أو تلميحاً[11]. وحسبك مثالًا على ذلك اعتمادُ محمد اليدالي في نصّيه «شيم الزوايا» و«أمر الولي ناصر الدين» على ما استقاه من الروايات الشفوية المأثورة عن الثقات العدول في زمانه، سالكاً في ذلك منهج الإسناد، حيث يقول: «وروينا عن الصالح ميتور بن أبي الصالح عن اتشفغ عبدالله بن محمد بن المختار بن ابهنض أوبك عن عمه أحمد أكذ المختار»، وبهذا الإسناد أيضا أصّل بعض قصص «تشمشه» في ظل حكم أولاد «رزك». ثم انتقل إلى سند آخر عن محمد بن حبيب بن خير عن ألفغ المصطفى بن أبي عبدالله، وهكذا دواليك[12]. كما اعتمد أحمد بن الأمين الشنقيطي في مانقله

11ـ منّي عبدالقادر، التاريخ الشفوي الموريتاني، "مقتضيات الفهم وعوائق التدوين"، دراسة مرقونة، وقد نشر ملخص عنها ضمن الندوات الفكرية لأيام الشارقة التراثية في دورتها العاشرة، 4ـ2012/4/20.

12ـ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة، تقديم وتحقيق محمذن ولد باباه، قرطاج، بيت الحكمة، 1990، ص: 77، 82، 83.

في كتابه الوسيط في تراجم أدباء شنقيط على ما استقّر في خلده من الروايات التي جمعها عن تاريخ بلده وثقافته، قبل أن يشدّ الرحال ويلقي عصا التسيار في مصر، كما ذكر في مقدمة كتابه[13]، حيث أشار بما يفيد الامتعاض والتأسف على عدم وجود مصدر تاريخي مكتوب عن تاريخ البلاد وآدابها يمكن الاعتماد عليه أو الرجوع إليه لفهم حادثة أو معرفة واقعة، أو ترجمة قامة علمية. وقد كانت تلك الندرة أو العزوف أحد أبرز دوافع الشنقيطي إلى تدبيج كتابه المذكور، حيث يقول في مقدمته: «ولما لم يتقدمني في هذا من أستمد منه، ولم يكن في هذه البلاد من يمد يد المساعدة، كنت حريا بالمعذرة، ممن تطمح نفسه إلى أكثر مما جمعت»[14]. لذلك كان اعتماد المؤلف في ما نقل على ما استقر في خلده من أخبار ووقائع وأحداث وأنساب وأشعار، ومعلومات أخرى ساقها تتعلق بالخطط والعمران، وإن كان الغالب على الظن أنه اعتمد على مصادر مكتوبة لكنها قليلة جداً كما سنشير لاحقاً. وقد ظل الاعتماد على الرواية الشفوية في اطراد مستمر، خاصةً في ظل غياب مصادر مكتوبة عن الكثير من الأحداث التاريخية والشجرات الأنسابية في البلاد[15].

ومن بين أهم المدونات التاريخية التي اعتمد أصحابها على الرواية الشفوية والمزاوجة بينها وبين المصادر المكتوبة: كتاب **الأخبار** لهارون بن الشيخ سيديا (1919 ـ 1977)، وهو عمل ضخم من حيث غزارة المادة التاريخية وتنوعها، ويقع في نحو 6000 صفحة من الحجم المتوسط، وفيه نقول كثيرة ومعلومات غزيرة، أغلبها يعتمد على الرواية الشفهية[16]. ثم كتاب **تاريخ بلاد الترارزة** لمؤلفه أحمد سالم بن باكا (1901 ـ 1981)، الذي يقول فيه: «ولم أرو شيئا مما ذكرت فيه من غير هذه الكتب إلا عن ثقة صدوق مشاهد لما رويت عنه، أو راو عن ثقة

13ـ أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الخانجي القاهرة ومؤسسة منير بموريتانيا، الطبعة الرابعة 1989، ص: 11.

14 ـ أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصدر سابق، ص: 11.

15ـ قام المعهد الموريتاني للبحث العلمي في إطار المسوحات التي نفّذها لجمع وحفظ التراث الموريتاني خلال سبعينيات القرن المنصرم، بتسجيل مكتبة صوتية تتألف من حوالي 524 شريطاً على أقراص سي دي. وقد تم إفراغ محتويات هذه الأشرطة وأدخلت نصوص المقابلات في الحاسوب لكنها لم تراوح مكانها ولم يتم استغلالها ولا توظيفها، على حد علمنا، في ما جمعت له.

16ـ هارون بن الشيخ سيديا، كتاب الأخبار المدوّن في أخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة بهم، نواكشوط، المطبعة السريعة، د. ت، ج: 2.

مثله شاهد. وقد تجنبت فيه الحكايات المزخرفة التي ليس لها أصل صحيح»[17].

ولعل أبرز النماذج وأهمها وأكثرها دقة وتمحيصاً، وإن لم يسلم من بعض الهفوات، عملُ المؤرخ الموريتاني الكبير المختار بن حامد (1897 ـ 1993) المعنون: «**موسوعة حياة موريتانيا**»، وهو أول كتاب جامع وشامل وموسوعي عن التاريخ الموريتاني، كما سيأتي، جمع بين دفتيه العديد من الروايات الشفهية التي كانت تتناقلها الأجيال وترويها الأعيان عن تاريخ البلاد وماضيها. يقول المؤلف: (وحسبي أني جمعت فيه مما كان متفرقا في شتى المصادر التي لا تزال مخطوطة، بالإضافة إلى ما أخذته من أفواه عدد كثير من الثقات الذين التقيت بهم في مختلف أنحاء هذه البلاد (...) وتحريت في ما أخذته عن الحكايات الشفهية التي تختلف رواياتها ـ غالبا ـ ما رأيته أقرب إلى الصحة، بعد المقارنة، تاركاً للباحثين رأيهم ورواياتهم»[18].

وتأسيساً على ما سبق، فإن المصدر الشفوي ظل يحتل مكانة هامة في تدوين تاريخ البلاد وتوثيق أخبارها، إلا أنه مع ذلك يطرح العديد من الإشكالات والقيود، نظراً لطبيعة حساسيته، لأن الروايات الشفوية ينالها – عادةً - الكثير من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.. وربما تناسخت من راو إلى آخر، وربما تنقصها النسيان من أطرافها، أو نالت منها العواطف الجامحة تضخيماً وتقزيماً، لذلك يطرح اعتمادها اليوم في كتابة التاريخ إشكالات عويصة، فلا مناص - والحال هذه - من إخضاعها للعديد من الشروط، ومقابلتها ومقارنتها بمصادر مكتوبة، إن وجدت، أو روايات أخرى للتأكد من مدى سلامتها ومطابقتها للواقع[19].

3 ـ المصادر المكتوبة: لا يخفى ما ينطوي عليه هذا المفهوم من غموض يصل إلى حد الإبهام، نظراً لتشعّب استخدامه وما يحيل إليه، فإذا كان المقصود به "كل ما يوصل الصوت والحس، فإن ذلك يشمل الشاهد الكتابيّ والرسوم المحفورة في الحجر وفي الصخر وفي قطع النقود.. وباختصار؛ كل رسالة تحفظ اللغة والفكرة بقطع النظر عن حاملها"، لكن هذا التمديد للمفهوم قد يؤدي إلى إقحام العملة

17ـ أحمد سالم بن باكا، تاريخ بلاد الترارزة، مخطوط نقلًا عن محمد المختار ولد السعد، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703 ـ 1860، الجزء الأول، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الطبعة الأولى 2002، ص19.

18ـ المختار بن حامد، التاريخ السياسي، م. س، ص: 9، 10، 11.

19ـ أحمد الشكري، الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن 18م(نموذج بلاد السودان)، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2010، ص84 وما بعدها.

والخطاطة وسائر العلوم المساعدة في دائرته، وهي مستقلة في الحقيقة عنه[20]. وتضيق دائرة المفهوم أكثر إذا تعلق الأمر بموريتانيا، حيث يقتصر «على ما هو مكتوب على الورق أو منقوش على الحجارة أو غيرها»[21].

ووفقاً لهذا التحديد تنحصر مصادرنا في نوعين، علاوة على الآثار الإركيولوجية التي أسلفنا الحديث عنها، وهما:

أ ـ مصادر خارجية: ونقصد بها المصادر التي كتبتها أقلام غير موريتانية، وهي متفاوتة الأهمية ومتنوعة الأشكال، وقد ظلت حيناً من الزمن تمثل المصدر الوحيد عن تاريخ البلاد الموريتانية، ذلك أن اهتمام الموريتانيين بتدوين تاريخهم وأنسابهم إنما برز في سياق متأخر، نتيجة لجملة من العوامل التي سنفصّل القول فيها لاحقاً، لذلك ظل التعويل في الحصول على معلومات وأخبار عن البلاد خلال العصور الماضية على مصادر خارجية عربية وأوروبية، ولكنها مصادر خاطفة وخافتة ومثغورة ومشوهة، ولا تقدّم في الغالب إلا نتفاً متفرقةً وغامضةً في بعض الأحيان عن ماضي البلاد الموريتانية، لأنها لا تعدو كونها إطلالة من الخارج على الواقع والمجتمع الموريتاني، رغم ما قد ينطوي عليه بعضها من أهمية بالغة إذا أُحسن التعاملُ معه بمنهج علمي سليم. ويمكن تقسيمها إلى عدة أقسام:

✓ مصادر عربية: وتشمل كتابات الرحالة والجغرافيين العرب التي من أهمها بالنسبة للمنطقة:

ـ صورة الأرض، لابن حوقل، المتوفى: 977م.

ـ المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، لأبي عبيد البكري، المتوفى: 1094م.

ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للإدريسي، المتوفى: 1156م.

ـ الأنيس المُطرب بروض القرطاس، لابن أبي زرع، المتوفى: 1326م.

ـ تقويم البلدان، لأبي الفداء، المتوفى: 1331م.

ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري، المتوفى: 1349م.

ـ عجائب الأبصار في ممالك الأمصار، أو (رحلة ابن بطوطة)، المتوفى: 1377م.

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، أو (تاريخ ابن خلدون)، المتوفى: 1406م.

ـ الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، لمؤلف مجهول... إلخ[22].

20ـ هشام جعيط، «المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر»، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، جين افريك ـ اليونسكو، باريس، 1983، ص: 103.

21ـ محمد المختار ولد السعد، «عوائق البحث في التاريخ الموريتاني»، م. س، ص44.

22ـ محمد المختار ولد السعد، « عوائق البحث في التاريخ الموريتاني»، م. س، ص46.

وتعتبر هذه المصادر العربية من أهم المصادر المكتوبة التي تتضمن في تضاعيفها نتفاً من التاريخ والجغرافيا عن «موريتانيا» الوسيطة. على أن كتاب «الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطية» لأبي سعيد الصيرفي الأنصاري يبقى أهم مصدر عن تلك الفترة، إلا أنه ما يزال مفقودا حتى الآن[23].

✓ مصادر سودانية تنبكتية، ومن أهمها:

- كتاب الفتاش لمحمود كعت.

- تاريخ السودان لعبدالرحمن السعدي.

✓ مصادر أوروبية: والمقصود بها كل الكتابات الأوروبية التي دوّنت عن موريتانيا، ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وهي تشمل الكتابات البرتغالية والهولندية والبريطانية والفرنسية، وهي أوفرها حظاً. وتتميز هذه المصادر بشكل عام بالتنوع والاستمرارية، باستثناء الفترة السابقة للقرن الثامن عشر التي لم تحظ بنصيب وافر من تلك المادة. وتشمل هذه المصادر: وثائق المعاملات التجارية، والتقارير الإدارية وكتب الرحلات، والمراسلات العامة التي كانت تتم بين الحكومة الفرنسية وولاتها العامين في السنغال، وبين هؤلاء الولاة وقادة المراكز الإدارية والزعماء المحليين، ثمت تقارير العمليات العسكرية التي تشمل - علاوةً على المعلومات الحربية - معلوماتٍ طبيعيةً وطبوغرافيةً عن البلاد الموريتانية[24].

وتغطي هذه المصادر الأوروبية على اختلاف أنواعها الفترةَ الممتدة من القرن السادس عشر الميلادي إلى غاية القرن العشرين، وإن كانت الوثائق الفرنسية أكثرها عدداً، وبخاصة ابتداءً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ حينما استحكمت سيطرة الفرنسيين على البلاد. على أن السواد الأعظم من هذه المصادر - باستثناء الفرنسية - يعد في حكم المفقود، نتيجة عدم إمكانية الاستفادة منه

23ـ حماه الله ولد السالم، «تدوين التاريخ الموريتاني « مراجعة في المنهج والقراءة، في التصوف والتقريب الطائفي بين مصادرة الحق وتضارب الأولويات، أعمال ندوة تيكماطين للفكر الإسلامي، الدورة الخامسة، 8 و9 و10 يوليو 2005، تيكماطين، موريتانيا، تنظيم المركز الإفريقي للدراسات والأبحاث الصوفية بتكماطين بالتعاون مع مؤسسة آل البيت، 2006، ص: 198.

24ـ اعتمد المؤرخ الموريتاني سيدي بابه ولد الشيخ سيدي في رسالته حول تاريخ إمارتي إدوعيش ومشظوف على بعض هذه المصادر وأحال إليه. انظر: الفصل الثالث من هذا العمل، ومحمد المختار ولد السعد، م. س، ص46 وما بعدها.

بحكم عائق اللغة وغيره، رغم ما تنطوي عليه من أهمية، لأن بعضها انفرد ـ بحكم السياق التاريخي الذي ظهر فيه ـ بمعلومات وإشارات هامة عن تاريخ البلاد[25].

أما المصادر الفرنسية فهي من أهم المصادر الموجودة عن تاريخ موريتانيا، نظراً لما تقدمه من مادة تاريخية غنية بالأحداث والوقائع، تشمل: «المعاهدات والمراسلات والإحصائيات ووثائق المعاملات والصحف، وغيرها من المصادر الأولية الثمينة والشهادات العيانية التي تمكّن المؤرخ من استعمال الطرق الدراسية الدقيقة المستعملة في دراسة التاريخ اليوم، ولاسيما التاريخ الكمي»[26].

ب ـ مصادر محلية: وهي في مجملها، كما سنوضح، عبارة عن مدونات إخبارية وحولية وأنسابية وتراجمية ومناقبية، يعود أقدمها إلى القرن 11هـ/17م، وعرفت تطوراً ملحوظاً، تساوقاً مع تطور حركة التدوين في المجتمع الموريتاني، ونمو الوعي التاريخي. وهي مادة هذا العمل، التي سنتناولها بشيء من التفصيل في الفصول القادمة.

25ـ مما يبعث على التأسف بالنسبة لنا كباحثين في التاريخ الموريتاني ما نراه اليوم من عزوف واضح من لدن أغلب الباحثين الموريتانيين عن الاهتمام بمواضيع جديدة تلامس قضايا غير مطروقة من تاريخ البلاد في إطار علاقاتها بمختلف القوى الأوروبية التي كانت ترابط على شواطئها خلال القرن الخامس عشر الميلادي، وتوغلت خلال القرون 16، 17، 18، من غير الفرنسيين، لأن مرحلة هؤلاء قد لهجتها أقلام الباحثين طويلا، في حين ما تزال صلات البرتغاليين والهولنديين والإنكليز بالبلاد خلواً من الدراسة والبحث. وستمكن دراسة هذه الفترات من إلقاء أضواء كاشفة على حقب ما تزال شبه مغمورة من تاريخ البلاد.

26ـ محمد المختار ولد السعد، مرجع سابق، ص: 47. محمدو ولد محمذن، «المصادر الأجنبية للتاريخ الموريتاني المعاصر»، قراءة في الأرشيف السنغالي. في منهجية كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي: أعمال المؤتمر الأول لمنتدى التاريخ المعاصر المنعقد بزغوان من 27 إلى 29 نوفمبر 1997، زغوان، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 1998، ص: 26 وما بعدها.

ثانياً: نشأة حركة التدوين في موريتانيا

I ـ الإرهاصات الأولى:

أحدث انتشار الإسلام في الصحراء وبين القبائل الصنهاجية، طفرةً كبيرةً، وتحولاً فكرياً شاملاً انتشرت على غراره اللغة العربية والثقافة الدينية في المنطقة، وأدى لاحقاً إلى تحطم حصون اللغة الصنهاجية، الواحد تلو الآخر، في نطاق ما عُرف بـ "التعرّب الرسمي"، الذي طاول الأرستوقراطية الصنهاجية في البداية قبل أن يتوزع وينتشر، وإلى ذلك يشير البحاثة عبدالله بن حميدة في أطروحته للماجستير "نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط"، بقوله: "وحين دخل الإسلام في صدام مباشر مع صنهاجة الجنوب، كشفت نتائج الصدام عن العربية غطاءها، فإذا عودها صلب، مذاقه حلو وجلاله مهيب، فأقبلت عليها خاصة الخاصة من أرستوقراطية صنهاجة، فانقبضت لذلك ـ بمقدار معلوم ـ الصنهاجيةُ على نفسها، واستشعرت ريبة أقلقتها، حتى إذا بدأت المرحلة الثالثة من نشر الإسلام أو مرحلة التولّد الداخلي للدعوة، اختل ميزان القوى لصالح اللغة العربية، وأصبحت لغة الثقافة والتعليم، فزاد الإقبال عليها، وتوسعت دائرتها بتوسع نشاط الدراسات الإسلامية والقائمين عليها. ولكنها لما تنبت بعد في الأوساط الشعبية التي احتكرتها الصنهاجية ولاذت بها، خاصة في المناطق البعيدة نسبيّاً عن مراكز الإشعاع الثقافي"[27]. وبذلك فقد أسهمت صنهاجة في تعرّب المنطقة من خلال تيار التعلّم الذي كان له في الزوايا[28] قوة ومدد وباعث دينيّ وسند، لكنه تعرُّبٌ ظل محصوراً في نطاقات ضيقة، وإن آذن ببداية إرهاص للتعرّب الشامل للمنطقة، الذي اكتمل على عهد بني حسان[29]. بيد أن ما ينبغي التأكيد عليه أن ثقافة القوم ظلت بعيدة تمام البعد عن التدوين والتوثيق والكتابة، التي لم تترسخ تقاليدها آنئذٍ، لذلك بقيت ردحاً من الزمن ترتكز على الشفاهية، وظلت آدابها وتقاليدها الشعبية من أمثال وحكايات وأساطير، مروياتٍ تتناقلها الأجيال

27ـ عبدالله حسن بن حميدة، نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط (موريتانيا)، أطروحة ماجستير، جامعة القاهرة، 1986، ص: 38، 39.

28ـ الطبقة التي كانت تمتهن العلم والتدريس وما يتصل بهما في المجتمع "الشنقيطي".

29ـ الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، «عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة المحاضر»، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1987، ص: 40، أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، «مساهمة في الأساليب»، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الطبعة الأولى 1995، ص: 73 وما بعدها، وعبدالله بن حميدة، مرجع سابق، ص: 40 وما بعدها.

شفاهاً، وهي في عمومها لا تتجاوز القرن التاسع الهجري[30]. ويبدو التساؤل الأكثر وجاهة في هذا السياق هو: لماذا لم تبدأ - تساوقاً مع ذلك التعرّب الشامل والترسخ الكامل للثقافة العربية والدينية في موريتانيا الأمس - حركةُ تدوين العلوم والمعارف الدينية واللغوية، وبخاصة أن الأرستوقراطية الصنهاجية كانت قد تاقت نفسها لمثل هذه المعارف، واشرأبت أعناقها لها؟ ثم ما العلة في تأخر ظهورها؟

1 ـ عوائق التدوين:

لقد تضافرت العديد من العوائق التي حالت دون اهتمام الموريتانيين بالتدوين بشكل عام، وهذه العوائق منها ما هو ذاتي؛ يرتبط بالشيخ الشنقيطي القيم على التراث، الذي كان يلاقي من عنت يومه وعسر تدبير غده وشظف عيشه ما يعجزه إلى حين، ويلهيه على طول المدى ـ ما بقي العنت والعسر والشظف ـ عن تلافي ضياع تراثه الثقافي[31]، فضلًا عن فضائه الذي كان مرتعاً خصباً للحروب والصراعات، فقد كان حبلها على الغارب منذ انفراط عقد المرابطين فيها، وحتى انسياح القبائل الحسانية في القرن الرابع عشر الميلادي، فضلا عن الظعن والترحال اللذين كانا سمة ملازمة للموريتانيين منذ القدم. وقد ألقت الأوضاع السياسية التي عاشتها موريتانيا الأمس خلال الفترة الممتدة من القرن 5هـ/11م إلى القرن 8هـ/14م، بظلال كثيفة على الواقع الثقافي في البلاد، وأسهمت في انصراف همم العلماء والفقهاء عن العناية بالتاريخ وتدوين أحداثه، تعلُّلاً بالعديد من الحجج والأسباب التي من بينها ما ذكرناه أعلاه، ومنها كذلك ما هو موضوعي يتعلق بندرة الورق وما يساعد على الكتابة، وصعوبة الحفظ، وقابلية المحفوظ للانمحاء والزوال، لرداءة الورق وبهتان الخط. ويمكن إجمال تلك الأحوال كلها وتلخيصها في: «غلبة الطابع البدوي على حياة القوم، بما يلازمه من حل وترحال، وظروف الحياة الصحراوية القاسية والمضطربة، وشدة اهتمام النخبة المثقفة بالعلوم الدينية حفظاً واستيعاباً، حتى كاد اهتمامها ينحصر فيها، والبنية الاجتماعية والسياسية المتميزة»[32].

30ـ محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، تونس، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، 1987، ص: 14.

31ـ عبدالله حسن بن حميدة، نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط (موريتانيا)، مرجع سابق، ص: 68.

32ـ امحمد بن أحمد بن يورة الديماني، إخبار الأحبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد ولد الحسن، الرباط، معهد الدراسات الإفريقية، 1992، ص: 7.

لقد جعلت كل تلك العوامل من مسألة التدوين في موريتانيا الأمس، ضرباً من المستحيل، فضلاً عن ترديد أغلبهم للمقولة المشهورة: «من ألّف فقد استهدف». على أن الفترة اللاحقة ستشهد تحولاً تدريجياً في حياة الموريتانيين، وبخاصة مع نهاية القرن العاشر الهجري، حيث بدأت «النخبة المثقفة» تضطلع بمحاولات لمحاكاة التأليف الخارجي والنسج على منواله، ولكن على استحياء.

2 ـ بداية ظهور التأليف المحلي:

إن الصورة التي حاولنا الإحاطة بجوانبها لبيان أسباب علة تأخر التدوين في موريتانيا الأمس، تضعنا أمام تساؤل لا مناص من طرحه وطرقه وخوض غماره، وهو يتعلق بمدى وجود تراث مكتوب في البلاد قبل العصر الحساني، الذي شهدت خلاله طفرة كبيرة انعكست مظاهرها على كافة مناحي الحياة وبخاصة الثقافية، حيث تم خلاله التعريب الشامل للبلاد، وأصبحت اللغة العربية الملحونة «الحسانية» هي لغةَ السكان ووسيلةَ التواصل بينهم، وحلت محل اللهجات الأخرى التي كانت سائدة في الفترات السابقة. فهل كان هناك تراث في البلاد قبل العصر الحساني؟ وإن كان، ففيم تمثّل؟ ومتى بدأ التأليف المحلي يطفو على السطح؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي غوصاً عميقاً وسبحاً طويلاً في أعماق المصادر الموريتانية المتوافرة حتى الآن، وهي في مجملها لا تجود بشافٍ، للأسف الشديد، عن الموضوع، ولا تعطي إلا تصوراً باهتاً عن البدايات الأولى لنشأة التدوين في موريتانيا، لكن الذي لا مراء فيه، استناداً على تلك التصورات، أن فرضية وجود تراث مكتوب سابق على العصر الحساني، ما تزال قائمة، لكنه تراث يعزى للضياع والاندثار[33]، ابتداء بتراث المرابطين وحتى نهاية القرن التاسع الهجري؛ حيث ظهرت رسالة اللمتوني التي بعث بها إلى جلال الدين السيوطي عام 898 هـ يسأله فيها الإجابة عن العديد من الإشكالات الشائعة في مجتمع بلاد التكرور (موريتانيا وما

33ـ يستعرض الخليل النحوي في كتابه "بلاد شنقيط.. المنارة والرباط" صوراً مختلفةً تشي بصعوبة حفظ وصيانة الكتب في المجتمع "الشنقيطي" إذ ذاك، بفعل الترحّل والظعن اللذين كانا ديدن "الشناقطة" في القديم، والحروب والصراعات. ولعل من أهم تراث الفترة السابقة على العهد الحساني، تراث الشيخ الحضرمي دفين "آزوكي". وإذا تجاوزنا فرضاً هذه المرحلة، فإن الكثير من البز الدفين الذي تركه "الشناقطة" في شتى العلوم والمعارف خلال العهد الحساني، قد تسللت إليه يد الاندثار والضياع. الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط، مرجع سابق، ص: 238 وما بعدها.

حولها). وقد ضمَّن السيوطي هذه الوثيقة في كتابه (الحاوي للفتاوي)[34].

ويبقى التعويل في هذا السياق على ما أنتجه العصر الحساني من معارف وعلوم، حيث مثّل «مرحلة حضارية جديدة، برزت فيها سمات وظهرت حاجات وتجددت أحوال جعلت التراث الفكري المكتوب يظهر بعد أن لم يكن، أو ينسخ جديدُه قديمَه إن كان»[35].

إن اشتغال الموريتانيين بالعلوم الدينية وما يتصل بها من معارف، أدى بهم لاحقاً، بعد أن استوعبوا مضامينها ونهلوا من معينها، إلى محاولة الإسهام في شرح تلك العلوم وتوضيح مبهمها وتبيين مجملها، فكان ذلك إيذانا ببداية حركة التأليف في البلاد، التي يرجع الدارسون نشأتها إلى القرن العاشر الهجري، وإن كان ثمة افتراض لوجود تراث مكتوب سابق على هذه الفترة، لكنه يعزى ـ كما تقدم ـ للاندثار والضياع. إلا أن الثابت الذي لا شك فيه أن البلاد عرفت مع بداية القرن العاشر الهجري ازدهاراً ثقافياً تجلى في "انتشار مدارس العلم وتزايد الكتب المستوردة وظهور التأليف المحلي شارحاً لأعمال السابقين أو مستقلاً عنها"[36].

وقد شملت هذه الحركة - منذ بدايتها ثم ازدهارها وبلوغ أوجها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، التاسع عشر والعشرين الميلاديين، فتراجعها وانهيارها - جميع المعارف والعلوم، وإن كانت الدينية منها واللغوية قد حظيت بالقسط الأوفر، كما يشي بذلك الدليل البيبليوغرافي الذي وضعه المختار بن حامد والخبير العالمي هيمو فسكي، والذي يعتبر أهم دليل للمؤلفين الشناقطة حتى الآن[37]. على أن البدايات الأولى للتأليف الشنقيطي كانت في مجملها عبارة عن اختصارات وحواشي وهوامش وتعاليق مقتضبة وتفاسير موجزة، ومقدمات وشروح مختصرة تتناسب مع إمكانات المؤلفين الجدد، لذلك كانت حركة التأليف في هذه المرحلة عبارة عن توليف بين مقتطفات من كتب شتى أو محفوظات علقت بالذهن من مجالس علمية، وهي أشبه ما تكون بالمران والتدريب الأوَّلي الممهد للتأليف الفعلي[38].

34ـ انظر: جلال الدين السيوطي، الحاوي للفتاوي، ج1، 344.

35ـ أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، "مساهمة في الأساليب"، م. س.

36ـ أحمد ولد الحسن، م. س، ص: 77.

37ـ حول نشأة التدوين في المجتمع الموريتاني يمكن الرجوع إلى الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط «، م. س، ص: 239.

38ـ عبدالله حسن بن حميدة، نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط (موريتانيا)، مرجع سابق، ص: 61، 62.

وتطالعنا المصادر المتوافرة بأن أقدم مؤلَّف شنقيطي معروف في الفقه هو: كتاب "موهوب الجليل في شرح مختصر خليل" لمؤلفه محمد بن أحمد الواداني، ويعود تأليفه إلى القرن 10هـ/16م، وفي النحو: شرح الآجرومية لمؤلفه اند عبدالله بن سيد أحمد المحجوبي. كما برزت مؤلفات في القرآن وعلومه، والحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، والأخلاق والآداب الاجتماعية، واللغة والنحو والصرف، والأدب والعروض والمنطق، والحساب، والجغرافيا، والفلك والتاريخ والسيرة النبوية، وأيام العرب وأسانيد العلماء وتراجم الرجال، على نحو متقارب زمنياً من ذلك[39]. على أن الثقافة المكتوبة إجمالًا لم تكن خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتجاوز الميادين الدينية، وتكاد تنحصر في الشيوخ المختصين في العلوم الإسلامية[40].

بيد أن عناية "الشناقطة" بالتدوين والتأليف قد حدت بهم، بعد هضم واستيعاب المتون والمؤلفات المستوردة، إلى إعادة إنتاجها، لكنه إنتاج لم يكن يزيد في البداية على كونه "نوعا من القراءة الاستنساخية التي لا تضيف، في نهاية المطاف، جديداً إلى النص المقروء"[41] كما أشرنا آنفاً، إلا أن طابع استيعاب المتون والمصنفات، وبخاصة الفقهية منها، ظل في اطراد مستمر إلى أن وصل خلال القرن الثاني عشر الهجري مرحلة الاكتفاء المعرفي، التي تجلت معالمها في وضع تآليف محلية خالصة، ونظم أمهات المتون والمختصرات وشرحها وتفسيرها والتعليق عليها وتطريزها وتذييلها والاستدراك عليها[42]. وكان منهم من أكثَر في ذلك حسب حاله وجده وجهده، كما كان منهم المُقِلّون والمعدمون رغم تصدّره في العلم وتضلعه فيه[43].

وقد شملت حركة التأليف آنئذ سائر الفنون على تفاوتٍ بينها، وقد كان النحو والعلوم اللغوية من أوائل المعارف التي تم الانكباب على دراستها والتأليف فيها إلى جانب العلوم الدينية؛ فألف أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت

39ـ أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، م. س، ص: 72.

40ـ محمد المختار ولد اباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، م. س، ص: 15.

41ـ حماه الله ولد السالم، موريتانيا في الذاكرة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2003، ص: 109 وما بعدها

42ـ مني ولد عبدالقادر، الكتابة التاريخية التقليدية في موريتانيا ما بين القرنين 18ـ 20، "دراسة في قضايا المصطلح والمنهج"، أطروحة ماستر، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء ـ بنمسيك، 2009، ص: 48.

43ـ الخليل النحوي، م. س، ص: 235، 246.

المسوفي الصنهاجي المتوفّى 991هـ شرحاً على منظومة المغيلي في المنطق، وحاشية على شرح التتائي لمختصر خليل، وشرحاً على جمل الخونجي. وألف محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب الله بن المختار المتوفى 1014هـ شرحاً على ألفية السيوطي في النحو سماه «المنح الحميدة في شرح الفريدة»، وشرح شواهد الخزرجية، وله قطع على مقامات الحريري، وحاشية صغيرة على البخاري، وألف أحمد بابا التنبكتي المتوفى 1036هـ مؤلفات مختلفة، وألف سيدي محمد بن أحمد بن يحي بن إبراهيم بن يحي بن عمر المعقلي الحساني شرحا على صغرى السنوسي، ولمحمد بن الحاج أحمد بن اند عبدالله المحجوبي المتوفى 1072هـ تعليقاً على كتب والده وجدِّه لأمه، ولم يصلنا منها شيء، كما لم نعثر على ذكر لأسمائها أو مجالاتها، وألف عمر الولي بن الشيخ محمد عبدالله المحجوبي المتوفى 1070هـ مقدمة في الفقه، وتأليفاً في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ولأحمد بن ايد القاسم الحاجي الواداني المتوفى 1086هـ أجوبة فقهية، وتعليق على مختصر خليل، وألف الطالب عمر الخطاط المتوفى 1091هـ مختصراً لخواص الحيوان من كتاب حياة الحيوان للدميري، وألف محمد بن أبي بكر بن الهاشمي الغلاوي المتوفى 1098هـ عقيدة في التوحيد، وأجوبة في أحكام مستغرقي الذمم، وألف محمد المختار بن الأعمش المتوفى 1107هـ أجوبة في الدماء، ورسالة في اختلاع الناشز، ومؤلفاً في البيان، وكتاب روضة الأفكار في علم الليل والنهار، وله «المِنن العديدة في شرح الفريدة» للسيوطي، وللطالب جدو بن مختار المتوفى 1104هـ مقدمة في المهم من فروض الأعيان.

II ـ تطور حركة التأليف:

عرفت حركة التدوين تطوراً بارزاً خلال القرن التاسع عشر الميلادي وبداية العشرين، وقد برزت ملامح ذلك بشكل جلي في ما تم إنتاجه وتأليفه من مصنفات شملت سائر العلوم، كمّاً وكيفاً، وعكست حجم المستوى الفكري والثقافي الذي وصل إليه العلماء الموريتانيون في تلك المرحلة، بعد استيعابهم لجل المتون والمصنفات التي كانوا يستجلبونها من المشرق والمغرب العربيين في نطاق التواصل الثقافي والفكري الذي جمع أولئك العلماء بأضرابهم من مختلف الأقطار، وعبر قنوات متعددة كالتجارة والرحلات العلمية والحجية.

وقد أسهمت حلقات التواصل تلك في رفد الفضاء الثقافي الموريتاني بنتاجات فقهية ولغوية وأصولية غنية، كانت نواة للنهضة الفكرية التي عرفتها البلاد

خلال القرن الثالث عشر وبداية تاليه كمّاً وكيفاً، كما استحالت مضامين تلك العلوم إلى صراع فكري تمايز على غراره اتجاهان فكريان؛ أصولي ومنطقي[44]. بيد أن ما يلفت الانتباه أن حركة التأليف الشنقيطي لمّا بدأت لم تشمل آنذاك التاريخ، ولم تلامس أحداثه ووقائعه إلا على استحياء، وفي فترة متأخرة نسبيّاً، فما مرد ذلك العزوف؟

44ـ ددّود ولد عبدالله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط ما بين القرنين 12 ـ 13هـ ، أطروحة دراسات دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، 1991 ـ 1992، ص: 8 وما بعدها.

ثالثاً: التدوين التاريخي

I ـ عوائق التدوين التاريخي:

أشرنا في ما سبق إلى بعض العوائق الذاتية والموضوعية التي منعت القوم من التأليف في وقت مبكر، وحاولنا إبراز مدى علاقة ذلك بالواقع الذي كانوا يعيشونه إذ ذاك، وارتباطه في نفس الوقت بنفسيات المؤلفين وهواجسهم التي يمكن أن نتلمسها في ما دبّجوه من مصنفات. فكثيرا ما يعرب المؤلف في مقدمة كتابه عن أوصاف متعددة من أنواع القصور ونعوت العجز وعدم الأهلية في التأليف، عارضاً لمن سامه ذلك وطلبه منه، وسنوضح ذلك بشيء من التفصيل في حينه[45]. على أن الذي لا مراء فيه أن حركة التأليف لمّا بدأت في البلاد لم تشمل حينها التاريخ والأنساب إلا لماماً ويمكن تفسير ذلك العزوف أوإرجاعه إلى جملة من العوامل من أهمها:

1ـ الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها البلاد؛ فمنذ أفول الدولة المرابطية في القرن الخامس الهجري إلى قيام الدولة المعاصرة، لم تخضع البلاد لسلطة مركزية[46]، ولعل ذلك ما حدا ببعض العلماء لوسمها بالبلاد "السائبة"[47]، حيث

45ـ يكثر هذا النوع من المقدمات في الكتب الدينية "الشنقيطية". كما لم تسلم منه المدونات الإخبارية والأنسابية فكثيرا ما يصرّح المؤلف بالداعي الذي دفعه إلى تدبيج كتابه يقول صالح بن عبدالوهاب الناصري في نبذته التاريخية: (هذه نبذة من وفيات الأعيان وتاريخ أعلام هذا الزمان ندبني إلى جمعها السيد الذي فضله لا يعد ولا يستقصى ولا يحد الطالب بن سيد أبي بكر بن الطالب نختار القلاوي..فلم أجد بدا من إسعافه، لجميل نواله وفضله، وسيرته وفضل أسلافه) و"الشناقطة" في ذلك إنما سلكوا مسالك من سبقهم من جلة المؤلفين وجهابذة العارفين كخليل بن اسحاق صاحب المختصر وغيره. ولابن خلدون في المقدمة قول شاهد وأمر آكد على هذا المعنى حيث يقول: (فسمت من نفسي التأليف وأنا المفلس أحسن السوم). انظر: صالح ولد عبدالوهاب، صالح بن عبدالوهاب، وفيات الأعيان ونبذة من تاريخ أعلام هذا الزمان،«الجانب المتعلق بموريتانيا»، تحقيق الجيلاني ولد العربي، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995ـ1996، ص26، الخليل النحوي، م. س، ص: 236، ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة، 1978، ص: 6.

46ـ سيدي بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشظوف، دراسة وتحقيق: إزيد بيه بن محمد محمود، نواكشوط، المعهد التربوي الوطني، 1994، ص: 228.

47ـ البلاد السائبة: وردت هذه التسمية أول مرة علَمًا على البلاد الموريتانية عند الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفى 1241هـ وهي من جملة التسميات التي كانت تعرف بها موريتانيا الأمس؛ كبلاد الملثمين، والمنكب البرزخي، وبلاد المغافرة، وتراب البيضان، وبلاد شنقيط، وإن كانت هذه الأخيرة أكثر شيوعا وذيوعا في الأمصار العربية وسْماً على تلك البلاد. و«السيبة» مفهوم سياسي يدل على عدم خضوع البلاد لأي سلطان أو أي دولة مركزية. والظاهر أنها سمة اتسم بها التاريخ السياسي الموريتاني منذ وفاة أبي بكر بن عمر سنة 480هـ إلى قيام الدولة المعاصرة. وقد خلع الشيخ سيدي بابه ولد الشيخ سيدي المتوفى 1342هـ تلك التسمية كذلك على البلاد الموريتانية، رابطاً إياها بما ينجر عنها؛ حيث يقول: (والسبب في الحروب الواقعة بين الزوايا قديما وحديثا سيبة البلاد وعدم اعتناء من فيها من أهل الشوكة وغيرهم باتباع القرآن المجيد). سيدي بابه ولد الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشظوف، مصدر سابق، ص: 228. إزيد بيه ولد محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، المطبعة الوطنية، 2001، ص: 40، 41، 42.

كانت مرتعاً خصباً للصراعات والحروب، وكان حبلها على الغارب، كما أشرنا سابقاً، ولم تنج المراكز الحضرية القديمة من فساد يعصف بها، ولم يتح لها ولا لآهليها الحفاظ على تالد تراثهم الثقافي. ولنا في خراب "تِنِيكِي"، واندثار "تِكْبَه"، و"آبَيْري"، وفي حروب "وادان"، و"شنقيط"، وخلو "آزُوكِي"، واضطرابات "ولاتة"، ونكسات "تيشيت"، أبلغُ مثل لآثار الصراعات القبلية، لا على صيانة التراث وحفظه فحسب، وإنما أيضا على نموه[48]. لذلك لم يكن ثمة ما يحفّز أو يشجع على الاعتناء بالتاريخ وتدوينه في محيطٍ هذه بعضُ سماته وقسماته[49]. كما لم يَدعُ أمير من أمراء الإمارات التي توزعت في عموم البلاد بعد الانسياح الحساني إلى كتابة تاريخ إمارته، أو تدوين أخبار عشيرته، وإنما كان ذلك يتمّ عادة بطلب «ممن لا تسع مخالفته، ولا تحسن إلا ملاطفته» كما أسلفنا.

وعليه فقد كانت الأوضاع التي تعيشها البلاد خلال تلك الفترات، تتنافى والظروف الطبيعية لكتابة التاريخ التي تستدعي الاستقرار السياسي والسلم الاجتماعي، وبالتالي فلم يكن هناك ما يدفع النخبة الموريتانية «المثقفة» حينها إلى الانكباب على التدوين في التاريخ، علاوة على ما يطرحه التدوين في حد ذاته من مخاطر ويثيره من إشكالات وعوائق وصعوبات.

2 ـ الاعتماد على الرواية الشفوية، والتحرّج من التدوين، حيث كانت البلاد موزعة إلى قبائل وإمارات تعتمد كلٌّ منها في تناقل أحداث ماضيها وأنساب أهلها وسير رجالها على الرواية الشفهية[50]. وقد لخّص البحاثة الخليل النحوي

48ـ عبدالله حسن بن حميدة، نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط (موريتانيا)، مرجع سابق، ص: 68.

49ـ من المعلوم أن الكتابة التاريخية تتطلب توفّر العديد من العوامل التي من شأنها أن تجعل من وقت الكتابة جوا ملائما لتدوين الأحداث والوقائع التاريخية وما يتصل بها في حياة الناس، وهي تشكّل دوافع ومحفزات للمؤرخين لكتابة التاريخ، ومن أهمها الاستقرار السياسي، والأمن على النفس والمال والأهل، علاوة على الدوافع الذاتية والنفسية. بعد ذلك يتم البحث عن المصادر والمظان لتوسيع دائرة الاطلاع والبحث والتقصي من أجل استكمال التصوّر العام للموضوع المدروس، أو ما يطلق عليه أسد رستم: "التقميش". وقد أشار ناسخ حوليات تيشيت في نهاية ذكر تواريخها إلى ذلك المعنى بنوع من التحسّر والامتعاض؛ حيث قال: "وهنا انتهى تاريخ أهل تيشيت، فلم يؤرخ أحد منهم بعد هذا، لانقراض أهل الفهم وعدم قرار الموجود منهم في البلد لضيقه عليهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". محمد بن أعمر بن عشّاي والشريف بويا أحمد بن أحمدُ بوعسرية، حوليات تيشيت، تحقيق محمدو ولد لمرابط، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991 ـ 1992، ص: 102. وانظر: كذلك: عبدالعزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، العين، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000، ص: 147 وما بعدها. أسد رستم، مصطلح التاريخ، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2002، ص: 14.

50ـ امحمد بن أحمد بن يوره الديماني، إخبار الأحبار بأخبار الآبار، م. س، ص: 7.

تلك الوضعية وما قد ينجر عنها من تبعات بقوله: ".. لكن معظم تاريخ البلاد وأنساب أهلها وسير رجالها ظلَّ أقاصيص تتناقلها الأفواه ويتداولها الرواة، فلا جرم ـ والحال هذه ـ أن تتناسخ بعض الروايات من راوٍ إلى راوٍ ومن جيل إلى جيل، وربما ينقصها النسيان من أطرافها أو نالت منها العواطف الجامحة تضخيماً وتقزيماً.. وربما توجس حملة الأقلام خيفةً من كتابة جوانب من التاريخ في مجتمع قد لا يعرف ـ أحياناً ـ كيف يسل ماضيه من حاضره.. وقد يضيق ذرعاً برواية لا تلائم نظره إلى الأسلاف، وقد يسوءه أن تذكر بعض الوقائع أو يغفل أمر وقد ذكر آخر.. لذلك كان تدوين التاريخ في هذا المحيط ضرباً من الجهاد والمخاطرة، لأن فيها من عناء البحث في المجاهل ومظنة التعرض للخطأ وعنت الاستهداف والمواجهة ما يتطلب، علاوةً على العلم والدراية، قدراً كبيراً من الجرأة والصبر والمصابرة والمرابطة"[51].

3 ـ ندرة المصدر التاريخي المكتوب أو انعدامه، ومحدودية الاحتفاء بالتأليف في هذا المجال لحساسيته الشديدة المرتبطة بالأنساب في الغالب، فبدل أن يكون المؤلف محمود الجهد، مشكور السعي، وتحمّل عناء البحث والجمع والتدوين، ربما تعتوره بعض الألسنة بسوء لتناوله لقضية من القضايا ترى فيها مجموعة أو قبيلة قدحاً فيها أو تطاولاً على تاريخها أو تشكيكاً في أنسابها[52].

4 ـ النظر إلى التاريخ على أنه ترفٌ فكريٌّ من الأجدى تركه وعدم الخوض فيه، لما في ذلك من ذكر مساوئ وعيوبٍ أمر الإسلام بسترها، وعدم الخوض فيها، وكذا التعرّض لأعراض الناس، وإثارة الفتن والنعرات والعصبيات، وهو أمر شدد الشارع على تحريمه، وأمر بمجانبته والابتعاد عنه، درءاً للمفاسد، وجلباً للمصالح، وعملاً بالحسنى بين الناس. وقد سيطر هذا المنطق الديني ردحاً من الزمن على عقول العلماء والفقهاء الذين عُنوا بالتدوين وانبروا له لاحقاً، وهو يشي بإشكالية عميقة في الوعي التاريخي لدى القوم آنئذ، وشرخ بيّن في رؤيتهم له، وعدم إدراك صحيح لأهمية الاعتناء بتدوينه وحفظ أحداثه ووقائعه، حتى لا تطاولها أيادي النسيان والضياع[53].

وبالجملة؛ فقد أسهم غياب التكوين السليم للوعي التاريخي لدى الموريتانيين

51ـ الخليل النحوي في تقديمه للجزء السياسي من موسوعة المختار ولد حامد، م. س، ص: أ.

52ـ محمد الأمين ولد محمد عبد الله، التعليل التاريخي عند الشناقطة، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد: 43، 2005، ص: 191.

53ـ الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، م. س، ص: 293.

في تلك الفترة، فضلاً عن العوامل الأخرى التي أشرنا إليها، في عزوفهم عن تدوين التاريخ، بل واعتباره نوعاً من الترف الفكري الذي يجب عدم الخوض فيه أو التعرّض له[54]، لذلك انصرفت همة الرعيل الأول منهم إلى التأليف في السيرة النبوية والأنساب العربية إلى جانب تركيزهم على العلوم الدينية والأدبية، وعكفوا على هذه المواضيع تأليفاً ونظماً وشرحاً واختصاراً وتذييلاً، محاذاةً لمن سبقهم. فألفوا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته وأبنائه وغزواته وسيرة أصحابه وأيام العرب وأنسابهم[55]، ونسجوا في ذلك على منوال المؤرخين والإخباريين والنسّابة العرب، من أمثال الطبري والمسعودي وغيرهما وتأثروا بهم منهجاً وأسلوباً، ولعل ذلك ما تشي به المؤلفات التي دبجها الإخباريون والنسّابة الموريتانيون الأوائل في الأنساب والأخبار والتراجم وغيرها[56].

على أن الأحـوال السابقة وإن أدّت إلى عزوف الموريتانيين عن تدوين تاريخهم، وحدّت من انتشاره حينا من الزمن، إلا أن تأثيرها على ما يبدو كان آنياً، أو تكيّف المؤرخون معها على الأقل، بدليل بروز نصوص تاريخية في خضم الصراعات والتقلّبات السياسية والاجتماعية التي عرفتها موريتانيا وجوارُها منذ

54ـ الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، م. س، ص: 293.

55ـ لعل لهذا الانكباب والعكوف ما يبرره، فبعد أن سرى تعرّب النخبة «الشنقيطية المثقفة»، برزت تجليات هذا الحدث في أشكال متزامنة يمكن حصرها في نقطتين اثنتين؛ أولاهما: تبني التراث العربي، وقد تجلت مظاهر ذلك في ما أسماه «الشناقطة» أنفسهم «إحياء علم أنساب العرب وأيامها»، وفي هذا النطاق بالذات يتنزل سياق اهتمام «الشناقطة» بعلم الأنساب العربية وما يتصل به، فألّف محمد سعيد اليدالي (ت: 1166هـ) كتابه المسمى «الحلة السِّيَرا في معرفة أنساب العرب وخير الورى»، ونظم بابكر ولد احجاب (ت: 1322هـ) الصحابة رضي الله عنهم، وشرح الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الحافظ العلوي (ت: 1325هـ) الشمائل للترمذي، وكتب البدوي عمود النسب، وغيره كثير. أما النقطة الثانية فهي تعريب الواقع الشنقيطي الذي ألمحنا إليه سابقا. المختار ولد حامد، الحياة الثقافية، طرابلس، ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1990. ص: 50 وما بعدها، وانظر: الملحق الرابع الذي كتبه الخليل النحوي في كتابه «المنارة والرباط» حول فهرس المؤلفين الشناقطة. الخليل النحوي، م. س، ص: 535 وما بعدها. أحمد ولد الحسن، «مظاهر الوعي القومي عند مثقفي بلاد شنقيط في القرنين 19/18»، المستقبل العربي، العدد: 72، 1985، ص: 111 وما بعدها.

56ـ يبرز ذلك التأثير جليا في تعاطي الموريتانيين مع التاريخ، حيث اعتمدوا في كتابته نفس المنهج الذي اعتمده الإخباريون والنسابة المسلمون، ولا أدل على ذلك من اعتماد الإسناد في الخبر، والاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر والاستظهار بهذه العلوم والمعارف، واعتماد السجع أسلوبا في التدوين، فضلا عن إعمال المنطق الديني في ما يقع من أمور وظواهر. وهذه خصائص وميزات طبعت التدوين التاريخي في البلاد حيناً من الزمن بطابعها الديني الخالص. وسنفرد لهذا الموضوع مبحثاً خاصّاً نناقش فيه أبعاده ونستعرض فيه أمثلة ونماذج من المدونة التاريخية الموريتانية لفحص ذلك التأثير وتفحّص مداه.

القرن العاشر الهجري. وقد رصدت تلك النصوص تواريخ الحروب والوقائع والأيام وغيرها من الأحداث الجسام.

II ـ المرحلة الجنينية:

يطرح تحديد البداية الفعلية لنشأة التدوين التاريخي في موريتانيا العديد من الإشكالات المحورية التي ترتبط بعمق الموضوع، وهي انعكاس للأحوال التي كانت تطبع البلاد آنذاك، كما أشرنا سابقاً، ونتيجة مباشرة لها. لذلك يعتبر من المجازفة والمخاطرة تحديد نص بعينه على أنه أول نص تاريخي مدوَّن على سبيل القطع واليقين، إذ لا يمكن التحقق من ذلك في بيئةٍ تلك سماتُها وخصائصُها الفارقة. وإذا أمعنا النظر في النصوص التاريخية المدونة فإننا سنلاحظ أن أقدمها يعود إلى القرن الثاني عشر الهجري، كديوان الأنساب لأحمد بن الحاج عبدالله الرقادي (ت: 1130هـ)، ونَظْم سيدي عبدالله بن رازْكه العلوي (ت: 1143هـ) لوفيات الأعيان، والذي يعتبر أول من نظم "فشتاليةً" في موريتانيا[57]، و«شيم الزوايا» و«أمر الولي ناصر الدين» لمحمد بن سعيد اليدالي (ت: 1166هـ)، ولعله يكون أول مؤرخ معلوم الآثار، لأن ديوان الرقادي المذكور أعلاه عبارة عن ورقات في أنساب القبائل الموريتانية، ومسألة وجوده ظنية، وإن كان بعض الباحثين يصرّح بأن الباحث الإنكليزي هـ. ث. نوريس (H. th. Norris) قد ترجمه ونشره في دورية معروفة[58]، لكننا لم نعثر عليه لحد الآن. ثم تاريخ الطالب محمد

57ـ الفشتالية: نسبةً إلى محمد بن علي الفشتالي، المتوفى: 1021هـ الذي نظم لامية من البحر الطويل في وفيات الأعيان، ثم صارت تقليدا تبعه فيه جمع كبير من العلماء، وانتشر هذا النمط من النظم في البلاد، وعرف بالفشتاليات. انظر: خديجة بنت الحسن، تحقيق منظومة ابن احجاب، مصدر سابق، ص: 31، 34. مريم بنت حمادي، الفشتاليات الشنقيطية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط 1993 ـ 1994.

58ـ يحيل الدكتور حماه الله ولد السالم في كتاباته إلى ديوان الأنساب للرقادي، ويذكر ما أسلفنا أعلاه، لكننا لم نعثر فعلا على الكتاب ولا على الدورية الناشرة، ولا يعني هذا تشكيكا في ضبط البحاثة ودقته، بل ربما يرجع وجاهة رأيه أن أغلب النصوص الموريتانية، في سياق اهتمام الفرنسيين بتراث البلاد، تم ترجمتها وتحقيقها من لدن باحثين وإداريين فرنسيين. حيث ترجم بول مارتي حوليات ولاتة ونشرها ضمن كتابه حوليات ولاتة والنعمة، ونشر الباحث الفرنسي فينسان مونتى حوليات تيشيت عام 1939 في مجلة المعهد الفرنسي لأفريقيا الغربية، كما نشر كذلك تاريخ بوجبيهة لمؤلف مجهول ضمن نشرة لجنة الدراسات التاريخية والعلمية. كما نشر الفرنسي ريني باسي نظم والد بن خالنا ضمن كتابه "بعثة سينغالية في بلاد البيضان". لكن مكمن شكنا يعود في الأساس إلى أننا لم نقف فعلا على النص؛ مما يجعل في الحكم عليه نوعاً من التجاوز والإسقاط. انظر: حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا، م. س، ص: 16. وسيدي أحمد بن أحمد سالم، تقديم تحقيق جزء "حوادث السنين" من موسوعة حياة موريتانيا للمختار بن حامد، أبوظبي، منشورات هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2011، ص: 20، 26، 27.

بن أبي بكر الصديق البرتلي (ت: 1219هـ) وموسوعته التراجمية «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور»، وله كتاب كذلك في أنساب الشرفاء من ذرية مولاي الشريف السجلماسي، ولكنه ما يزال مفقودا لحد الآن[59]. ثم تاريخ جدو بن الطالب الصغير البرتلي (ت: بعد 1236هـ).

على أن هذه النصوص على قلتها خلال هذه المرحلة تعتبر ذات قيمة تاريخية كبيرة نظرا لما اشتملت عليه من معلومات مع تفاوتها في ذلك كما سيأتي.

وقد عرف التدوين التاريخي في البلاد طفرة كبيرة خلال القرن الثالث عشر الهجري وبداية تاليه، فظهرت مجموعة من النصوص الحولية والأنسابية والتراجمية والمناقبية ذات خصائص وسمات فارقة سنتطرق لها بشيء من التفصيل لاحقا. فهل جدّتْ أحوال وبرزت دوافع جديدة حثّت القوم وحَدَتهم إلى تدوين تاريخهم، حتى ولو على استحياء؟!

III ـ بواكير الوعي التاريخي:

إن تطور الاهتمام بتدوين التاريخ لدى الموريتانيين يعود في تصورنا إلى جملة من الدوافع التي من أهمها بداية وعيهم بالتاريخ[60]، وإدراكهم لأهمية تسجيل حوادثه وتدوينها، حفظاً لها من الضياع والاندثار، وقد تجلى ذلك في ظهور ظاهرة الحوليات[61] التاريخية التي اختصت بها بعض المدن الموريتانية

59ـ انظر: تقديم عبدالودود ولد عبدالله وجمال ولد الحسن، تحقيق وتعليق على فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، القاهرة، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، 2010.

60ـ من أهم المظاهر التي تبرز من خلالها قيمة المعرفة التاريخية هي تطور وعي الإنسان بذاته وبما يجري حوله. ويتجلى ذلك الوعي في الاعتناء بتدوين التاريخ وكتابته. إذ لحظة التدوين في حد ذاتها تعتبر مفصلا وقفزة كيفية في حياة الإنسانية لما تشير إليه من وعي الإنسان بالزمن باعتباره لحظات فاعلة تعكس فعل السابق في اللاحق، وهو الفيصل الوحيد بين المجتمعات في تمييزها وتصنيفها إلى مجتمعات تاريخية وأخرى غير تاريخية. محمد وقيدي، كتابة التاريخ الوطني، م. س، ص5.، العروي، مفهوم التاريخ، م. س، ص: 24.

61ـ كانت ظاهرة الحوليات معروفة في «العالم العربي»، وقد عرفها «المغرب العربي» كذلك، ولعلها بالنسبة للموريتانيين كانت ـ حسب ولد أحمد سالم ـ نتيجة من نتائج التأثيرات الثقافية المغربية ذات الصلة الوثيقة بالثقافة الموريتانية، ولكننا إذا ما أخذنا بهذا الرأي على أنه مسلّمة تاريخية قد لا ننجوا من السقوط في المفارقة التاريخية، وذلك لسبب وجيه جدا هو أننا نلاحظ أن ذلك النمط من الكتابات لم يظهر في مناطق الجنوب المغربي كسوس ودرعة كما ظهر وانتشر في شماله في فاس مثلا من خلال كتاب لقط الفرائد لابن القاضي المكناسي المتوفى 1025هـ/1616م فما السر في ذلك؟ وهل يمكننا بعد ذلك أن نسلّم بما ذهب إليه الأستاذ ابن أحمد سالم والحال هذه؟ أم أن التأثير الذي عناه الأستاذ كان أكثر وجاهة بالنسبة لقوة الاتصال الثقافي بين شمال المغرب وعلماء موريتانيا الأمس دون جنوبها؟ على كل تبقى الظاهرة في حد ذاتها فريدة ومثيرة للدهشة والاستغراب وحرية بالدراسة والتمحيص. سيد أحمد ولد أحمد سالم، م، س، ص: 13، وانظر: أيضا مجموعة مؤلفين، حوليات تجكجة، م، س، ص: 10.

دون غيرها[62]، فاهتم أهلها بتسجيل الحوادث المهمة في كراريس خصصوها لهذا الغرض، ودونوا فيها تواريخ الحروب والممالك والقبائل ووفيات الأعيان والقادة وسني العوز والرخاء. ولعل هذا التطور في الوعي بأهمية التاريخ وتدوين أحداثه هو ما تشي به المقدمات التي صدّر بها الموريتانيون كتبهم التاريخية، وما اشتملت عليه من استحضار لمعانٍ دينية وأهداف شرعية للاعتناء بالتاريخ لما فيه من فوائد الاعتبار والاتعاظ بما حل بمصائر الأمم الغابرة[63]، مسايرين في ذلك نهج المؤرخين الإسلاميين التقليديين من أمثال الطبري والمسعودي وابن الأثير... إلخ[64]؛ ففي كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت: 1219هـ) نجد ذلك المعنى واضحاً جليّاً، حيث يقول المؤلف: (الحمد لله الذي جعل التاريخ يفيد موعظة وعلماً، ويزيد بياناً ويُذهب همّاً)[65]، حاضاً على معرفته في سياق سرد دوافع تأليفه، بقوله: (وبعد؛ فلما كان جاهل التاريخ يركب عمياء، ويخبط خبط عشواء، ينسب خبر من تقدم لمن تأخر، ولا يميز بين من حضر ومن غبر.. أردت أن آتي بتاريخ أعيان علماء

62ـ لعل من المفارقات الغريبة ظهور هذا النمط من التدوين التاريخي في بعض المدن الموريتانية كـ ولاتة وتيشيت وتجكجة والنعمة وغيابه عن بعضها رغم أهميته كـ شنقيط ووادان اللتين كانتا تعتبران مراكز إشعاع ثقافي وعلمي على طريق القوافل التجارية، بل إن شنقيط،التي صار اسمها علما على البلاد، كانت منطلقا للركب الحجي وعرفت ازدهارا كبيرا منذ أوائل القرن الحادي عشر وتاليه. أما وادان فكانت واديان ملىء أحدهما علما وملىء الآخر نخلا وتمرا، وقامت فيها دولة علم ودين، بل إن بداية التأليف تعزى إليها، حيث كان أول كتاب في الفقه هو موهوب الجليل شرح مختصر خليل من تأليف محمد بن أبي بكر الحاجي الواداني، كما تقدم، وهذا ما يدفعنا للتساؤل عن العلة في عدم ظهور هذه الظاهرة الحولية في تينك المدينتين رغم مكانتهما العلمية والتجارية بين مدن الصحراء؟ محمد المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ وادان، بحث مرقون، ص: 23.

63ـ يعضد ذلك ما ذهب إليه ليفي برونفسال في تقديم كتابه «مؤرخو الشرفاء» من أنه لا تكاد مقدمة من المقدمات التي تصدرت كتب التاريخ تخلو من ذكر فوائده الدينية والدنيوية، ولا توجد كذلك مقدمة لم يذكر صاحبها آية أو حديثا تبين ما للتاريخ من فوائد جليلة. ليفي بروفنسال، مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، الرباط، 1977، ص: 40 وما بعدها.

64ـ نعني بذلك أن مفهوم التاريخ "التقليدي" عند الطبري والمسعودي وغيرهما من المؤرخين الإسلاميين القدامى لم يختلف عنه عند المؤرخين الموريتانيين من أصحاب الإسهامات القديمة من حيث النظر والممارسة، لأن كلا الطرفين كان ينظر إلى أن الغاية الأسنى من معرفة التاريخ بالنسبة تكمن في معرفة ما حل بمصائر الأمم الغابرة، وأيام الله في خلقه، للاعتبار والاتعاظ حتى لا يحل بالأمة ما حل بمن كان قبلها من هلاك وبوار. يضاف إلى ذلك أن التاريخ يطابق عندهم الخبر وهذا الأخير له ضوابط خاصة مستقاة من علم التعديل والتجريح.

65ـ الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتيلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1981ص 25.

التكرور، لتُعرَف مراتبهم في الفقه والدين)[66]. ويقول جدو بن الطالب الصغير في تاريخه: (وبعد؛ فلما كان التاريخ له فائدة تفيد في الاطلاع على أخبار الملوك والسلاطين، وفي الحادث من الزمان والدهور الماضين، أردت أن أجمع تأليفاً نذكر فيه بعض تاريخ بلاد التكرور، ليعتبر به كل ذي بصيرة، ويعلم أن الدنيا دار فناء وغرور، وفي التفكير فيه وإمعان النظر فيه تبصرةٌ للمبصرين، وموعظة للغافلين، وإفادة للسامعين، بدليل قوله تعالى: (وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)[67]. ثم درج مؤلفو كتب الحوليات الموريتانية بعد ذلك على التأكيد على هذا المعنى، حيث يقول الطالب أحمد ولد اطوير الجنة (ت: 1265هـ):

(.. وللسيوطي في مدح الاعتناء بالتاريخ:

وبعـد فالتـاريخ والإخبـارُ ** فيـه لعقل العاقـلِ اختبـارُ

وفيه للمستبصر استبصار ** كيف أتى القوم وكيف ساروا[68]

ويورد ابن انبوجَهْ العلوي (ت: نحو 1300هـ) في تنبيهه الثاني ضمن مقدمة كتابه الموسوم بفتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، ما يلي: (.. اعلم أن العلماء أجمعوا على أن التاريخ من مفيدات الأنام، وجاهلُه يخالف الصواب، ويعد إذا

66ـ وردت هذه الجملة مضمنة في مقدمة الجزء الثالث من حوليات تيشيت، وكذا في مقدمة فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور لابن امبوجه العلوي. ويبدو من خلال المصادر أن هذه الجملة مستقاة من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لشهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة المتوفى 665هـ انظر: شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (أبو شامة)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، الجزأين 1، 2، تعليق إبراهيم شمس الدين، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2002، ص: 91، والبرتلي، فتح الشكور، م. س، ص: 25، 26، وحوليات تيشيت، م. س، ص38، وابن امبوجه، منح الرب الغفور، م. س، ص20.

67ـ جدو بن الطالب الصغير البرتلي، تاريخ جدو، تحقيق محمد المختار ولد زيني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، 1993ـ 1994، ص34.

68ـ هذان البيتان هما للسان الدين بن الخطيب المتوفى 1374م من نظمه المسمى « رقم الحلل في نظم الدول»، وهو عبارة عن أرجوزة تاريخية مختصرة تبتدئ بذكر البعثة المحمدية وحتى الدول المعاصرة للمؤلف وليسا للجلال السيوطي كما ذكر ابن اطوير الجنة، ولا هما كذلك لأحد أدباء فاس كما قال ابن انبوجه العلوي الذي أضاف إليهما ثالثا خاتما بهما كتابه «فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور». والبيت الثالث هو:

يجري على الحاضر حكم الغائب فيثبت الحق بسهم صائب

انظر: الطالب أحمد ولد اطوير الجنة، تاريخ ولد اطوير الجنة، تحقيق سيدي أحمد ولد أحمد سالم، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1995م ص: 42. وانظر: كذلك ابن امبوجه، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، تحقيق محمد الأمين ولد سيدي المختار، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1994ـ 1995، ص: 91.

خال مرة كذّاب، لا يقبل له قول في كتاب)[69]، مستظهراً بما ورد في مقدمة كتاب البرتلي السابق: (.. جاهل التاريخ يركب عمياء، ويخبط خبط عشواء، ينسب خبر من تولى لمن تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر)، عارضاً بعد ذلك لنماذج من نقد الأخبار وتمحيصها، ولعله تأثر في ذلك ـ نظرياً ـ بمنهج ابن خلدون في تمحيص الأخبار. كما أشار محمد المصطفى بن اعْمرْ بن سيدي محمد الإديلْبي مؤلف حوليات النعمة[70] (ت: 1319هـ) كذلك إلى نفس المعنى بقوله: (.. وبعد؛ فإنه لما كان في نقل الكوائن فوائد مفيدة، ولها مزايا كثيرة منها أنها تذكّر بما كان عليه أحوال المتقدمين (...) ومنها أن فيها تسلية للنفس وارتداعاً عن الانهماك في الدنيا مع المغرورين (...) أردت أن أكتب من ذلك ما وجدته الآن على سبيل الاختصار، ليسهل تناوله وينتفع به الكبار والصغار، راجيا ذلك من الله العظيم)[71]. وذهب أبو بكر المحجوبي (ت: 1336هـ) في كتابه "منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور" إلى المعنى ذاته، بقوله: (.. حمداً لمن جعل التاريخ سببا للتذكار، ووصلة للاعتبار، وتثبيتا لوقائع الأعصار، ومكارم أخلاق الأخيار، إليه المفزع في الاختلاف والإنكار، وعليه الاعتماد في صحة الأخبار، من تدليس أولي البوادي والأمصار)[72].

وعلى الرغم مما استظهر به القوم في مقدمات كتبهم تلك، وصدّروا به مؤلفاتهم مما يستشف منه أن العبرة والاعتبار هما عنوان القصد والهدف من تأليفها[73]؛ إلا أن التسليم بذلك قد لا يخلو من سطحية وتسّرع، فهل ثمة دوافع

69ـ ابن امبوجة، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، م. س، ص19.

70ـ النعمة: عاصمة ولاية الحوض الشرقي تقع في أقصى الشرق الموريتاني.

71ـ محمد المصطفى ولد أعمر الاديلبي، حوليات النعمة، م. س، ص: 8.

72ـ الطالب بوبكر بن أحمد المصطفى المحجوبي، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، تحقيق محمد الأمين ولد حمادي، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1992ـ 1993، ص: 11.

73ـ فضلا عما استظهرنا به من نصوص توضح بجلاء مقصد الاهتمام بالتاريخ عند الشناقطة والهدف والغاية من تدوينه، والذي يأتي في الأساس بغرض العظة والعبرة والتذكرة، نضيف ما كتبه النابغة الغلاوي في نظمه "أم الطّريد"، حيث يقول:

الحمدلله الغني الباقي ** مبيدِ أهل الأرض والطباق

الوارث الأرض ومن عليها ** معيد مَن مِنها انبري إليها (..)

هذا وذي تذكرة للناس ** نظمتُها تذكرةً للناسي

ذكرت فيها نبذة لمن عقَل ** حال الزمان، "وليقس ما لم يقل"

النابغة الغلاوي، أم الطريد، تحقيق محمد بن الشريف أحمد، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991، 1992، ص: 25.

أخرى حفّزت "الشناقطة" على الانكباب على كتابة تاريخهم وتدوين أخبارهم خلال هذه المرحلة، رغم أنهم كانوا يعتبرون التاريخ ترفاً فكرياً كما ألمعنا سابقاً، فما الذي جدّ في هذا السياق؟ وهل يمكن إسناد هذ التحوّل أو تفسيره فقط بالرغبة الدينية والدافع الشرعي إلى كتابة التاريخ قصد الاعتبار والاتعاظ، كما هو ظاهر جلي في المقدّمات التي تحدثنا عنها، وهي صريحة في معناها واضحة في مقصودها ومرماها، فهل يمكننا اعتبار ذلك دافعاً ومحفّزاً فعلاً على تدوين ما كتب من التاريخ "الشنقيطي"؟ وهل كان ذلك جواباً عن الشرط التاريخي؟

لا شك أن الإجابة عن تلك التساؤلات قد تفيد في فهم سياق ذلك الاهتمام "المفاجئ" بالتاريخ، واستقراء الدوافع والمحفزات التي أدت بالقوم إلى تغيير نظرتهم إليه، إذ لا يصرّح المؤلفون الشناقطة في كتبهم بدوافع واضحة كما تقدم، وإنما يكتفي المؤلف في الغالب بالقول أنه ألّف كتابه بطلب من صديق أو قريب "ممن لا تسع مخالفته، ولا يحسن إلا ملاطفته". حيث يقول محمد اليدالي في كتابه "أمر الولي ناصر الدين": (أما بعد فهذه نبذة طلبني بعض الأصحاب أن أضعها في أمر وليّ الله ناصر الدين أبي بكر بن أبهم المذكور في أولياء الله المقربين الروحانيين)[74]، ويقول جدو بن الطالب الصغير البرتلي: (.. وسبب هذا التّأليف أني كنت يوماً أتحدث مع بعض الإخوان في أخبار الزمان، حتى طلب مني بعضهم أن أؤلّف له تأليفا نجمع فيه ما وقع في زماننا من وقائع عربان أرضنا وسودانها..)[75]. كما ورد في نبذة محمد صالح بن عبدالوهاب ما نصه: (هذه نبذة من وفيات الأعيان، وتاريخ أعلام هذا الزمان، ندبني إلى جمعها السيد الذي فضله لا يعد، ولا يستقصى ولا يحد، الطالب بن سيد أبي بكر بن الطالب نختار القلاوي.. فلمّا لم أجد بدّاً من إسعافه، لجميل نواله وفضله، وسيرته وفضل أسلافه..)[76]، وفي الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، للمؤلف نفسه، ما نصه: (هذه نبذة مما أعلمه من أنساب أولاد حسان، جمعتها للسيد المشهور بالإحسان محمد المختار بن سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم..)[77]، وهكذا دواليك.

74ـ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة، م. س، ص: 118.

75ـ جدو بن الطالب الصغير البرتلي، تاريخ جدو، م. س، ص: 34.

76ـ محمد صالح بن عبدالوهاب، وفيات الأعيان ونبذة من تاريخ أعلام هذا الزمان، م. س، ص: 26.

77ـ محمد صالح بن عبدالوهاب، الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، تحقيق ازيد بيه ولد محمد محمود وسيد أحمد وأحمد سالم، نواكشوط، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1991، ص: 36.

وقد ظل هذا الدافع المصرّح به هو السمة الغالبة على التآليف التاريخية الموريتانية إلى وقت قريب مع اختلاف السياق، حيث نجد نفس الدوافع هي التي حدت سيدي بابه ولد الشيخ سيدي وأحمد بن الأمين وغيرهما، كما سيأتي، إلى وضع كتبهم، فهل كان ذلك ناتجاً عن تخلخل في الوعي التاريخي المتجذّر أصلا لدى هؤلاء المؤرخين؟

إن هذا الصمت المطبق عن الحديث عن أسباب ودوافع منطقية من شأنها تبرير ذلك التحوّل وتفسيره، يجعلنا نعتقد أن ثمة تغيّراً هامّاً، حدا بالقوم إلى الاهتمام بالتاريخ والأنساب والعكوف عليها وضعاً وتأليفاً. ولعل من أبرز الدلائل على ذلك غياب المحفّز على التأليف، الذي لا يأتي إلا بطلب أو استجابة له، فليس لدى المؤلف ما يدفعه إلى الاعتناء بتاريخ مشتت ومتفرق لا طائل من ورائه، بينما نجد أن الأمر قد نحى منحىً آخر وتغيّر تساوقاً مع بعض التطورات التي عرفتها البلاد، ويكمن هذا التغيّر ـ حسب اعتقادنا ـ في الوعي الذي بدأت بواكيره في المدن العتيقة في حواضر الشرق التي كانت محطات هامة على طريق القوافل التجارية عبر الصحراء، وانعكست آثاره بشكل واضح، كما أسلفنا، في بروز ظاهرة حوليات المدن التي كانت تدوّن فيها الأحداث الجسام والأمور العظام من وفيات وحروب وقحط.. إلخ. كما ظهر في بوادي الجنوب كذلك اهتمام بتدوين التاريخ والأنساب، حيث انبرى عدد من العلماء والشعراء لتدوين الأحداث التاريخية وما يتّصل بها، فكانت في ذلك المنظومات لوالد بن خالنا وبابكر بن احجاب وبابا بن أحمد بييه والمختار بن جنكي ومحمد بن البراء والمختار بن محبوبي[78].

ولكن السمة الفارقة التي ميّزت المدونة التاريخية في الجنوب عن سابقتها، هي الأسلوب النظمي الذي اعتمده علماؤه في تدوين الأحداث والوقائع، بينما نجد غالبية المدونات التاريخية في حواضر الشرق نثرية، إن لم تكن كلها كذلك. ولعل لهذه الظاهرة ما يفسّرها في اعتقادنا؛ فقد يعود ذلك إلى طريقة تلقي المعارف والعلوم واستيعابها في الشرق والجنوب، وأثر ذلك وانعكاسه على ثقافة المؤرخ في كلتا المنطقتين، ثم إن النظم قد يكون سهلا ميسورا للعالم، كما يسهّل حفظ تلك الوقائع والأحداث المدوّنة على الناس وضبطها، وإن كانت بعض المنظومات تنزع أحيانا للتعقيد والتكلّف[79].

78ـ الخليل النحوي، م. س، ص: 293.

79ـ انظر: بابكر بن احجاب، منظومة ابن حجاب، تحقيق خديجة بنت الحسن، تونس، بيت الحكمة، 1991، ص: 40.

وقد تجذّر هذا الوعي وتطور في نطاق سؤال الهوية الذي ارتبط بمشكل الأوقاف الحجازية وما أثاره من قلق لدى نخب المجتمع الموريتاني العاملة حول أنسابهم وأصولهم، وذلك عندما حُرِم حجاج بلاد «شنقيط» من حصتهم من أوقاف الحرمين، فأدى بهم ذلك إلى الدفاع عن هويتهم وأنسابهم، فكانت هذه الحادثة إذن، بمثابة الحافز الذي دفع «الشناقطة» إلى تدوين أنسابهم سعياً إلى تأكيد هويتهم العربية، وصوناً لحقهم في أوقاف الحرمين[80]. وقد نبّه إلى ذلك البحّاثة حماه الله ولد السالم في سياق دراسته للتواصل الثقافي بين بلاد شنقيط والمشرق العربي، حيث يقول: (.. وكنّا أول من نبه على تلك الحقيقة، وجزم بأن الأنساب الشنقيطية ألّفت ورتّبت في تلك المرحلة، وبسبب منها، وليس نتيجة أوضاع اقتصادية واجتماعية.. فقد اتصل الشناقطة بمرتضى الزبيدي نهاية القرن الثاني عشر الهجري وطلبوا منه تزكية لأنسابهم في سياق متّصل بمشكل الأوقاف ومتعلقاته)[81].

وبالتالي فقد كانت مسألة الأوقاف تلك سببا في انكباب الموريتانيين على التأليف في الأنساب، وحافزاً على لمّ شتاتها، وتأكيداً على حقهم في حصة الوقف المغربي. ولعل من أبرز الدلائل الواضحة على ارتباط تدوين تلك الأنساب بمسألة الوقف الحجازي والحج، أن أغلب الذين ألّفوا في الأنساب في ذلك الوقت كانت لهم صلة بالمشرق العربي عن طريق الحج والرحلات العلمية والمراسلات، إلى غير ذلك من أنواع التواصل الفكري الذي جمع «الشناقطة» بأضرابهم من المشرق والمغرب العربيين؛ فقد حجّ العالم سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي (ت: 1233هـ)، وألّف رسالته المعروفة «صحيحة النقل في علويـة إِدَوَعْلِ وبكـرية محمد قِلٍّ»،

80ـ تعود أول إشارة إلى قضية الأوقاف الشنقيطية تلك إلى ما ذكره العالم المصري مرتضى الزبيدي في كتابه معجم المشائخ، من أن عبد الرشيد الشنقيطي ـ وكان عالما متمكناً ـ قد ورد عليه بشأن نازلة تتعلق بالوقف الشنقيطي في المدينة؛ وسببها أن بعض المجاورين رفض قيام الشناقطة بأخذ حصة من الأوقاف المغربية، على اعتبار أنهم من السودان وليسوا مغاربة. وكتب الزبيدي بشأن الموضوع فتوى جزم فيها بأحقية الشناقطة في حصتهم من الوقف المغربي، وكذلك كتب غيره من علماء مصر، وعضد عبد الرشيد تلك الفتاوى بمثيلاتها من علماء المغرب كالتاودي بن سودة، تؤكد أن الشناقطة من المغاربة. ثم تجددت تلك القضية ـ التي استحالت إلى هم يتعلق بمساءلة الهوية ـ على عهد العالم الشنقيطي محمد محمود ولد التلاميد التركزي المتوفى 1904م، فدافع عن حق بلدييه في الوقف المغربي. لتفاصيل أكثر حول مسألة الأوقاف الحجازية وموقف الشناقطة منها، انظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، م. س، ص: 422 وما بعدها. وانظر أيضاً: حماه الله ولد السالم، موريتانيا في الذاكرة العربية، م. س، ص 214، 215.

81ـ المرجع السابق، ص: 215

في نسب أكبر قبيلتين عمرتا «شنقيط» قبل خرابها، وأورد فيها نقولاً عن العالم اللغوي المصري مرتضى الزبيدي تؤكّد نسب تينك القبيلتين. وقد جاء تأليف هذه الرسالة بعد مشكل الأوقاف المذكور بست سنين مما يعني أن المؤلف ربما يكون قد عايش السياق التاريخي العام لذلك المشكل ومتعلقاته بوجه من الوجوه[82].

وقبل سيدي عبدالله كتب الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت: 1226هـ)، الذي يعتبر أول من ألّف عن الأنساب الحسانية، رسالةً في أنساب بني حسان[83]. ومن المعلوم صلة الشيخ الكنتي بالعالم اللغوي المصري مرتضى الزبيدي، حيث كانت له مراسلات معه صدّر فيها الزبيدي الكنتي وأجازه وهاداه[84]. ونفس الحكم ينطبق، بشيء من الاختلاف، على ديوان الأنساب سابق الذكر، لأحمد بن عبدالله الرقادي (ت: 1130هـ)، الذي يعتبر أقدم كتاب عن الأنساب الموريتانية، وهو عبارة عن ورقات جمع فيها المؤلف معلومات عن أنساب قبائل البلاد، ولكنّه أشبه ما يكون في حكم المفقود. على أن ما يمكن التأكيد عليه هو أن القرن الثالث عشر الهجري عرف طفرة عجيبة في تدوين الأنساب الموريتانية، سواء كان ذلك بحافر من مشكل الأوقاف ومتعلقاته أو بدافع التخلّص من قلق الهوية والانتماء الذي راود الموريتانيين ردحاً من الزمن، وما زالت ـ ربما ـ آثاره قائمة إلى الآن وإن بشيء من الاختلاف[85]. فبرزت العديد من النصوص الأنسابية، مثل كتاب الأنساب

82ـ ازيد بيه ولد محمد محمود وسيدي أحمد ولد أحمد سالم، تقديم تحقيق الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية لصالح بن عبدالوهاب، م. س، ص: 32.

83ـ الشيخ سيدي المختار الكنتي، رسالة في أنساب بني حسان، تحقيق سيدي أحمد بن أحمد سالم، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد: 5، 1996.

84ـ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، تحقيق عابدين بن باب أحمد بن حم الأمين، نواكشوط، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1994. وانظر أيضا: ولد السالم، موريتانيا الذاكرة العربية، م. س، 156.

85ـ مرد هذا القلق يعود في الأساس إلى موقع موريتانيا في الركن القصي من البلاد العربية ووجودها في أحضان صحراء شاسعة تحيط بها الممالك السودانية، لذلك كان السؤال حاضراً دائماً عن أصول هؤلاء الموريتانيين. وقد ضاعف من هذا الأمر كون هؤلاء يتكلمون العربية بطلاقة ويسر، أحسن، ربما، من غيرهم من سكان بعض الأمصار العربية. وكان ادّعاء الموريتانيين في انتمائهم العربي مثار جدل وشك، لذلك انبرى بعض مؤلفيهم للتأكيد على أصلهم العربي انطلاقاً من مشجراتهم الأنسابية. وهذا القلق المزمن هو الذي دفع أحمد بن الأمين الشنقيطي نزيل القاهرة، الآتي ذكره، إلى تدبيج مؤلفه الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، كما دفع المؤرخ الموريتاني الكبير المختار بن حامد إلى كتابة موسوعته المشهورة "حياة موريتانيا"، تعريفاً بتاريخ البلاد وثقافتها وأنساب أهلها، لكن هذا العمل الموسوعي لم ينشر إلا متأخراً، لذلك نجد الخليل النحوي يضع مؤلفه الكبير "بلاد شنقيط المنارة والرباط" لذات الغرض، كما سعى نخبة من الباحثين الموريتانيين إلى نشر كتيّب بدعم من مركز دراسات الوحدة العربية

لـ والد بن خالنا (ت: 1212هـ)، وأنساب القبائل الواردة إلى القطر التكروري لـ سيدي بن حبت الغلاوي (ت: 1237هـ)، وأنساب إِدَولْحاج لـ الطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي (ت: 1265هـ)، والحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية لـ محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت: 1271هـ).

ومهما يكن من شيء، فإن اهتمام الموريتانيين بالأنساب قد جاء بالتساوق مع تطور العلاقة مع المشرق العربي من خلال الرحلات العلمية والحجية، وليس قبل ذلك، وإن كانت هناك إشارات تشي بنوع من الوعي بأهمية تدوين الأنساب وحفظها لدى الرعيل الأول من النسّابة الموريتانيين، والذي كان مرده في الأساس دينياً محضاً، بدليل كون أغلب المصنفات والتقاييد والنبذ الأنسابية قد دبّجت خلال مرحلة التواصل مع المشرق العربي أو في سياق قريب منها[86].

IV ـ أنواع التدوين التاريخي وخصائصه:

1ـ أنواع التدوين:

أخذ التدوين التاريخي عند الموريتانيين أشكالاً مختلفة، تنوعت على غرارها المادة التاريخية المدوّنة وتشعبت. وانطلاقا من ذلك يمكن تصنيف المدونة التاريخية الموريتانية ـ حسب مضامينها - إلى أربعة أنواع، هي: الحوليّات، الأنساب، التراجم، المناقب والكرامات.

وسنقوم فيما يلي بالتعريف بهذه الأنواع الأربعة وفق الترتيب الذي أوردناه أعلاه.

أ ـ الحوليات: وهي نمط خاص من التدوين التاريخيّ، يعنى برصد الأحداث السنوية من وفيات أعيان ومشاهير وحروب ووقائع وظواهر كونية وطبيعية، وتدوينها على الطريقة الحولية حسب تسلسلها الزمني. وقد انتشرت هذه الظاهرة في البداية في بعض المدن الموريتانية مثل ولاتة والنعمة وتيشيت

تحت عنوان: "موريتانيا الثقافة والدولة والمجتمع". كما نتلمس محاولة التخلّص من ذلك الهاجس وتجاوزه في كتابات الباحثين المتأخرين، من أمثال الدكتور حماه الله ولد السالم "موريتانيا في الذاكرة العربية"، و"بعض مقومات الفضاء الثقافي الشنقيطي: مراجعات حول بعض إشكاليات المجال والهوية في موريتانيا"، مجلة المستقبل العربي، العدد: 1997/216. والدكتور محمد سعيد ولد أحمدو «موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي». كما اهتم بعض المثقفين العرب بالتعريف بموريتانيا عربيّاً، من أمثال محمد يوسف مقلد في كتابه «شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون» ويونس بحري في «هذه جمهورية موريتانيا الإسلامية»، إلى غير ذلك.

86ـ حماه الله ولد السالم، موريتانيا في الذاكرة العربية، م. س، ص: 214، 215

وتجكجة، ثم انتشر تدوينها لاحقاً حتى عم كامل البلاد الموريتانية. فظهرت نصوص تاريخية تعتمد نفس النهج في التدوين وتشترك في الخصائص والسمات، ومن هذه النصوص، بالإضافة إلى حوليات المدن: تاريخ الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت: 1219هـ)، وتاريخ جدو بن الطالب الصغير البرتلي الولاتي (ت: بعد 1236هـ)، تاريخ الطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي (ت: 1265هـ)، ووفيات الأعيان ونبذة من تاريخ أعلام هذا الزمان لصالح ولد عبدالوهاب الناصري (ت: 1271هـ)، وفتح الرب الغفور في ذكر تواريخ الدهور لسيدي عبد الله بن انبوجه العلوي (ت: حوالي 1300هـ).

تُضاف إلى هذه النصوص الحولية المنثورة، نصوصٌ أخرى منظومة اعتمدت نفس النمط الحولي في التدوين التاريخي، مع استخدامها لحساب الجُمَّل في تأريخها للأحداث. ومن أهم هذه النصوص: نظم وفيات أمراء البراكنة والترارزة، لوالد بن خالُنا (ت: 1212 هـ)، ونظم محمد امْبارك اللمتوني (ت: 1290هـ) لتاريخ الدولة اللمتونية، والذي يعتبر «لغزاً» يصعب فكه والركون إليه ما لم تتوافر معطيات جديدة تجلي الغموض المخيّم عليه.

ولعل من الجدير بالتنويه أن أغلب النصوص الحولية بشقيها المنثور والمنظوم، ظلت مستمرة إلى غاية القرن العشرين، سواء منها ما دوّن خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وامتدّ تدوينه إلى القرن التالي، أو تلك التي دوّنت أول مرة خلال هذا القرن.

ب ـ الأنساب: وهي في مجملها تتناول أنساب القبائل الموريتانية الصنهاجية والمعقلية والشريفية وغيرها. وقد ظهرت فيها مصنفات وتقاييد ونبذ كثيرة تبرز مدى اهتمام الموريتانيين بتدوين الأنساب، ذلك الاهتمام الذي برز في نطاق السياق الذي ألمعنا لبعض مظاهره سابقا.

ومن أهم المصنفات والتقاييد والنبذ الأنسابية الموريتانية، تأليف كتاب الأنساب لوالد بن خالُنا (ت: 1212هـ)، وأنساب بني حسان للشيخ سيدي المختار الكنتي (ت: 1226هـ)، و«صحيحة النقلِ في علوية إدَوعْل وبكرية محمد قِلّ» لسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (ت: 1233 هـ)، ورسالة «الروض على أنساب أهل الحوض»، وتقييد في الأنساب لسيدي محمد بن الشيخ أحمدُ بن سليمان الديماني، وأنساب القبائل الواردة إلى القطر التكروري لسيدي أحمد بن حبت الغلاوي (ت: 1237هـ)، وأنساب إدَولحاج لابن طوير الجنة الحاجي (ت: 1265هـ)،

والحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية لمحمد صالح بن عبد الوهاب (ت: 1271هـ).

وتمتزج في أغلب هذه النصوص الأنسابُ ومشجراتُها بالأحداث والحروب والأيام، وقلّما يسلم متنها من ذكر لبعض الأخبار والوفيات. لذلك تمثل هذه المدونة خليطا تتناغم فيه الأنساب والقصص والأخبار والحروب والوفيات على صعيد واحد مع اختلاف درجة التركيز.

جـ ـ التراجم: وهي مصنفات تهتم بتراجم أعيان الفقهاء وأكابر العلماء، وتتضمن في تضاعيفها العديد من الإشارات التاريخية الثمينة، وتنحو ـ أحيانا ـ المنحى الموسوعي، ألّفها جهابذة من علماء البلاد جرياً على سَنن علماء الإسلام في الطبقات والتراجم، من أمثال ابن عدي (ت: 207هـ) في طبقات العلماء والمحدثين، وابن سعد (ت: 230هـ) في الطبقات الكبرى، وابن فرحون في الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، وبدر الدين القرافي في توشيح الديباج وحلية الابتهاج. وتأثراً بأضرابهم من علماء تنبكتو من أمثال أحمد بابه التنبكتي في كتابيه نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وكفاية المحتاج، وعبد الرحمن السعدي في تاريخ السودان، ومحمود كعت في تاريخ الفتاش.

وقد نحى نحوَ هؤلاء ثلةٌ من العلماء «الشناقطة»، من أبرزهم الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي (ت: 1219هـ)، حيث ألّف كتابه الموسوعة «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور»، وهو «معجم تراجمي لعلماء موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان»، أفاد فيه المؤلف ممن سبقوه، واستقى جلّ مادته منهم، وعقد فيه تراجمَ لمائتين ونيف من علماء «المجال الصحراوي الشنقيطي».

وقد استدرك الطالب بوبكر المحجوبي (ت: 1335هـ) على هذه الموسوعة التراجمية الفريدة، وذيّلها بكتابه منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور، وحاكاها وزاوج فيه بين التراجم والوقائع والأحداث، حيث يقول المحجوبي: «.. هذا وإني لما وقفت على تأليف السيد الشهير والعالم النحرير الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي بلّ الله ثراه، وجعل الجنة مثوانا ومثواه، المسمى بفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، أردت أن أجمع مجموعاً يحاكيه، ويسير سيره ويماشيه، أذكر فيه علماء زماننا وفضلاءه، ووقائعه وأيامه ورؤساءه، وجعلته كالتذليل للتأليف الجليل، وردت فيه أشياء أهملها في

تأليفه ولم يذكرها في تعريفه كالوقائع الشهيرة والعلامات الكثيرة..»[87].

د ـ المناقب والكرامات: وهي تهتم بعرض كرامات وخوارق الأولياء ومكاشفاتهم ومظاهر زهدهم وورعهم، ومن أقدم هذه المصنفات: «شيم الزوايا» و«أمر الولي ناصر الدين» للشيخ محمد اليدالي الديماني (ت: 1166هـ)، وكرامات أولياء تشمشة لمحمد والد بن خالُنا (ت: 1212هـ)، والدّرّ الخالد في مناقب الوالد لمحمد محمود بن سيدي عبدالله (ت: 1235هـ)، وموسوعة الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي (ت: 1242هـ)، والنجم الثاقب في بعض ما لليدالي من المناقب للنابغة الغلاوي (ت: 1245هـ) وغيرها.

وصفوة القول أن التدوين التاريخي في موريتانيا ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحوليات، من حيث الرصد والعرض الإكرونولوجي للأحداث والوقائع، وبالأنساب من حيث التعريف بالقبائل والمجموعات والذود عن حياضها، نفياً للتشكيك الذي طاولها في مشجراتها وأصولها، ودحضاً له. كما ارتبط بالتراجم والمناقب احتفاء بذكر جهابذة وأقطاب وعلماء وفقهاء بارزين، وتخليداً لذكرهم في الآخرين، أو ذكراً لسير «أبطال شجعان» من الأمراء والأعيان تمجيداً لهم.

بيد أن مجمل نصوص المدونة التاريخية المذكورة بأنواعها المختلفة، لا يمثّل إلا نزرا قليلا من تاريخ البلاد المدوّن، ولا يغطي إلا جزءا يسيرا من الأحداث التي عرفتها على مر تاريخها، فضلا عن كونها تطرح الكثير من الإشكالات لدارسها، لاعتمادها أولاً على المنهج الحولي وما يتّصل به أو يحيل إليه من اختصار واختزال ـ كما تقدم، ثم سياق تدوينها ومصادرها خاصة أنها تتناول فترات متقدمة لم يعاصرها المؤلف ولا توجد عنها مصادر مكتوبة. ونفس الأمر ينسحب كذلك على السواد الأعظم مما دوّن لاحقاً من نصوص تاريخية. زد على ذلك أن المهمل أو المسكوت عنه من التاريخ أهم مما دُوّن، إذ المدوّن لا يزيد على ذكر أخبار أو رصد أحداث متقطعة زمنيا ومضطربة في الغالب من حيث البنية والمضمون، وشجرات أنساب وتراجم أعيان ووقائع حروب وأحداث سنين خالية من التعليل والتفسير إلا لماماً، لأنّ كل ما كتب من ذلك كان عُرضةً دائماً لانتقائية المؤرخ.

2 ـ خصائص التدوين:

تتسم نصوص المدونة التاريخية الموريتانية بالعديد من السمات والميزات

87ـ المحجوبي، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور، م. س، ص: 11

الفارقة، وتأخذ أول خصائصها وسماتها من مجالها البدوي الصحراوي الذي طبعها بطابعه الخاص. وقد صدرت كل هذه النصوص عن ذلك المحيط. هذا من ناحية الإطار العام لتلك النصوص، أما من ناحية البنية والمضمون فإن ثمة بعض السمات والخصائص التي تميّز كلّاً منهما:

أ ـ بنية النص: من أهم السمات التي يمكن الحديث عنها في هذا الجانب ما يلي:

ـ اللغة: وهي لغة بسيطة بالنسبة لنصوص الحوليات تختلط فيها أحيانا بعض الألفاظ العامية[88]. أما الأنساب والأخبار والتراجم والمناقب والكرامات فلغتها جزلة في عمومها، تنتظم في حبكة قوية ومتماسكة، وتعتمد في أسلوبها على السجع والجناس، والاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر والأمثال والحكم في المقدمات[89]، في حين يظل المتن مشحوناً بجمل وعبارات في غاية الفصاحة والبلاغة، مما يعكس بجلاء العمق المعرفي والتمكّن اللغوي لأولئك المؤلفين[90].

أما نصوص الحوليات التاريخية فقد جاءت، نتيجة طبيعة نمط تدوينها، خاليةً من الإطناب والتكلف، معتمدة على السرد الحولي البعيد عن الاستطرادات، معتمدة أسلوبا سهلا ينزع أحيانا في بعض فقراته إلى البساطة، بل وربما الركاكة.

ب ـ المتن أو المضمون: وسماته كثيرة ومتشعّبة من أهمها:

ـ الحولية: وهي سمةٌ لازمت المدونة التاريخية الموريتانية حيناً من الزمن، وطغت على أغلبها، وانتشرت في عموم البلاد. وقد أفضنا في الحديث عنها ضمن الفصل الرابع من هذه الدراسة، يمكن الرجوع إليه لمن أراد مزيدا من التفصيل.

ـ الاختصار والاختزال: وهما السمة الغالبة على نصوص الحوليات التاريخية، وقد تصل أحياناً إلى درجة الإبهام والغموض. ذلك أن الأحداث المعروضة في هذه النصوص غالباً ما تكون خالية من التعليل والتفسير. فالأخبار والحروب والوقائع

88ـ انظر: مثالا لا حصرا تاريخ جدو، م. س، ص56، 64، 79، 98، 99، حوليات النعمة، م. س، ص43، 49، وحوليات تجكجه، م. س، ص: 43، 46، 47.

89ـ انظر: مثلا تاريخ جدو، م. س، ص: 34.

90ـ انظر: مثالا على ذلك كتابات الشيخ محمد اليدالي، شيم الزوايا وأمر الولي ناصر الدين، وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للطالب محمد بن ابي بكر الصديق البرتلي، والشيخ سيدي المختار الكنتي، رسالة في أنساب بني حسان، والشيخ سيدي محمد الكنتي في الرسالة الغلاوية والطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد، والحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية لصالح بن عبدالوهاب وغير ذلك كثير.

والأيام وسنين القحط والخصب والأمراض لا تحظى إلا بذكر مجرد من التبرير، وإن كانت حين الحديث عن الوقائع والحروب تذكر، على استحياء، أطرافها وأيامها وتواريخها، وأحياناً من مات فيها باختصار شديد واختزال أشد.

أما الظواهر الكونية والطبيعية وسنين القحط والخصب والأمراض فغالباً ما يلفّها الإبهام، أو بعضها على الأقل، كـ سنة «البنود» أو عام «الوحلة» أو عام «بعرار»، أو عام «الززو»، أو عام «البوص»، أو عام «لماضيض» عند الأغلال، أو سنة «الدهن بامكيبنه» عند أهل وادان، «طلوع نجم ذو ذنب»، «كعوان». وأحيانا تضيف توصيفاً بسيطاً لا يجلي الغموض المطبق على الحدث، كـ عام «أم ركبه» وهو نفسه، كما يقول المحجوبي، عام «لعباره» عند أهل تيشيت[91]. وهذا الاختصار الشديد يحول الأحداث المعروضة إلى رموز يصعب فهمها أو فكّها، مما يجعل القارئ مضطرا للبحث عن مصادر أخرى من شأنها إجلاء ذلك الغموض وتوضيح المبهم وتفصيل المختصر. ومع ذلك فلا يستقيم هذا الحكم على إطلاقه، لأن هناك بعض النصوص التي حاول أصحابها إضفاء شيء من التوضيح، وإن قلّ، على الأحداث المعروضة[92].

ـ النظمية: وهي سمة عجيبة لازمت «الشناقطة» في تدوينهم للعلوم وضبطهم لما استعصى من المعارف، توسيعا لمدارك طلاب العلم وتيسيرا للفهم والحفظ. ولم يختصّ بها التاريخ فحسب، وإن كان ما يهمنا منها هنا ما يتعلق بالتاريخ وفروعه.

وقد برزت هذه الظاهرة عند «الشناقطة» قديماً، فنظموا مختصر خليل وبعض شروحه وجلّ كتب الفقه المالكي والعقائد واللغة.. إلخ.

أما النظم التاريخي فيذكر الأستاذ البحاثة ددّود بن عبدالله أنه اطلع على أرجوزة بالخزانة الوطنية بباريس لناظم مجهول عقد بها تاريخ البرتلي وبدأها بقوله:

وبعدُ هاك نبذة عتيدهْ ** للطالبين علمها مفيدهْ

منها بالاختصار مما قد جمع ** نجل الصديق مع زَيدِ ما وقع

وقد اعتمد مؤلف هذه الأرجوزة على ما يبدو في تواريخها على حساب الجُمّل، بادئاً بسرد الوقائع المذكورة في تاريخ البرتلي، ثم مضيفاً إليها بعض

91ـ حوليات ولاتة، م. س، ص: 30.

92ـ انظر: ابن انبوجه العلوي، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، مصدر سابق.

الوقائع الأخرى[93]، ولعل هذه الأرجوزة تكون أول نظم معروف عن تاريخ البلاد الموريتانية. على أن هذه الصفة النظمية للأحداث قد ارتبطت فيما بعد بتاريخ منطقة الجنوب الغربي الموريتاني، حيث برزت فيها مجموعة من الحوليات المنظومة لجلة مؤرخيها وفقهائها، من أمثال والد بن خالنا الذي نظم «وفيات أمراء البراكنة والترارزة». وقد تلاه في ذلك بابكر بن احجاب الديماني، فبدأ في منظومته المشهورة من حيث انتهى سلفه، ثم نظم المختار بن المحبوبي اليدالي، ونظم محمدو بن البرا الديماني، وتكملة أحمد سالم بن باكا لنظم ابن البرا، ونظم محمذن بن محمد فال الديماني (ت: 1386 هـ).

وتؤرِّخ هذه المنظومات للحروب والوقائع ووفيات الأعيان والأحداث الهامة في منطقة «الكبلة»، على مدى ما يناهز قرنين من الزمان، لكنها تطرح إشكالاً منهجيّاً عويصاً، يكمن في سهولة تصحيفها لأنها تعتمد في تأريخها للأحداث على حساب الجُمّل؛ يقول والد بن خالنا في منظومته عن وفاة الأمير «التروزي» اعلي شنظورة:

موتُ اعْلِ شنظورَ الإمامِ المقسط ** بيوم عيد الفطر عامَ «شقلط»

الهازم الجيش بربط الجأش ** الظاهر البأس شديد البطش[94]

مؤرخاً بعد ذلك في ثنايا نظمه للعديد من الوقائع والحروب، التي من بينها حرب «شرببه»، و«انتيتام» و«البطحاء» وغيرها، حيث يقول:

وقعة شرببه بعام «شَنَهِ» ** وسِلمُها وقع عام «شَفَه»

ووقعةُ انتَيْتامَ عام «هاشِمِ» ** صلاتُنا على النبي الهاشم

ووقعةُ البطحاء مهما تَسَل ** في السبت رابعَ ربيعِ الأول[95]

ولئن أمعنّا النظر في التواريخ المبسوطة، فإننا نجد من السهولة بمكان تحريفَها سهواً أو قصداً بزيادة نقطة أو حذفها. فضلاً عن الاختصار والاختزال مما يزيد في ضبابية الأحداث المعروضة وغموضها. ونفس ما ينطبق على والد في نظمه المذكور يسري على من حذا حذوَه من «النظامة».

وثمة سمة أخرى لا تقل شأناً عما تقدم، وهي تجاوُزُ بعض النصوص للمحلية، بمعنى عدم الالتزام بنطاقها الضيّق؛ ومن أهم هذه النصوص: وفيات الأعيان،

93ـ عبدالودود ولد عبدالله، مقدمة تحقيق كتاب فتح الشكور في تراجم أعيان علماء التكرور، م. س، ص: 22.

94ـ والد بن خالنا، منظومة وفيات أمراء المغافرة، م. س، ص: 37.

95ـ المصدر السابق، ص: 59، 60.

ونبذة من تاريخ أعلام هذا الزمان، لصالح بن عبدالوهاب الناصري، حيث رتب المؤلف نبذته هذه على ثلاثة عشر باباً، خصص لكل باب قرناً من الزمن، بادئاً بالسنة الثانية من القرن الأول الهجري، ومستعرضاً بعض التواريخ والوقائع في التاريخ الإسلامي، قبل أن يخصص البابين الحادي عشر والثاني عشر للحديث عن تاريخ موريتانيا[96].

وقد تبع ابن انبوجه العلوي صالحاً في ما سنّ، فبدأ كتابه فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور بالحديث عن ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وفيات الأعيان، وأهم الأحداث والغزوات والسير والمعارك على امتداد أزيد من عشرة قرون، ثم خلص بعد ذلك للحديث عن بلاد «التكرور» في تدرج من العام إلى الخاص، مبرزاً انتماء قطره سياسيّاً وحضاريّاً إلى عالمه «الأكبر» العالم الإسلامي. وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب ـ والذي يبدأ من عام 1000 هـ وينتهي عند عام 1266هـ - تناول المؤلف الحديث عن نشأة بعض مدن «التكرور» وقراه (الكصر والمبروك والناموس) ثم بداية تسرب الإسلام إلى المنطقة، أو ما يسميه المؤلف بالفتوحات الإسلامية؛ من حملات عقبة بن نافع المتوفى 62هـ إلى قيام حركة المرابطين[97].

ومهما يكن؛ فإن نمط التدوين التاريخي عند الموريتانيين وموضوعه ومنهجه، يبقى الإطار العام والمحدّد الأساس لسمات ذلك التدوين وخصائصه.

وعليه فإن الحولية والنظم والاختزال والاختصار والبعد عن الإطناب والاستطراد، كلها كانت سماتٍ فارقةً لذلك التدوين خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين. على أن الفترة التالية ستشهد تحولاً هامّاً في التدوين والنظر التاريخي عند الموريتانيين، تميزت على غراره «مدارس» و«اتجاهات» عكست طبيعة اهتمام «الشناقطة» بالتاريخ لذلك العهد، وبرزت سمات جديدة طبعت النص التاريخي المدوّن.

V ـ أقدم الأحداث المدوّنة وعلاقتها بتاريخ البلاد:

تعود أقدم الأحداث التاريخية المدونة في البلاد إلى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وذلك من خلال ما ورد في تاريخ الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي (ت: 1219هـ)، حيث بدأ الحديث عن وفيات

96ـ صالح بن عبدالوهاب الناصري، وفيات الأعيان ونبذة من تاريخ أعلام هذا الزمان، مصدر سابق.

97ـ ابن انبوجه العلوي، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، مصدر سابق.

المشاهير الذين اعتنى بذكرهم مرتباً وفياتهم حسب السنوات انطلاقاً من عام 740هـ إلى غاية عام 1169هـ وقد كان هذا التأليف مجهولاً بالنسبة للباحثين حتى وقت قريب، ولعل ذلك ما جعلهم يعتقدون أن أقدم حادثة تم تدوينها عن تاريخ البلاد تعود إلى القرن العاشر الهجري. ويبدو أن المؤرخ الولاتي جدّو ولد الطالب الصغير قد اطلع على هذا التاريخ ونقل منه نقولاً كثيرة انتقاها وضمّنها في تاريخه[98].

وأول حادثة يرصدها جدّو في تاريخه المذكور هي وفاة الشريفين الشهيدين باب الشريف وعمر الشريف عام 1001هـ/1592م، حيث يقول: (.. وأشد مما سنتذكر فيه أن في يوم الخميس التاسع منه توفي الشريفان الشهيدان بابَ الشريف وعمر الشريف سبطا الشريف أحمد الصافي، قتلهما الباشا محمود بن زرقون في سوق تنبكتُ ودفنا في قبر واحد في مقابر الجامع الكبير)[99]. ونقل صالح بن عبدالوهاب الناصري الولاتي أول حادثة في نبذته التاريخية، وهي وفاة الشيخ أحمدُ بابا التنبكتي عام 1036هـ حيث يقول: (ففي سنة 1036هـ توفي أحمدُ بابا التيمبكتي، وولد فيها الشيخ أبو عبدالله سيدي محمد بن المختار بن الأعمش العلوي العالم المشهور)[100]، وتحدث الطالب بوبكر بن أحمد المصطفى المحجوبي عن أول حادثة سجلها في حولياته (حوليات ولاتة)، وهي مجيء العروسيين إلى ولاتة عام 1038هـ/1628م، حيث يقول: (.. وسأزيد لك وقائع مشهوراتٍ وقعت قبل المائتين، كمجيء العروسيين بأنه في الثامن والثلاثين بعد الألف)[101].

ويتفق تاريخ ولاتة لمحمد بويا بن الطالب بوبكر المحجوبي وحوليات محمد يحي الولاتي، وحوليات النعمة لمحمد المصطفى بن الشيخ أعْمرْ بن سيدي محمد الإديلبي في أول حادثة يدوّنانها وهي نزول الأمير الأسكيا داوود بجيشه عام 958هـ/1551م، حيث ورد في حوليات النعمة ما نصه: (.. أن نزول الأمير الأسكيا داوود انسلاخَ المحرم من الثامن والخمسين وتسعمائة)[102]، وفي تاريخ ولاتة:

98ـ عبدالودود، مقدمة تحقيق كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، مصدر سابق، ص: 21، 22.

99ـ جدو بن الطالب الصغير البرتلي، تاريخ جدو، م. س، ص: 35.

100ـ لعل من الجدير بالتنويه أن اسم كتاب صالح هذا هو "وفيات الأعيان ونبذة من تاريخ أعلام هذا الزمان"، لكنه اشتهر بين الناس بـ"النبذة".

101ـ الطالب بوبكر المحجوبي، حوليات ولاتة، تحقيق سيدي عبدالله بن البخاري، إشراف ددّود بن عبدالله، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991ـ 1992، ص: 18.

102ـ المصطفى بن الشيخ أعْمرْ الإديلبي، حوليات النعمة، تحقيق محمد ولد اعلي فال، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997 ـ 1998، ص: 8، 9.

(أن نزول سكيى داوود في توغ في انسلاخ المحرم في العام الثامن والخمسين وتسعمائة)[103].

ويسجّل الطالب أحمد بن اطْوَيْرْ الجنة الحاجي الوداني أول حادثة في تاريخه، وهي عن وفيات بعض الأعلام الدينية والسياسية، كـ (عائشة رضي الله عنها، وخليل بن اسحاق، ويوسف بن تاشفين)، مستعرضاً في ثنايا السياق تواريخ تأسيس بعض المدن السودانية و«الشنقيطية»، كـ (تنبكتو، وأروان، ووادان، وشنقيط)[104].

وتبدأ حوليات تجكجة تاريخَها بسنة 1070هـ وهي سنة انتقال إدوَعْلي شنقيط إلى تجكجة[105]. وبدأ سيدي عبدالله بن انبوجه العلوي تسجيل أول حادثة في تاريخه «فتح الرب الغفور في ذكر تواريخ الدهور» من سنة 1001 هـ وهي ظهور شرب «تباك» وذهاب أحمد باب من تنبكتو[106].

أما الحوليات المنظومة فتطغى عليها المحلّية، بمعنى أن الأحداث التي تستعرضها في تضاعيفها أحداثٌ محليةٌ تخصّ في أغلبها منطقة المؤلف وجوارها، كبداية حرب أو واقعة أو وفاة عالم أو فقيه محدّث أو أمير، أو قحط أو مجاعة، على شاكلة النمط السردي المعتمد في نظيرتها المنثورة، ومن أهم هذه الحوليات ـ كما تقدم ـ نظم وفيات أمراء البراكنة والترارزة لوالد بن خالُنا المتوفى 1212هـ وقد بدأ المؤلف نظمه المذكور بسنة 1092هـ مسجلاً فيها وفاة بكار بن اعلي البركنّي حيث يقول:

مات بلا زدلاف عام «بضْش» ** بكّارُ نجلُ إعْلِ بادي البطش[107]

103ـ ورد هذا النص ملحقاً بدراسة الباحث المغربي رحال بوبريك عن مدينة ولاتة، ولكنه لم يسلم من الكثير من الأخطاء المطبعية والإملائية. والنص المذكور من تأليف أحمد بويا بن الطالب بوبكر المحجوبي المتوفى 1326هـ كما ذكرنا، وقد أكمله تلميذه العالم امحمدي بن سيدي عثمان التاكّاطي الولاتي المتوفى 1337هـ. انظر: رحال بوبريك، المدينة في مجتمع البداوة، "التاريخ الاجتماعي لمدينة ولاتة خلال القرنين 18 ـ 19"، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2002، ص: 50 وما بعدها، وانظر: توضيحا شافيا أورده البحاثة سيدي أحمد ولد أحمد سالم في تحقيقه لكتاب "حوادث السنين" للمختار بن حامد، م. س، ص: 18، 19.

104ـ الطالب أحمد بن اطوير الجنة، تاريخ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 42ـ 43.

105ـ مجوعة مؤبفين، حوليات تجكجة، م. س، ص: 17.

106ـ ابن امبوجه، فتح الرب الغفور في ذكر تواريخ الدهور، م. س، ص: 25، وانظر: تاريخ جدو، م. س، ص36.

107ـ والد بن خالنا، منظومة وفيات أمراء المغافرة 1092 ـ 1180هـ/ 1681 ـ 1766م، تحقيق محمدن ولد الطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، 1991، 1992، ص: 28.

ويتّضح من خلال الاستعراض السابق أن أقدم الأحداث التي سجلتها الحوليات بصنفيها المنثورة والمنظومة كانت ذات ارتباطٍ وثيقٍ بالتاريخ المحلي المناطقي في أغلبه، وإن اشتملت على إشارات ونتف متفرقة عن تاريخ الجوار السوداني، فإن ذلك يعود في أساسه إلى ارتباط تاريخ المناطق الشرقية من البلاد بما كان يحدث في الممالك السـودانية المحيطـة بهـا وتأثرهـا به. وقد أوردنـا تلك النماذج مثالاً لا حصراً، وسنفصّل القول فيها ضمن نماذج مختارة من نصوص المدونة التاريخية الموريتانية في الفصل الرابع من هذه الدراسة.

الفصل الثاني
المؤرخون ونصوصهم

توطئة:

المؤرخ وصناعته:

من هو المؤرخ؟ وما هي صناعته؟

من هذين السؤالين وما تفرع عنهما، انفجر جدل فكري كبير بين المدارس التاريخية ومختلف الاتجاهات الأخرى ذات العلاقة بحقل الدراسات التاريخية في الغرب، وسال حبر كثير منافحة عن هذا الاتجاه أو انتصاراً للآخر. ومن بين أبرز الذين اهتموا بمناقشة هذه القضايا في أعمالهم رائدُ مدرسة الحوليات الفرنسية مارك بلوك Marc Bloch (1886 ـ 1944)، الذي حاول من خلال عمله القيّم "حرفة المؤرخ"[108] التعريفَ بمجال اهتمام المؤرخ ومهنته. بيد أن تحديدات بلوك التي انطلق منها وما خلص إليه في كتابه المذكور، لم يمنع جاك لوغوف وزملاءه في «التاريخ الجديد»[109] من إلقاء نظرة، بل إعادة النظر في ما سطّره بلوك نفسه، لأن مجال اهتمام المؤرخ ظل يتوسّع باطّراد، تمشّياً مع تطوّر النظر التاريخي

108ـ Marc Bloch، Apologie pour l'histoire ou Métier d'historiens، éd.annot. par Etienne Bloch، préf. de Jacques Le Goff، Paris، A. Colin، 1997.

109ـ جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2007، ص301، وانظر: كذلك عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، م. س، ج1، ص: 42 وما بعدها.

والممارسة، ولم يعد قاصراً على تحديدات أشبه ما تكون بمهدِّئات أولية، لكن ما علاقة هذا كله بسياقنا المدروس؟

صحيح أن نفحة الاتجاهات الحديثة في الدراسات التاريخية لم تسر إلى مجالنا المدروس، كما غيره من الأمصار العربية التي لم تراوح مكانها في تدوين التاريخ، وظلت تطل عليه من نفس الزاوية التي كان المؤرخون التقليديون يطلون منها، لكن تبسيط هذا الطرح قد يسهم في اعتقادنا ـ إلى حد ما ـ في الإجابة عن سؤال جوهري مرتبط بهذا السياق، ألا وهو: من كتب التاريخ الموريتاني؟

قد يكون هذا الإشكال الأكثر مواءمة مع سياقنا بعيداً عن التشعّب والإسقاط والخوض في المجاهل والمتاهات، ولكنه مع ذلك ليس سهلاً وهيّناً كما قد يتوهمه البعض، نظراً لما ينطوي عليه من عمق يخفى على غير المتمرّس الحذق.

فالذين كتبوا التاريخ في موريتانيا إنما كتبوه ـ في اعتقادنا ـ انطلاقاً من وعيهم بأهمية تدوينه رغم تباين مستوياته بينهم، وتأثراً كذلك ببيئتهم ومحيطهم، ووفق ممكنات حياتهم. وكانت لهم بصمات ما تزال شاخصة، وسمات فارقة لازمت النص المدوّن.

وبالنظر إلى المدونة التاريخية الموريتانية، يمكننا أن نصنّف منتجيها موضوعاتيّاً وفق مجال اهتماماتهم التي تبرز بشكل واضح في ما خلفوه من نصوص. فهنالك من اهتموا بالمناقب والكرامات، وكانت لهم فيها إسهامات مهمة مثل محمد اليدالي وسيدي محمد الخليفة الكنتي، وغيرهما، وهناك طائفة نفَرت لتدوين الحوليات، وطغت على إسهاماتها التاريخية؛ مثل جدّو بن الطالب الصغير البرتلي وأبو بكر المحجوبي وابن أعمر الإديلبي وابن اطوير الجنة الحاجي وابن انبوجه العلوي وعبدالودود بن انتهاه السمسدي وغيرهم. ومنهم من غلبت التراجم على اهتماماته، رغم إسهامه في «التواريخ»، كـ الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتيلي. وهنالك من طغى التأليف الأنسابي على نتاجه التاريخي، رغم عدم إهماله «للتواريخ»، كـ صالح بن عبدالوهاب الناصري. ومنهم ـ من المتأخرين ـ من اهتم بالقصص والأخبار كـ بابه ولد الشيخ سيديّا ومحمد فال بن بابه وأحمد سالم بن باكا وغيرهم. ولكن النموذج الوحيد الذي نحى منحى متفرداً في تدوين التاريخ وأفاد من تجارب هؤلاء هو المختار بن حامد الذي جمع مادة تاريخية غزيرة ومتنوعة حوت بين دفتيها كل الأصناف السابقة.

إن هذه النماذج تقتضي دراسة، بل عدة دراسات مكثفة لاستجلاء الكثير

من القضايا المنهجية والمعرفية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتدوين التاريخ والنظر للأحداث وتفسيرها ومدى وعي المؤرخ بما يكتب، ونزاهته في نقله وموضوعيته فيه وحياده في الأحداث المعروضة، ودور النزعات والميولات الشخصية وتأثيرها في تدوينه، ثم الصراعات وأثرها في التعمية على بعض الأحداث وتجاهلها وطمسها وتركها نسياً منسيّاً.

وعلى الرغم من أن سياقنا قد لا يتّسع لاستعراض ومناقشة الكثير من تلك الإشكالات، إلا أننا مع ذلك سنقوم بإثارتها ونقاش ما أمكن منها، وفق ما يتناسب مع حجم هذه الدراسة وأهدافها، وذلك من خلال النماذج التي انتخبناها هنا، وإن كانت غير شاملة لكل المؤرخين الموريتانيين الذين كتبوا التاريخ ودوّنوا أحداثه خلال الفترة المدروسة[110]، لأن عملية الحصر صعبة، لذلك ضربنا صفحاً ـ ليس تهميشاً ولا تجاهلاً ـ عن ذكر بعض الأسماء التي قد يرى لها البعض أولوية في الذكر وسبقاً في الاهتمام، مثل أحمد بن الحاج عبدالله الرقادي، ووالد بن خالنا وجدو بن الطالب الصغير البرتيلي، والشيخ سيدي المختار الكنتي، وسيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم، وسيدي عبدالله بن انبوجه، وببكر بن احجاب، والطالب ببكر بن أحمد المصطفى المحجوبي، وغيرهم ممن اهتموا بالأنساب والحوليات والأنظام.

والأسماء المختارة هي: (محمد اليدالي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتيلي، سيدي محمد الكنتي، الطالب أحمد بن اطوير الجنة، محمد صالح بن عبدالوهاب)، وهؤلاء جميعا من مؤرخي القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين.

110ـ أفردنا عملًا خاصاً عن هذا الموضوع نظراً لأهميته في فهم سياق تدوين التاريخ الموريتاني، وهو بعنوان: "المؤرخون الموريتانيون وكتابة التاريخ"، وسيصدر قريبا بحول الله.

أولاً: محمد اليدالي الديماني: (1096ـ 1166هـ)

I ـ حياته ودراسته:

1 ـ المولد والنشأة:

هو محمد بن المختار بن محمد ساعيد اليدالي، ولد عام 1096هـ ونشأ وتربى في كنف محيط يئن من تبعات حرب «شرببه»[111] التي دارت رحاها بين الزوايا والعرب، وألقت بثقلها على بني ديمان فصيلة صاحبنا، وذلك ما تبرزه بشكل واضح كتاباته التاريخية.

2 ـ دراسته:

درس اليدالي مبادئ العلم، وتلقى أصول المعارف ونهل منها على يد كوكبة من علماء عصره من أمثال اتشفغ عبيد الله بن اعمر الزيكئذ التونكلي، وأحمد بن اتشفغ المختار باب، والمختار بن موسى، ومحمد الكريم بن الفاضل بن الكوري، ومِينَّحنَ بن مَوْدِ مالك، وغيرهم. وقد صدر اليدالي عن هؤلاء الفطاحل فكان عالما متمكنا وشاعرا مجيدا ومؤرخا بارزا، وتنسج حول مراحل تلقيه العلم بعض الحكايات والقصص التي قد لا تخلو من مبالغة[112].

تكوّن اليدالي إذن تكويناً علمياً راقياً، حتى بلغ مبلغاً من العلم لم يؤته أحد من أقرانه، وذلك ما نلمسه في التراجم التي عقدت له، وبخاصة في فتح الشكور والوسيط؛ يقول صاحب فتح الشكور عنه إنه كان "شاعرا، ناثرا، ألّف تأليفا مفيدا في مجلدين في تفسير كتاب الله العزيز سماه "الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز"، وله قصيدة ميمية عجيبة من أحسن القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم في سبعة وأربعين بيتا، خارجة عن بحور الخليل بن أحمد الخمسة عشر، وعن المتدارك والخبب، مطلعها:

صلاة ربي مع السلامِ ** على حبيبي خير الأنام

(...) وكذا غيرها من تواليفه الحسان، (...) وله تأليف في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (...) وأنساب العرب (...)، سمعت أنه ألّف سيرة شريفة

111ـ انظر لتفاصيل أكثر عن هذه الحرب: محمد المختار بن السعد، حرب شرببه أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، الطبعة الثانية 2008.

112ـ المرجع السابق، ص: 19 وما بعدها.

* ـ هو الحلةُ السِّيَرا في أنساب العرب وسيرة خير الورى

* ـ لعله يقصد واضح المذاهب في سيرة المختار خير ذاهب

(...) جمع فيها ما لم يجتمع في الكتب الكبار)[113]. كما وصفه ابن الأمين بأنه كان "أحد العلماء الأعلام، والغطارفة الكرام، وتقدم أنه أحد الأربعة الذين لم يبلغ مبلغهم أحد في العلم في ذلك القطر، كان مشهورا بالفهم والحفظ والصلاح، وله التآليف المشهورة، منها تفسيره الكبير وسماه "الذهب"، وكتاب شيم الزوايا"[114].

وتحيل التراجم التي عقدت لليدالي في "كرامات أولياء تشمشه" لوالد بن خالنا، و"النجم الثاقب في بعض ما لليدالي من مناقب" للنابغة الغلاوي، و"ذات ألواح ودُسُر" لسيدي أحمد بن اسْمُهُ، إلى عمق الرجل الروحي والصوفي، نظراً لما اشتملت عليه من مناقب وكرامات[115] وخوارق سيقت تبركاً به واحتفاءً بذكره وسيرته المثلى.

عاش اليدالي في واقع يعجّ بالمتناقضات، ورأى بأم عينيه ما أنكر من بني زمانه الذين خارت قواهم وضعفت عزائمهم، وانجرفوا في متاهات وأوحال دخيلة على مجتمعهم، وتراموا في أحضان الواقع المحيط بهم، وركنوا إليه "مكرهين" جراء التأثيرات النفسية والمعنوية التي ألحقتها الحرب مع بني حسان (المغافره)، فصدّوا وحادوا عن طريق سلفهم.

وقد عبّر اليدالي بحرقة عن ذلك الواقع من خلال تآليفه، ساعياً إلى تقويم المعوج، داعياً شباب بني قومه إلى اتّباع سيرة سلفهم، والكفّ (عن الجولان في الناس وعن ما هم عليه من الطرق القبيحة التي ظنّوا أنها فرصة اقترحوها، وأنهم يغبطون عليها، وهي لا تليق بعامي فكيف بزاوي).[116] (وإياكم وما يؤدي إلى التباغض بينكم من أمور الدنيا، فهي أقل من ذلك، فأمرها يسير، وقدرها حقير (...) وكفّوا النساء عن التّبرج والتمرّد على أزواجهن، والخروج بغير إذن، ودخول الأجانب عليهن)[117].

وقد سعى اليدالي منذ الوهلة الأولى إلى إصلاح ذلك الواقع ورتق ما انفتق

113ـ البرتيلي، فتح الشكور، م. س، ص: 123.

114ـ ابن الأمين، الوسيط، م. س، ص: 223.

115ـ انصب اهتمام العديد من الباحثين المعاصرين وبخاصة من المغاربة على استنطاق كتب المناقب ودراسة خطابها ومدلولاتها، ومن بين هؤلاء: عبدالأحد السبتي، في بحثه: "من المناقب إلى الأخبار ومن الأخبار إلى المناقب"، ضمن "التاريخ وأدب المناقب"، منشورات الجمعية المغربية للبحث العلمي، الرباط، 1988، ص: 93 وما بعدها، وحليمة فرحات، وحامد التريكي: "كتب المناقب كمادة تاريخية"، ضمن "التاريخ وأدب المناقب"، ص: 51 وما بعدها.

116ـ اليدالي، النصيحة، ضمن نصوص من التاريخ الموريتاني، م. س، ص: 203.

117ـ نفسه، ص: 201، 202.

منه، ونشر ما اندرس من العلوم والمعارف في زمانه، وانكب على ذلك تعليما وتأليفاً، فصدر على يده فطاحل العلماء من بني قومه، وكانت مصنفاته وكتبه من أهم دعائم "النهضة" العلمية في منطقة "القبلة" كما كان هو رائد حركة التأليف فيها[118].

وبغض النظر عما يثار حول نتاج الرجل الفكري من انتقادات[119]، ترى أنه عبارة عن اجترار واستنساخ خالٍ من ذاتية المؤلف وبعيد عن التصنيف، إلا أن ذلك لا يخلو في بعض جوانبه من تحامل واضح على الرجل بسبب شهرته وذيوع صيته، ولا أدلّ على صحة هذا القول من شهادة أقران اليدالي أنفسهم ومعاصريه بتفرّده وتميزه. ولسنا منافحين عنه ولا نحن كذلك متحاملون عليه، بقدر ما يهمنا هنا ما يتّصل من نتاجه الفكري بسياقنا وهو أعماله التاريخية التي جاءت انعكاساً لواقع مجتمعه ومحيطه الذي شغله ـ على ما يبدو ـ طوال حياته[120]. فما هي إذن تلك الأعمال؟ وما هو مضمونها؟ وما هي قيمتها التاريخية؟ وعلامَ اعتمد في تأليفها؟

II ـ النصّان: (شيم الزوايا وأمر الولي ناصر الدين):

1 ـ محتويات النصين:

ألّف اليدالي نصين تاريخيين مهمين يؤرخان لأهم مرحلة من تاريخ «القبلة»، وهما: «شيم الزوايا» و«أمر الولي ناصر الدين». والنصان مترابطان أشد الترابط، ويعكسان حالة عانى منها اليدالي وحاول التعبير عنها ومعالجتها وإصلاحها، وهي واقع مجتمعه الذي ألمعنا لبعض سماته أعلاه، فكان لا بد من تذكير بني زمانه بما كان عليه سلفهم حتى يتم الاقتداء به، والسير على نهجه في كثير الأمر وقليله وجليله وحقيره. فالشيم المراد منها التشبث بها والعمل بما يقتضيه ذلك. وبما أن الشيم في حد ذاتها قد لا تكون مقنعة لأنها لا تعدو كونها كلاما إنشائيا تأليفيا، اقتضى الأمر إيراد نموج فريد يقتدى به، فكان لذلك «أمر الولي ناصر الدين»، الذي تفرّد بين أقرانه وعلماء زمانه بصفات حميدة وشمائل فريدة وخوارق عجيبة «حتى قيل إنه أعزّ فتى في قومه»[121].

وسنحاول إلقاء أضواء كاشفة على النصين لإبراز مضمونهما ومعرفة قيمتهما

118ـ محمذن ولد باباه، م. س، ص: 23.

119ـ نفسه، ص: 24.

120ـ انظر: رسالة النصيحة في الأمر بالمعروف، ورسالة "اللفعة" وكلتاهما لليدالي.

121ـ اليدالي، شيم الزوايا، م. س، ص: 58، 59.

التاريخية، وسنبدأ بـ: **شيم الزوايا** الذي يلخّص مؤلفه المقصود منه ومضمونه بقوله: «هذا ذكر شيم أسلافنا الشمشوية المرضية عند الله تعالى، وذكر بدء أمر تشمش وما تعاقدوا عليه، وذكر بعض أحوالهم، رضي الله عنهم»[122].

ويمكن تقسيم نص **شيم الزوايا** إلى عدة محاور اعتماداً على ما ورد في متنه، وهي: أخلاق الزوايا، أصل تشمشه وسبب تسميتهم وبدء أمرهم، وميثاقهم الذي تواثقوا عليه، ووضعهم في ظل سيطرة أولاد «رزك»، ومحنة الزوايا بسيدي أحمد العروسي، والحرب بين المغافرة وأولاد رزك، وتشمشه في ظل حكم المغافرة، وأخيرا: نظرة تشمشه إلى المغافرة.

وعلى الرغم من الاضطراب الذي يطبع المراحل المعروضة في الشيم، والذي حاولنا تجاوزه بإعادة ترتيبها وفق ما يتناسب مع سياقها التاريخي، إلا أنها لم تخل كذلك من غموض بيّن، بل إفراغ من المحتوى المقصود أحيانا على ما سنوضح.

بدأ اليدالي في مستهل النص باستعراض شيم الزوايا وهي (حقيقة التمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، والعض عليها بالنواجذ، فهذا ما تعاقدوا عليه، فقد أسسوا سيرتهم وأحكموها بالشرع، وتمسكوا بها حتى صارت لهم طبعاً وديدناً، وكأنهم فطرهم الله عليها بحيث لا يقدرون على تركها)[123]، ثم راح بعد ذلك يعدّد تلك الشيم التي انفردت بها ـ حسب قوله ـ مجموعة «تشمشه»، ومنها: (الصبر بأنواعه، ومنه صبرهم على ما يطرأ على البئر والمراح والمراعي مما يثقل عليهم، وصبرهم على عدم تحمّل الغرامة لحسّان وغيرهم، وتواطؤهم على ذلك حتى أغاروا عليهم مراراً، ثم كفاهم الله شرهم فجعل بأس الفئتين بينهم، وصبرهم على الجفاء، وما ينالهم من أذى الناس، وتجاوزهم عن جفاة الطباع تخلُّقاً بأخلاقه صلى الله عليه وسلم، وكثرة الصبر على جور الظلمة (...)، وكثرة الحلم عن من جار عليهم، وكظم الغيظ)[124]، و(عزوفهم عن الدنيا، وعدم المناقشة فيها، وعدم الرغبة في حطامها الفاني، وقلة الطمع في ما بين أيدي الناس، ولا سيما الظلمة)، و(كثرة التزاور والتواصل بينهم، وصفاء المودة بينهم)، و(حسم مواد الفتن، وعدم مخالطة الناس، ورؤية محاسنهم، والتعامي عن مساويهم، وعدم رضاهم عن أنفسهم)[125].

122ـ نفسه، ص: 57، 58.

123ـ نفسه، ص: 58، 59.

124ـ نفسه، 60، 61، 63.

125ـ اليدالي، شيم الزوايا، ص: 67، 68، 69.

ويتحدث عن تاريخ تشمشه (التي تعني الخمسة) وأصلهم وسبب تسميتهم بهذا الاسم، ونشأة حلفهم، ومسار رحلتهم من بلدهم الأول إلى «القبلة»، وما رافق ذلك من أحداث لا تخلو في بعضها من غرابة[126]؛ حيث يقول: (إنهم خمسة رجال، خلّف كل واحد منهم خمسة أولاد، أعقبوا كلهم وتعاقدوا على خمسة أشياء، ومعنى «تشمش» بالعجمية: الخمسة..)[127]. (.. وأصلهم من قرية يقال لها تارودانت، خرجوا منها إلى آدرار في قرية منها يقال لها آبَّيْري، ثم خرجوا منها إلى القبلة متفاوتين في الخروج)[128]، (وسبب خروجهم أنه لما وقعت الفتن بين أهل آدرار وكثر الهرج فيه خرجوا منها هاربين من الفتن)[129].

واستعرض اليدالي نتفا متفرقة عن المغارم التي كانت تفرض على مجموعة تشمشه، والغارات التي كانت تتعرض لها من «لخبابشه»، و«لعزيزات»، و«البرابشة»، و«أولاد رزك»، و»العروسيين»، والمغافرة، حيث يقول: (.. وصبرهم على عدم تحمّل الغرامة لحسّان وغيرهم، وتواطؤهم على ذلك حتى أغاروا عليهم مراراً (...) وكانوا يصبرون كثيراً من جور القبائل قبل أولاد رزك منهم: لخبابشه، ولعزيزات، والبرابيشة، ثم جاء أولاد رزك فاشتّد جورهم عليهم)[130]. ثم إنه في (زمان أولاد رزك جاء أوديك الأقرع الانباركي إلى تشمش وقال لهم: من أنتم؟ فقالوا: نحن المعتقون قال لهم: لا معتق اليوم! ثم طلب منهم المغرم، فأعطوه حلَّة، وترك عندهم رمحه، دليلاً على أنهم غفره، ثم أتاهم أحمد بن دامان فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن المعتقون. فقال لهم: كلّ من أعتقته أولاد رزك فنحن نعتقه)[131]. (ثم إنا نحن الآن في مغفر والله المستعان)[132]. كما تحدث اليدالي عن العروسيين ومجيئهم إلى تشمشه والحيل التي كان يستخدمها سيدي إبراهيم بن سيدي أحمد العروسي في جلب قلوب الناس؛ حيث كان (يأتي إلى زوايا القبلة ويفعل فيها ما شاء، ولا يقدر أحدٌ أن يتعرض له بشيء، حتى طرق ساحة تشمش فتصدى له بعض أعيانهم وأفسدوا حيله، فانجلت الغمة عن

126ـ نفسه، ص: 70 وما بعدها.

127ـ نفسه، ص: 70.

128ـ نفسه، ص: 78.

129ـ نفسه، ص: 80.

130ـ نفسه، ص: 61، 63، 64.

131ـ نفسه، ص: 82، 83.

132ـ نفسه، ص: 84.

الزوايا بقفول العروسي راجعاً إلى التل)[133]. بيد أن ابنه هيبه العروسي تسلّط بعد ذلك عليهم فأغار بجيوشه يريد المغرم، لكنه لمّا رأى كثرة فتيانهم وشدتهم ذعر منهم وارتحل كأنه مهزوم)[134].

وختم اليدالي نصه بما يفهم منه موقفه من المغافره وإن لم يصرّح بذلك، وهو يظهر التمايز الكبير والبون الشاسع بين الفئتين اللتين تحدث عنهما في نصه بشكل رئيسي؛ وهما: الزوايا (تشمش موضوع النص)، وبنو حسّان (المغافرة)، وذلك ما يتضح لنا بشكل جلي من خلال قوله: (اعلم أن أعظم القواعد التي أسست عليها تشمش أمرهم: عدم مخالطة الظلمة وطرق أبوابهم، والانعزال عنهم قلباً وقالباً، لما في ذلك من المفاسد الدينية لمن خالطهم، لئلا يرتضع الخبيث من خبث أفعالهم وقبيح مخالطتهم، ومن مسارقة طباعهم، وكثرة شهود المنكرات منهم، وتباغضوا وتدابروا وتسابُّوا وتهارُّوا كما تتهارُّ الكلاب على الجيف، وتغايروا كما تتغاير النساء، فيسخرون منهم)[135]، إلى أن يقول: (وكان أسلافنا أيضا يحذرون من النظر إلى وجوه الظلمة والسفهاء، ويأمرون بغض الأبصار عنهم، ويقولون إن النظر إلى وجوههم يقسي القلب)[136].

كما يفهم كذلك موقف المؤلف من المغافره في سياقات مختلفة؛ مثل قوله: (ثم إنا نحن الآن في مغفر والله المستعان!) بعد أن ذكر بعض المجموعات التي كانت تسوم تشمشه بسوء وكفاهم الله شرهم[137]. على أن مما يلفت الانتباه أن اليدالي كانت له علاقة طيبة بأحد أمراء البراكنة وهو أحمد بن هيبة (ت: 1761م) وقد مدحه بقصيدته المشهورة:

قضت حكمةُ الجبار بالفتح والنصرِ ** لأولاد أمِّ العز بالعزّ والظَّفْـر

من اختصهم ربُّ الورى بين مغفرٍ ** ببذل النَّدى والعدل والحلم والصبر

وراعَوا حقوق الله في كل مسلم ** ضعيف ومسكين فقير ومضطر

كما حوّل مِدحةً له إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وهي قصيدته ذائعة الصيت

(صلاة ربي مع السلام...)

133ـ نفسه، ص: 87، 90، 91، 92، 93، 94.

134ـ نفسه، ص100، 101.

135ـ نفسه، ص: 102

136ـ نفسه، ص: 106.

137ـ نفسه، ص: 84.

فامتعض ابن هيبة من ذلك، ثم إنه رضي[138]. فهل يعني هذا تغير موقف اليدالي من المغافرة والتعامل معهم؟! أم بماذا يمكن تفسيره؟!

كما تحدث اليدالي في ثنايا هذا النص عن بعض الوقائع والحروب؛ ذاكراً أسبابها ونتائجها، مثل حرب «انتيتام» المشهورة بين المغافرة وأولاد رزك عام 1040هـ، وذكر دورها في تفرق تشمشه[139].

وتطرق اليدالي لبعض الممالك السودانية التي كانت تغير على الزوايا، بخاصة سلاطين آل «تنكلل» في مملكة فوته تور[140].

لقد قدّم اليدالي من خلال هذا النص صورة عن تاريخ المجتمع «الشمشوي»؛ بدءاً بالشيم والأخلاق وتكوُّن الحلف وما تخلل ذلك من أحداث، وانتهاءً بعلاقتهم بالمغافرة الذين كانوا يفرضون عليهم المغارم. وقد عكس المؤلف من خلال هذا النص حياة تشمشه السياسية والاجتماعية والدينية، والظروف التي مروا بها، والخوارق التي ظهرت عياناً على أيديهم. وهو لذلك أجْلى انعكاسٍ لواقع اليدالي ومجتمعه الذي عاش فيه.

وإذا أمعنا النظر في «شيم الزوايا»، وتفحّصنا أخباره وقصصه وما ورد فيه من أحداث، فإننا نلاحظ سيطرة المنطق الديني والإيديولوجية «الزاوية» على مختلف مساراته، ويتجلى هذا المنطق وتلك الايديولوجيا في نقاط عديدة منها:

- النظرة الاستعلائية لمجتمع الزوايا «تشمشه»، الذين يعتبرهم المؤلف أنموذجاً فريداً في محيطه، نظراً لما يتميزون به من قيم وأخلاق منبعُها التقوى وصفاء النفس والود، جرياً على سنة النبي صلى الله عليه وسلم. أما الفئة الأخرى (بنو حسان) فهي على النقيض من ذلك تماماً، فهم ظلَمة، «قتَلة»، ولا تجوز مخالطتهم ولا حتى النظر في وجوهم! وتظل هذه الصورة الطوباوية الانتقائية تهيمن على عرض اليدالي واقتضابه، وهي تعبّر عن تحكّم الخطاب «الزاوي» «المتهجّم» على المجموعات المحاربة والواصف لها بأبشع النعوت والأوصاف.

- سيطرة المنطق الديني المرتبط بخطاب الكرامات والبركات وخوارق العادة، ويجد هذا المنطق في التعلّق بهذه الأشياء أساساً لتبرير ضعفه ووهنه وعجره عن الصدّ عن نفسه وحمايتها من الآخر «الظالم»، بل إن الارتكان إلى هذا المنطق

138ـ ابن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، م. س، ص: 223، ومحمد فال بن بابه، التكملة، م. س، ص: 30، 31.

139ـ نفسه، ص: 94، 95، 96.

140ـ نفسه، ص: 105، 106.

والاعتماد عليه يكون سببا ـ في أحيان كثيرة ـ في انتصار القدَر للفئة «المظلومة» (تشمشة). ويبرز ذلك جليا في أكثر من موضع، بل إن المؤلف ربما اعتمده أساساً لتفسير بعض الأحداث وتأويلها[141]، وهو في هذا يحيل إلى منطق شائع في أوساط الزوايا، وهو ما يعرف في اللهجة الحسانية «تازَبُّوتْ»، وهي نوع من الانتقام الإلهي الذي ينال كل من يجوس خلال ديار أوليائه أو يسومهم بسوء. وينطلق هذا المعنى مع النص من مستهله إلى منتهاه، رغم اختلاف السياقات[142]. وبالمقابل فكل من يتقرب إليهم بخير من عطايا وهدايا وهبات، سينال الحظوة والبركة في المال والجاه بسببهم، (وقيل إن هذا هو سبب «درجة» أولاد دامان إلى اليوم)، لأنهم هادَوا أحد أولياء تشمشه وهو سيدي الفالّ بن محمد بن يديمان[143].

أما النص الثاني فهو: «**أمر الولي ناصر الدين**»[144]، وقد ركّز فيه اليدالي على إبراز معالم شخصية الولي ناصر الدين، وما يتعلق بها وما اختص به وانفرد. فتناول ملامح شخصيته، خلقا وخلقا، وبدء أمره، واختبار العلماء له، واختباراته الكشفية عن الأولياء وإخبار بعضهم به، ومواعظه، وعكوف الناس عليه، وحبهم له، والتماسهم لبركته، ثم إصلاحاته الاجتماعية، وإحياءه السنة، وتسمياته، ومبايعته، ووزراءه وقضاته، وزيارته للقبور، وفتوحاته، وكراماته، ووقائع شرببه، وأسباب هزيمة الطلبة).

يقول اليدالي: (أما بعد فهذه نبذة طلبني بعض الأصحاب أن أضعها في أمر ولي الله ناصر الدين أبي بكر بن أبهم المذكور في كتاب أولياء الله المقربين الروحانيين. وكان رضي الله عنه أبيض اللون، جعد الشعر، قصيرا، مائل الأنف، أفجح الساقين. وكان يعلو وجهه نور ساطع. وكان قبل مكاشفته المشهورة صالحا تقيا نقيا عفيفا مشاركا في جميع العلوم، فاق بعض شيوخه، وبعض من تفقّه معه. وكانت له نفس أبية فاق على أقرانه ورعا حتى قيل إنه أعزّ فتى في قومه)[145]. ثم لما انتهى من الاسترسال في ذكر صفاته، ذكر بدء أمره فقال: (.. فبينما أنا بين النائم

141ـ انظر: مرض أحد مبتعثي المغرم من أولاد اخليف من أولاد رزك وتأويل شيخه مرضه بإغارته على تشمش حيث قال: "إنما أُتيتَ من قِبل القوم الذين أغرت عليهم". وغير ذلك كثير. انظر: شيم الزوايا، ص: 73، 75، 76.

142ـ نفسه، ص: 65، 66، 67، 75، 76، 77، 78. 83، 84، 86، 87.

143ـ نفسه، ص: 98.

144ـ عرف هذا النص بعدة أسماء منها: أمر شرببه، وغزوات شرببه، وكرامات ناصر الدين، ومناقب ومغازي ناصر الدين.

145ـ أمر الولي ناصر الدين، ص: 118.

واليقظان، أراقب طلوع الفجر، بعد أن صيّرت نفسي هي من أسوإ خلق الله، إذ كوشف لي عن أهل الجنة وأهل النار، وأحوال الناس في البرزخ، وفي عرصات الآخرة، قال: كنت كالجودي حين تواضع لله فاستوت عليه سفينة نوح عليه السلام، فرفعه الله لتواضعه)[146].

اختبار العلماء له: (.. وجعل العلماء منهم والعقلاء يختبرونه ليعجزوه ويفحموه، فلمّا وجدوا عنده علم الأولين والآخرين، وجعل يزداد علماً على علمه الأول أضعافاً مضاعفة، وبحراً لا ساحل له (...) أذعنوا له وانقادوا)[147].

وبالنظر إلى ما اشتمل عليه النصان من أحداث، وما عرضا له من أخبار ووقائع على نحو ما أسلفنا، فإن ذلك يثير الكثير من الإشكالات حول صحة المعلومات المعروضة، وهذا ما يحيلنا إلى سؤال مهم ألا وهو: علامَ اعتمد اليدالي في ما نقل؟

2 ـ مصادرهما:

اعتمد اليدالي في تدوينه لهذين النصين على روايات استقاها من الرواة «العدول» «الثقات»، وهؤلاء لم يكونوا معاصرين أو شهود عيان لما رووا، بل نقلوه كما سمعوه، وهذا يحيلنا إلى عدة إشكالات، تتعلق أولاها بالرواية الشفوية[148] نفسها ومدى اعتمادها في تدوين التاريخ، وضوابط ذلك الاعتماد، خاصة أن انتقال الرواية من راو إلى راو قد لا تسلم من تصحيف زيادة ونقصا. بينما يتعلق الثاني في مدى صحة مضمون الرواية وسلامته من التضخيم أو التقزيم خاصة أن المؤلف لايعتمد ـ وفق منهج الإسناد ـ على متن الرواية بقدر ما يركز على الراوي وسلسلته؟

لقد كان اليدالي دقيقا في مصادره الشفوية التي اعتمد عليها، لا يخلط بينها قيد أنمله، يعزو كل قول لمن أخذ عنه، دون خلط أو لبس، مشيرا إلى نهاية كل رواية بذكر سند جديد، كأن يقول في حالة استمرار الرواية «وبهذا الإسناد أيضا..»، أو «وبالسند المتقدم».[149] لكنه مع ذلك يتجاوز أحيانا هذه القاعدة فلا يذكر سند الرواية ولا من نقلت عنه مكتفيا بقوله: «على ما تلقينا من أسلافنا»، «وتلقينا من أسلافنا»، وأحيانا يبني الفعل للمجهول «قيل» مضفيا غموضا أكثر على مصدر المعلومة[150]. وعموماً فمصادر المؤلف «عدول»، «ثقات»

146ـ نفسه، ص: 119.

147ـ نفسه، ص: 120.

148ـ انظر: منّـي ولد عبدالقادر، التاريخ الشفوي الموريتاني.. مقتضيات الفهم وعوائق التدوين، م. س.

149ـ أمر الولي ناصر الدين، ص: 82، 85.

150ـ نفسه، ص: 78، 81، 98.

وإن لم يعاصروا ما يروون من أحداث، مما يفتح الباب على مصراعيه للتساؤل عن مدى ضبطهم للرواية غضةً طريةً كما تلقوها عن أسلافهم، لأن عمر الذاكرة في حد ذاتها محدود ويطالها ما يطالها من العوارض كالنسيان وغيره؟ وينبغي التنويه في السياق إلى أن اليدالي قد سنّ في اعتماده على الإسناد في الرواية سنةً سار عليها من جاء بعده من المؤرخين والنسابة.

3 ـ أهميتهما التاريخية:

ليس سرا أن شيم الزوايا وأمر الولي ناصر الدين قد حُرّفا وصحّفت بعض مضامينهما حتى امّحت شخصية مؤلفهما أو كادت، وقد نبّه على ذلك محقّق النصين الأستاذ محمذن ولد باباه في مقدمة دراسته العامة حيث يقول: (..من المعلوم أن هذه النصوص لكثرة تداولها واستنساخها والاقتباس منها وحتّى تقليدها، تناولها التحريف، زيادة في المتن ونقصانا، تقديما وتأخيرا. وتناول التحريف أسماء الأعلام وغيرها من المسمّيات الخاصة بالأماكن والمجموعات القبلية، نتج عن هذا التصرف اختلال وحدة النصّ البنيوية، وزاد فيه من شاء أن يزيد، نقص منه ما طاب له أن ينقص، وربّما انتحله البعض وتبنّاه، و«تفشتل» النصّ إن صح التعبير حتى امّحت شخصية المؤلف)[151]. وهذا ما يثير لدينا تساؤلا هاما يتعلق بجداوئية الاعتماد على ذينك النصين رغم تصحيفهما؟ كما أن المحقّق نفسه يصرّح بالتصرّف في النصين زيادة ونقصا، وتقديما وتأخيراً[152]، وهذا ما يفرض علينا مزيدا من التحفّظ والحيطة إزاء التعامل مع مادتهما التاريخية.

ومع ذلك فالنصان يقدمان صورة عن واقع مجتمع تشمشة خلال قرون خالية ما كان لنا أن نطلع عليها لولا اهتمام اليدالي بها، وإلا لراحت في مجاهل التاريخ، ولعل مما يوضّح أهمية هذين النصين كذلك أنهما كانا محط اهتمام وعناية من لدن الباحثين والمستشرقين الفرنسيين الذين جاسوا خلال الديار بحثا عن كل شاردة وواردة من تاريخها لحاجة في نفس يعقوب. ومن هؤلاء: Paul MARTY[153]، René BASSET[154]، Ismail Hamet [155]، H.T.Norris [156]

151ـ محمذن ولد باباه، م، س، ص: 29

152ـ نفسه، ص: 32.

153ـ Paul MARTY، l'Emirat du Trarza، 1920.

154ـ René Basset، Recherches Historiques sur les Maures (Mission au Sénégal) Paris، Emest Leroux، 1913

155ـ Ismail Hamet، Chroniques de la Mauritanie Sénégalaise: Nacer Eddine، 1911.

156ـ H.T.Norris، Znaga Islam during the seventeenth and eighteenth centuries، London 1969.

ثانياً: الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (1140 ـ 1219هـ)

I ـ حياته ودراسته:

1 ـ المولد والنشأة:

هو محمد عبد الله بن أبي بكر الصديق بن عبد الله بن محمد بن الطالب علي بنّان البرتلي، عرف بالطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، ولد 1140هـ وهو عالم صوفي ومؤرخ متمّكن. وقد عقدت له عدة تراجم لعل من أولها ترجمة تلميذه الشيخ بن الطالب الصغير البرتلي (ت: 1235هـ)، الذي خلع عليه الكثير من الألقاب والأوصاف فهو: (الإمام المشهور العلامة الحجة الحافظ المطلع المحقق الكبير الثّقة الثّبت الفقيه النظّار المجتهد المصنّف التّقي النقيّ الصالح الزاهد الورع (...) المفسّر المحدّث الحافظ المسند الرواية... الآخذ من كل فن أوفر نصيب، الراتع من كل علم مرعى خصيب، الآخذ من المنقول والمعقول والحقيقة البديعة)[157].

وقد رضّ بعض هذه الأوصاف المؤرخ الولاتي جدو بن الطالب الصغير في تاريخه عند ذكر وفاة البرتلي في حوادث 1219هـ فقال: (وفيه توفي المرحوم بكرم الله تعالى الفقيه النحوي اللغوي المتفنن النزيه الطالب محمد بن أبي بكر الصديق بن الطالب عبدالله بن محمد بن الطالب علي بن البرتلي لتسع بقين من ذي الحجه الحرام)[158]. كما عقد له المحجوبي ترجمة في كتابه «منح الرب الغفور»، فوصفه بما لم يزد على ما ذكره الشيخ بن الطالب الصغير تلميذ البرتلي فقال: (كان عالما نحويا لغويا بيانيا عروضيا أصوليا متفننا في العلوم كلها وكان صوفيا (...) حسن الخلق والخلق دائم البشر متواصل الأحزان كثير الصمت...)[159]. لكن أشمل تلك الترجمات ما عقده تلميذ البرتلي السابق.

وبغض النظر عما تعنيه تلك الأوصاف والنعوت والتحليات من إطراء وثناء وتمجيد قد لا يخلو من مبالغة، إلا أنها تحيل إلى مكانة البرتلي العلمية بين أقرانه ومعاصريه وفي عيون تلامذته الذين نهلوا من معينه الصافي.

2 ـ دراسته:

درس البرتلي العلم وأخذ مختلف المعارف والفنون وتضلع فيها على أكابر

157ـ هذه الترجمة مضمنة لكتاب البرتلي فتح الشكور، ص: 17 وما بعدها.

158ـ جدو، م. س، ص: 100.

159ـ المحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 36.

علماء عصره من الولاتيين من أمثال: الحسن البرتلي، الإمام عمر ممّ المحجوبي، والطالب الأمين بن الحبيب الحرشي، أحمد بن عمر بن الوافي المحضري، أبي بكر بن محمد بن عمر البرتلي، وأحمد بن محمد بن موسى الزيدي وغيرهم[160].

وقد ترك البرتلي نتاجا فكريا زاخرا بالمعارف والعلوم من أهمه فيما يعنينا:

- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور
- تأليف في التاريخ
- تأليف في نسب شرفاء ذرية مولاي الشريف[161]

II ـ النصّ: (فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور):

1 ـ محتويات النص:

نشأ البرتلي ونهل من العلم وتضلع فيه في ولاتة، كما تقدم. وتوحي التراجم التي عقدها لشيوخه ومعاصريه من العلماء بأن مدينته كانت كعبة للعلوم والمعارف يأوي إليها الناس من كل صوب وحدب.

ويبدو أن عواملَ كثيرة قد تضافرت على عهد صاحبنا، أدت إلى إذكاء الوعي التاريخي عند الرجل، وقد تمثّل ذلك في اعتنائه بتدوين التاريخ بوقائعه وأحداثه الجسام، فألّف فيه أول نص حولي معروف لحد الآن عن التاريخ الموريتاني، وهو تاريخه (**الوقائع والوفيات**)، وقد اعتمد فيه على «تاريخ السودان» لعبد الرحمن السعدي، حيث قام بجرد الوقائع الواردة فيه وترتيبها زمنيا، ثم أضاف إليها بعض الوقائع التي عرفتها المنطقة من 1066هـ إلى حين اكتمال تاريخه سنة 1169هـ[162]. وقد تجذّرت هذه العادة عند علماء ولاتة، واستحالت إلى تقاليد ثقافية معروفة حتى كادت كل قبيلة من قبائلها تنفرد بنص تاريخي، وتضم في أبنائها أكثر من مؤرخ، ولهذه الوضعية أسباب تقتضيها يضيق المقام عن بسطها.

كما ألّف البرتلي كذلك نصا ـ ما زال مفقودا حتى الآن ـ في **نسب شرفاء ذرية مولاي الشريف.** لكن أهم مصنفات الرجل التاريخية على الإطلاق هي موسوعته البديعة «**فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**»، التي نحى فيها منحى موسوعيا فريدا تقاصرت دونه همم كل من سلك هذا الطريق بعده.

160ـ عبد الودود ولد عبدالله، م. س، ص: 19، 20.

161ـ البرتلي، فتح الشكور، م. س، ص: 18، المحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 37، عبد الودود ولد عبدالله، م. س، ص: 20، 21.

162ـ نفسه، ص: 35.

وقد عقد المؤلف في هذا المعجم التراجمي تراجمَ لمائتين وخمسة عشر[163] عالما من موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان، تكررت منها سبع تراجم، اثنتان منها بسبب الخلط بين الاسم واللقب والشهرة، والبقية وردت في سياق ترجمة المؤلف لبعض علماء البيت الفاسي[164].

وقد حدّد البرتلي في مقدمة كتابه هذا دوافع تأليفه والمنهج الذي سلكه في ترتيبه حيث يقول: (.. ورأيت سلفنا قد ألّفوا تآليف عديدة في تعريف العلماء في كل نوع من التاريخ، فمنهم من ألّف في رجال مذهبه، ومنهم من ألّف في النحاة وغير ذلك، ورأيتهم لم يذكروا علماء تكرور لبعد المسافة بينهم وبين علمائنا (...) وكان في التعريف بهم تبرّك بذكرهم كما هو معلوم (...) أردت أن آتي بتاريخ أعيان علماء التكرور لتعرف مراتبهم في الفقه والدين (...) ولم أذكر غير المشاهير من العلماء، لأن الإحاطة متعذرة، وربما تركت ذكر من كان مشتهرا منهم لبعد داره مني، أو لعدم معرفتي بأخباره، مرتِّباً لهم على حروف المعجم المغربية، مقدما عند اتفاق أسمائهم من سبقت وفاته على غيره..)[165] بيد أن البرتلي لم يكن صارما في تطبيق هذا المنهج، سواء تعلق الأمر بترتيب التراجم زمنيا أو معجميا، حيث اكتفى بالحرف الأول دون الثاني والثالث. ونفس الأمر ينسحب كذلك على «سوابق الأسماء» العربية والصنهاجية مثل «أبو سيدي»، و«ايد»، «اندغ» التي لم يعتد بها في الغالب وإن راعاها في بعض تراجمه[166].

أما عناصر التراجم التي عقدها المؤلف فيمكن اختصارها في: «الاسم، اللقب، النسب، النسبة، الصفات، الشهرة العلمية، الدراسة، الأسانيد، الشيوخ، المؤلفات، تاريخ الميلاد والوفاة». بيد أن هذه العناصر على أهميتها في تقديم ترجمة نموذجية أو مكتملة على الأقل لم يوفِّها المؤلف حقها في المتن، وله العذر في ذلك

163ـ ورد عدد التراجم في النسخة التي حققها الأستاذ عبدالودود بن عبدالله (216) ترجمة، وكان بودنا لو اعتمدنا هذه النسخة هنا في متن هذا العمل لأنها أكمل وأتم من النسخة التي اعتمدنا عليها، لكن عوارض جمة حالت دون ذلك، منها إكمال هذا العمل وترتيبه قبل خروج النسخة المنوه بها فكان من الصعب إعادة النظر في ترتيبه نظرا لضيق الوقت وإن كنا قد أفدنا من مقدمة تحقيق البحاثة عبدالودود لفتح الشكور. أما نسخة التحقيق القديم للأستاذين محمد حجي وإبراهيم الكتاني فقد ورد عدد التراجم فيها 215).

164ـ البرتلي، فتح الشكور، م. س، ص: 38 وهامشها.

165ـ نفسه، ص: 25، 26.

166ـ عبدالودود ولد عبدالله، م. س، 37.

كما صرّح في مقدمته، بل إن بعض التراجم ليصل إلى درجة من الاختصار قد لا يجدي معها نفعا في التعريف بصاحبه.

- التراجم المختصرة: وهي تمثّل السواد الأعظم من تراجم المؤلف[167]، وتختلف في اختصارها، فبعضها يشتمل على نتف مختصرة عن صاحب الترجمة تتعلق بدراسته ومؤلفاته وإمامته وما إلى ذلك، وهذه أغلب هذا الصنف من تراجم البرتلي. لكن بعضها الآخر لا يزيد على كونه كلاما إنشائيا عائما لا يقدم فكرة تفيد في التعريف بالشخص المقصود، من ذلك ما ورد في الترجمة رقم (2) حيث يقول المؤلف: (أبو العباس أحمد بري بن أحمد بن أندغمحمد العالم التقي المقلل من الدنيا المتواضع لله تعالى، أخذ العلم عنه جماعة كثيرة من شيوخ العلم من المتأخرين من أهل سكنه. لم نقف على تاريخ وفاته رحمه الله)[168]. وفي الترجمة رقم (10): (أبو العباس أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي كان شيخا عارفا تقيا عالما كان حيا عام أربعة ومائة وألف رحمه الله)[169]. وفي الترجمة رقم (12): (القاضي العدل أحمد تروي رحمه الله تعالى.. كان رحمه الله تعالى خبيرا صالحا للدين، زاهدا فقيها قاضيا عدلا. توفي رحمه الله تعالى في شهر جمادى الأولى في العام الرابع والعشرين والألف بمدينة جن)[170]. وفي الترجمة رقم (13): (سيدي أحمد بن أندغمحمد بن محمود ابن الفقيه أندغمحمد (الجد) رحمهم الله تعالى، كان رحمه الله تعالى ذكيا فطنا عالما بفنون من العلم فقها ونحوا وغيرهما. لم أقف على تاريخ وفاته ولعله في زمن سيدي أحمد بابا رحمه الله، والله أعلم)[171]. وغير هذه النماذج كثير.

التراجم المفصّلة: وهي ـ كسابقتها ـ تختلف في العرض والاقتضاب والاختصار والإسهاب. فإذا اعتبرنا أن التراجم المفصّلة هي التي جمع المؤلف فيها العناصر

167ـ انظر أرقام الترجمات التالية في فتح الشكور: (2،3، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 19، 21،25، 26، 29، 31، 37، 45، 48، 49، 50، 53، 56،68، 69، 70، 77، 80، 82، 83، 84، 85، 86، 87، 88، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 104، 105، 109، 110، 129، 133، 139، 145، 151، 153، 155، 156، 159، 170، 171، 172، 173، 174، 176، 177، 185، 188، 190، 194، 196، 199، 201، 204، 208، 211، 212، 213، 214، 215).

168ـ البرتلي، فتح الشكور، ص: 28.

169ـ نفسه، ص: 37، 38.

170ـ نفسه، ص: 38.

171ـ نفسه، ص: ص38.

السابقة أو جلّها على الأقل، فإننا نجد العديد من التراجم التي ذكر فيها أغلب تلك العناصر ولكن على وجه الاختصار لا الإسهاب والتفصيل، وهي أشبه ما تكون «بالمنزلة بين المنزلتين»[172].

التراجم النموذجية: أما التراجم التي يمكن اعتبارها نموذجية من حيث التفصيل والإطالة في التعريف بصاحب الترجمة فهي ثلاث تراجم تقريباً؛ الأولى هي ترجمة الشيخ أحمد بابا التنبكتي وهي الترجمة رقم (8)[173]، والثانية ترجمة عبدالله المكي وهي الترجمة رقم (162)[174]، وأما الثالثة فهي ترجمة الشيخ مولاي عبدالملك الحسني الركاني وهي الترجمة رقم (198)[175].

وبغض النظر عن طبيعة تلك التراجم وتصنيفاتها، إلا أنها تحيلنا إلى الثقافة الموسوعية التي كان يتمع بها البرتلي وأضرابه ومعاصروه ممن عقد لهم تراجمَ في كتابه. وتعكس المتون والمصنفات والشروح والتقاييد المعروضة في ثنايا التراجم، والأسانيد والإجازات التي أجيز بها هذا العالم أو ذاك، حالة النهضة الفكرية والازدهار الثقافي الذي شهدته البلاد أوان هذا التأليف والفترات السابقة له، وبخاصة في ولاتة التي عرفت بتقاليدها العلمية الراسخة. كما يزخر هذا الكتاب الموسوعة بالعديد من الإشارات التاريخية الثمينة عن الحياة الثقافية في البلاد وجوارها السوداني والمغربي ويمكن الإفادة منها في كتابة التاريخ الثقافي في موريتانيا الأمس.

2 ـ مصادره:

اعتمد البرتلي في تدبيج تراجمه على بعض الكتب التراجمية التي كانت منتشرة على أيامه لجهابذة من العلماء، ومن أهم هذه المراجع: «نيل الابتهاج» و«كفاية المحتاج» لأحمد بابا التنبكتي، و«تاريخ السودان» لمؤلفه عبدالرحمن السعدي، وبغية الوعاة في طبقات النحاة للجلال السيوطي، وتذييل الفشتالية لبعض علماء بلاد شنقيط، فضلا عن طائفة أخرى من المصادر العامة، وهي في

172ـ انظر: الترجمات التالية في فتح الشكور، ص: 1، 5، 6، 7، 8، 18، 20، 22، 23، 24، 27، 28، 30، 34، 35، 36، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 46، 47، 51، 52، 54، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 71، 72، 75، 76، 78، 79، 81، 92، 99، 100، 102، 103، 106، 107، 108، 112، 113، 114، 116، 119، 120، 121، 124، 125، 126، 127، 128، 130، 131، 142، 147، 148، 152، 161، 162، 163. 167، 178، 180، 183، 186، 198.

173ـ نفسه، ص: 31 وما بعدها.

174ـ نفسه، ص: 165 وما بعدها.

175ـ نفسه، ص: 201 وما بعدها.

عمومها عبارة عن مصنفات في الفقه والافتاء والحديث والأذكار والرقائق وتراجم الشيوخ والأفراد[176].

وصفوة القول أن المؤلف اعتمد على مصادر هي «في أغلبها أصلية، وبعضها عزيز نادر انفرد المؤلف بالنقل عنه»[177]. وهذا ما يضفي قيمة كبيرة على كتابه الموسوعة الذي يعتبر فريدا في بابه، ولم يأت أحد بعد البرتلي بما جاء به هو، رغم محاولة المحجوبي تذييل فتح الشكور، لكن مادته اختلطت فيها التراجم والوقائع والأحداث؛ مما يعني أن طابع التخصص التراجمي ظل يحتله البرتلي بامتياز.

176ـ انظر: توضيحا شافيا لهذه المصادر عند البحاثة عبدالودود بن عبدالله، م. س، ص: 35، 36.

177ـ نفسه، ص: 36.

ثالثاً: سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي (1179 ـ 1242هـ)

I ـ حياته ودراسته:

1 ـ المولد والنشأة:

هو سيدي محمد بن سيدي المختار الكنتي، ولد حوالي 1179هـ في أزواد (بجمهورية مالي حاليا)، «ونشأ وتربى في كنف والديه في بيت من أكبر بيوتات العلم والسيادة في الصحراء»[178]. لازم أباه في طلب العلم وخلفه في مكانته الدينية والسياسية (فقام بتربية المريدين وجلب المنافع للخلق)[179].

2 ـ دراسته:

وعلى الرغم من الخصاص الحاصل في ترجمة الشيخ سيدي محمد الخليفة وسيرته الأولى[180]، إلا أن ترجمة عقدها له المحجوبي تكشف النقاب عن دراسة الرجل وعطائه المعرفي، ومكانته السياسية والدينية في محيطه الذي نشأ فيه. يقول المحجوبي: (كان وليا عارفا بالله كاملا تقيا عابدا ورعا زاهدا عالما فقيها، جمع بين الشريعة والحقيقة، له كرامات كثيرة وخوارق عادات، وكان صوفيا أديبا لبيبا عاقلا فطنا، وكان يقوم الليل كله ذا جد واجتهاد ولزوم أذكار. أخذ العلم والأدب عن أبيه وشيخه الشيخ سيدي المختار، وجمع العلوم كلها فقها وحديثا وتفسيرا وغير ذلك. خبيرا بعلم الجدل، وقام بعد أبيه بتربية المريدين، وجلب المنافع للخلق. وكان كريما سخيا عفيفا. ألف تواليف عديدة على قدر تواليف أبيه نحو أربعين، منها شرحه لنفح الطيب سماه الروض الخصيب (...) وإرشاد السالك، وشرح على: «اللهم صلِّ على طلعة الذات المطلسم»، والطرائف في مناقب والديه وغير ذلك)[181].

ولئن تمعنّا هذه الترجمة الفريدة في بابها؛ فإننا نلاحظ أن الكنتي كان على قدر كبير من المعرفة والاطلاع، رغم أنه لم يتتلمذ على غير أبيه الشيخ سيدي

178ـ حماه ولد السالم، مقدمة تحقيق الرسالة الغلاوية للشيخ سيدي محمد الكنتي، الرباط، منشورات مؤسسة مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة المعارف الجديدة، 2007، ص: 13.

179ـ المحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 69.

180ـ وردت شذرات متفرقة عن شخصية الشيخ سيدي محمد الخليفة ومكانته الدينية والسياسية في قومه وخلافته لأبيه عند كل من: هارون بن الشيخ سيديّا بابه، كتاب الأخبار «المدون» في أخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة بهم. المطبعة السريعة، نواكشوط، د. ت. وبول مارتي، كنتة الشرقيون، تعريب محمد محمود بن ودادي، دمشق، مطبعة زيد بن حارثة، د. ت.

181ـ المحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 69.

المختار الكنتي، مما يحيل إلى المكانة العلمية السامقة التي بلغها الشيخ الكنتي الكبير، والتي لم يسامِهِ فيها أحد من أضرابه[182].

وللخليفة مراسلات مختصرة مع شيخه وأبيه الشيخ سيدي المختار الكنتي، تلقي بعض الأضواء على مراحل تدرُّجه في العلم والمعارف التي درسها، ومنهجه في التحصيل. ومن هذه المراسلات ما كتبه الشيخ الكبير لابنه الخليفة موجهاً إياه إلى الاشتغال (بمعرفة علوم اللسان التي بها التوصل إلى معرفة معاني الحديث والقرآن؛ فلتصرف الهمة إلى تحصيلها ثم بعد تحصيلها، فاشتغل بعلم الحديث والتفسير، فهو ما مضى عليه صنيع السلف ومر به عمل أعيان الخلف، والخدمة إنما تكون حيث احتيج إليها بعد الفراغ من ذلك الهم)[183].

وقد كتب الخليفة شارحا لأبيه المعارف التي انكب على تحصيلها مما شملته رسالته ووجهت إليه عباراته؛ حيث يقول: (فصدّ هذا من تصميم العزم على الانقطاع إلى الخدمة تلك المدة، وثنى بعنان العزمة إلى الاشتغال بعلوم اللسان؛ فأفرغت فيها الجهد وأعملت فيها الجد، فساعدت بحمد الله العناية فجاء منها ما لم يتهيأ بسبب ولم يحصل بكد ولا تعب، فاشتغلت بأخذ الحديث وروايته، فأخذت النزهة والمواهب اللدنية وشفاء القاضي عياض وجامع السيوطي وصحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك (...). ثم استأمركم العُبَيد فيم يأخذ؟ فأشرتم بكتب القوم المؤلفة في علم الطب والنفوس، وكيفية السير إلى الله عز وجل، وأحكام التصوف؛ فقرأت جميع مؤلفاتكم الكفيلة في الفن بما لم يحم حول حماه حائم. ثم قرأت كتب ابن عطاء الله كالحكم والتنوير وتاج العروس وغيرها، وكتب الغزالي كالإحياء والمنهاج والتنبيه، وكتب الشعراني كالرياض والعهود...)[184]، خاتما بإجازة أبيه له إجازة مطلقة بالسند في ما يجوز روايته وتحسن درايته[185].

وتنمّ هذه المراسلات المختصرة التي أوردنا بعضا منها هاهنا عن المعارف التي درسها الخليفة الكنتي على والده وبتوجيهه وتنويره، والتي أفادت في اتساع مداركه وتضلّعه في العلم ونبوغه فيه. كما تحيل إجازات والده العامة والخاصة التي صدّره فيها على المكانة العلمية التي بلغها الخليفة على عهد والده.

182ـ انظر: حول ذلك بول مارتي، كنتة الشرقيون، م. س، وسيدي محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، م. س، والرسالة الغلاوية، م. س.

183ـ هارون بن الشيخ سيدي بابه، كتاب الأخبار «، ج1، م. س، ص: 161.

184ـ نفسه، ص: 162.

185ـ نفسه.

وقد ترك الشيخ سيدي محمد الخليفة كما كبيرا من المصنفات والتقاييد والـشروح زهاء الأربعين كما ذكر المحجوبي في ترجمته السابقة؛ من أهمها فيما يتعلق بسياقنا: موسوعته المناقبية التي وضعها في كرامات والديه، وهي المشهورة بـ«الطرائف والتلائد»، ثم رسالته المعروفة بـ«الغلاوية»، وهي وإن كانت في الأصل خارجة عن موضوع التاريخ إلا أنها اشتملت على معطيات تاريخية وإشارات متنوعة من أهمها الأنساب، حتى غدت من أبرز المصادر الأنسابية عن قبيلة كنتة.

II ـ النص: (الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد)

1 ـ محتويات النص:

لعل من الجدير بالتنويه قبل الغوص في مضامين هذا الكتاب الموسوعة إلى أن له عدة أسماء شائعة منها:

- الطرائف التالدة من كرامات الشيخين الوالد والوالدة
- الطرائف والتلائد في كرامات الوالدة والوالد
- الطرائف التالدة في كرامات الشيخ الوالد والشيخة الوالدة[186]
- الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد

ولئن كان التساؤل عن مرد السر الخفي في اختلاف تلك التسميات وارداً، لكن الإجابة قد لا تتجاوز عزوه إلى النساخ، وبخاصة أن الكتاب كان متداولا بكثرة، فلا جرم والحال هذه أن تزل قلم أحد النساخ زيادة أو تصحيفا.

ويبدو أن هذا الاسم الأخير هو الأصوب من بين تلك الأسماء لتحديد المؤلف له في مقدمته بقوله: (وسميته الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد)[187]. وثمة إشكالية أخرى ـ إذا ما تجاوزنا العنوان ـ تحيط بالكتاب، وهي أن المؤلف ذكر أنه يشتمل على مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة[188]؛ لكن الموجود

186ـ أشار إلى هذه الأسماء الثلاثة البحاثة محمد محمود بن ودادي في تعريبه لكتاب كنتة الشرقيون لبول مارتي، انظر: هامش، ص: 79.

187ـ سيدي محمد الكنتي، الطرائف والتلائد، م. س، ص: 5.

188ـ ذكر المؤلف ضمن حديثه عن محتويات كتابه مضامين البابين السادس والسابع والخاتمة التي يبدو أنه قد توفي قبل إكمالها، حيث كان قد خصّص الباب السادس للحديث عن (إجماع أعيان الأمة بهذه الأعصار من سكان البوادي والأمصار على جلالته وإمامته في العلم بالكتاب والسنة ونفوذه في علم التصوف والباطن نفوذ الأسنة والإقتداء به، والإستجازة منه، والتسليم له والرحلة للأخذ عنه، واتباعه السنن القائمة، وإماتته البدع المحدثة). وأفرد الباب السابع لذكر وصايا والده ووسائله التي لا تستقل تأليفا، وجملة من فائق نظمه الرائق، وشعره المفيد الفائق، وما ظهر واشتهر وشاع في الآفاق وانتشر من بركاته وزوائده ونفحاته وعوائده على أهله وأحبابه ومريديه وأصحابه وذكر وفاته واحتضاره واختيار الله له من دار المحنة دار القرار في جواره). بينما خصص خاتمة الكتاب لشرح كرامات الشيخة الوالدة، وذكر سيرها وأحوالها وآدابها وما يتصل بذلك. نفسه، ص: 5، 6، 7.

الآن منه لا يتجاوز مقدمة وخمسة أبواب، مما يعني أنه غير مكتمل. وهذا يحيل إلى سؤال هام؛ مفاده: هل يعود هذا النقص إلى أن تتمة الكتاب ما تزال مفقودة إلى حد الآن؟ أم أن المؤلف اخترمته المنية قبل إكمال كتابه؟

لا شك أن الفرضية الأخيرة أكثر وجاهة ومنطقا من سابقتها، وبها قال المستشرق الفرنسي بول مارتي، وهي ما نميل إليه. وقد أشار المؤلف في تمهيده إلى دوافع تأليفه بقوله: (.. دعتني حميًّا الذكرى للمعهد الأنيس، والتسلّي والتعلل بذكر مآثرهما المزرية بالخندريس، مع إشارة بعض الأصحاب من خلصان الأحباب، وكسبة الآداب، ممن له بالشيخين أكبر عناية، ولما يجب لهما أوفر رعاية، إلى وضع أماليَ رفيعة، في حقائقهما وخوارقهما البديعة، فلبيته تلبية المسعد المسعف..)[189].

أما محتويات الكتاب فقد اشتمل ـ كما تقدم ـ على مقدمة وخمسة فصول. وقد فصّلها المؤلف تفصيلا واضحا فتناول في المقدمة (إثبات الكرامة وحدّها وشرطها والفرق بينها وبين المعجزة وسائر الخوارق الظلمانية وما يجوز أن تبلغ إليه الكرامة وبيان عدم لـزوم أفضليـة لشخص بظهـور الكـرامة على غيره ممن لم تظهر على يديه، والرد على منكريها، وحدّ الولي، وما يتّصل بذلك)[190].

وأما الباب الأول فقد خصّصه المؤلف للحديث عن (مولدي الشيخين وعمريهما ونسبهما وابتداء أمرهما وكيفية طلب الشيخ العلم، ورحلته فيه وصبره عليه، ومن أخذ عنه)[191].

وتناول في الباب الثاني ورع والده (وزهده مع كثرة ذات يده وصبره وحلمه ووقاره وعفوه وشجاعته وسياسته وكرمه وبدائع أخلاقه)[192]. واستعرض في الباب الثالث علومه وفضله وأساليب تربيته. وذكر في الباب الرابع (معاملته مع الظلمة والرؤساء وعوام الناس وحاله مع الطلبة والجيران والأهل والإخوان). وتحدث في الباب الخامس عن (غرر كراماته الاتفاقية ودور خوارقه الخالدة الباقية)[193].

وقد عرض المؤلف في سياق حديثه عن أبيه وابتداء أمره عرضاً ضافياً لملامح الحياة الثقافية في كل من تيمبكتو وولاتة ـ يوم كانت وجهة لأبيه ـ ثم في أزواد لمّا تصدّر والده في العلم وذاع صيته واشتهر أمره حتى صارت تشدّ إليه

189ـ نفسه، ص: 5.

190ـ نفسه، ص: 6.

191ـ نفسه.

192ـ نفسه.

193ـ نفسه، ص: 6.

الركائب والرحال، وقبلة لكل طالب علم، وملاذا وموئلا لأصحاب الحاجات. كما تحدث عن أهم العلماء الذين أخذ عنهم والده، والمتون التي درَسها ودرّسها، والأسانيد التي أخذها، والتحليات التي حلّي بها[194]. لينتهي بعد ذلك عند أخذ والده للطريقة القادرية، وعمن أخذها، وسند ذلك وسلسلته، ثم من أجازه بها[195]. كما تطرق المؤلف إلى جانب حديثه عن مكانة والده العلمية والروحية إلى مكانته السياسية والاجتماعية[196].

2 ـ أهميته التاريخية:

يعتبر الطرائف والتلائد واحدا من أهم الكتب المناقبية، بل لا نغالي إذا قلنا إنه من أهمها على الإطلاق، إذ حوى بين دفتيه مادة غزيرة ومتنوعة عن التاريخ والأنساب والثقافة والأخلاق والتصوّف...)، فهو لذلك فريد في بابه، وعزّ أن يساميه مصنّف في موضوعه.

وعلى الرغم من أن غاية مؤلفه التعريف بشيخه ووالده الشيخ سيدي المختار الكنتي وأمه، إلا أنه تجاوز فيه محض التعريف البسيط والعرض المقتضب؛ فتناول شخصية أبيه وحياته بشكل مفصّل وعميق، ينم عن مدى سعة اطلاعه وطول باعه وتعدد معارفه ومواهبه. وذلك ما يتضح في اللغة المتقنة التي صاغ بها المؤلف كتابه.

ولئن أمعنا النظر في فواصل الكتاب وفقراته وأبوابه على نحو ما أجملنا سابقا، فإننا نلاحظ أنه قطع أشواطا كبيرة في الترجمة الفردية والصفات المنقبية، إذ يمكن من خلالها التأريخ للحياة الثقافية ليس فقط في أزواد على عهد والده، وإنما كذلك في أبرز الحواضر «الشنقيطية (ولاتة) والسودانية (تنبكتو). وتمثّل الكتب والمتون والشروح والتقاييد والأسانيد والسلاسل والإجازات التي أجيز بها الشيخ الكبير وأجاز بها أسطع مثال على ذلك. كما يمكن من خلال الكتاب كذلك معرفة المكانة العلمية الكبيرة التي وصلت إليها الزوايا الكنتية المختارية في أزواد على عهد الشيخ الكبير وابنه، حيث كانت كعبة للعلم ومهدا للمعارف والفنون.

ويشتمل الكتاب كذلك على إشارات تاريخية هامة عن الحياة السياسية والاجتماعية في موريتانيا الأمس، وذلك ما يستشف من خلال حديث المؤلف في

194ـ نفسه، ج، 2.

195ـ نفسه.

196ـ نفسه، ج2، ص: 5 وما بعدها.

الباب الرابع من الكتاب عن دور والده السياسي والاجتماعي وعلاقته بالرئاسات الحربية وغيرها.

على أن ما يشوش على قيمة هذا الكتاب الموسوعة هو الطابع المناقبي التمجيدي ـ موضوع التأليف ـ الذي يسيطر على عرضه واقتضابه، مما جعل المؤلف ينساق في كثير من الأحيان خلف الكرامات وخوارق العادات التي «خص ويخص» الله بها أولياءه الصالحين، فكان لذلك كثيرا ما يجنح لسرد الكثير من القصص التي قد يبدو للوهلة الأولى أنها أقرب للخرافة والخيال من الواقع والحقيقة، هذا فضلاً عما يطفح به الكتاب من الشكر والتعظيم والتمجيد ـ وهو ديدن الكتب المناقبية عموما ـ في حق والده ـ وحُقّ له ذلك ـ وبعض علماء عصره وسالفيه.

وبغض النظر عن هذه الملاحظات؛ فإن الطرائف والتلائد يبقى أهم مصدر عن تاريخ الثقافة في موريتانيا الأمس خلال القرنين 13/12هـ، لما يحفل به من إشارات ومعلومات قيمة تفيد في كتابة تاريخ الحياة الثقافية في البلاد خلال تلك الفترة إذا ما أحسن استخدامه.

رابعاً: الطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي الوداني (ت: 1265هـ)

I ـ حياته ودراسته:

1 ـ المولد والنشأة:

هو الطالب أحمد ولد اطوير الجنة الحاجيّ، عالم ومؤرخ مشهور، ترجم له ابن انبوجه في كتابه «فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور». كما عقد له المحجوبي ترجمة في «منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور»، وقال عنه إنه: « كان (...) عالما فقيها تقيا عابدا وليا كاملا ذا علم وصلاح (...) وجد واجتهاد في العبادة (...)، معظما عند العامة والخاصة محبوبا عند العلماء والصلحاء»[197].

2 ـ دراسته:

ولد ابن اطوير الجنة في مدينة ودان، وكانت حاضرة علم ودين، ودرس على أكابر علمائها الذين من بينهم ابن عمه أحمد سالم بن الإمام الحاجيّ وأخوه السالك بن الإمام، والعلامة محمذن فال بن امباركي الشمشوي. كما أخذ عن العلامة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي، ولازمه زهاء اثنتين وعشرين سنة في «محظرته» في مدينة تجكجه، وكان من أبرز تلامذته[198].

أخذ ابن اطوير الجنة سند الطريقة الشاذلية عن الشيخ أبي عبدالله محمد بن عبدالله التوريني عن أبيه عبدالله التوريني عن سيدي أحمد بن محمد بن ناصر. ويبدو أنه بدأ التدرّج في مدارج الصوفية آخر سنتين قضاهما مع شيخه العلوي[199].

ولمّا نهل صاحبنا من شتى العلوم والمعارف؛ عاد إلى ودان وتأسّست حوله محظرة كانت وجهةً للطلاب من ودان وغيرها، وذاع صيته وانتشرت شهرته في البلاد.

وفي سنة 1245ه رحل ابن اطوير الجنة إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، فحج وقفل راجعا، ودوّن أحداث رحلته ومسارها ومحطاتها في كتابه المسمى «**رحلة المنى والمنة**». وقد ذكرت جلّ المصادر تاريخ عودته من الحج كما دوّنه هو في تاريخه حيث يقول: (وفي الموفي خمسين (1250ه) قدمنا محروسة وادان قبل رمضان بثلاثة أيام)[200].

197ـ المحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 104.

198ـ ابن أحمد سالم، م. س، ص: 25 وما بعدها، وسيدي ولد الزين، كتاب النسب في قبائل الزوايا والعرب، مخطوط بحوزتنا صورة منه. وابن حامد، الجزء الثقافي، م: س، ص: 93

199ـ ابن حامد، الجزء الثقافي، م. س، ص: 93، ولد أحمد سالم، م. س، ص: 27.

200ـ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 101، حوليات تيشيت، م. س، ص، 51، حوليات النعمة، م. س، ص: 16، حوليات ولاته، م. س، ص، 38.

وعلى الرغم من انشغال صاحبنا بتدريس العلم ونشره في محيطه وبين بني قومه وجلدته؛ إلا أن ذلك لم يثنه عن التأليف، حيث ألّف كتبا متنوعة المضامين من أهمها بالنسبة لنا:

- رسالة في الرد على الرسالة الغلاوية للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي
- رحلة المنى والمنة
- أنساب إيدوالحاج
- تأليف في التاريخ، وهو المشهور بـ «تاريخ ابن اطوير الجنة»[201].

ومما تقدم نلاحظ أن حياة ابن اطوير الجنة مرت بمراحل مختلفة، كان أولها في ودان حيث ولد ونشأ وتربى، وثانيها في تجكجه حيث أقام طلبا للعلم، وثالثها في ودان أيضا بعد أن ملأ وطابه علما من شيخه سيدي عبدالله المتقدم، ثم رحيله للحج ورجوعه منه. وقد أثرت هذه المراحل في حياة الرجل ونتاجه الفكري، وأسهمت في توسيع مداركه واطلاعه. وإذا نظرنا إلى مؤلفات ابن اطوير الجنة التاريخية وبخاصة تاريخه الذي اشتهر باسمه، نجد أن المؤلف كان واسع الاطلاع حصيفاً ومدققاً ذا وعي تاريخي متّقد.

II ـ النص: (تاريخ ابن اطوير الجنة)

1 ـ محتويات النص:

تاريخ ابن اطوير الجنة عبارة عن حوليات بدأها بذكر بعض الوفيات الخارجة عن السياق المحلي (وفاة عائشة رضي الله عنها، وخليل ابن إسحاق، ويوسف ابن تاشفين). وإذا تمعّنا في هذه البداية وتفحّصنا ما استهل به المؤلف كتابه من ذكر لفوائد الاعتناء بالتاريخ من المنظور الديني، ندرك مدى الترابط ما بين الأمرين، فضلا عن تبرك المؤلف بهذه الأعلام والرموز وتفاؤله بها. ولعل البداية الفعلية لتاريخ ابن اطوير الجنة تكون من عام 1070هـ، لأن الوفيات والأحداث المذكورة قبل هذه السنة لا تعدو كونها مدخلاً أو توطئة للموضوع، نظراً لعدم ارتباطها بشكل تام بموضوع التأليف، وإن اشتملت على ذكر لتواريخ تأسيس بعض المدن بما فيها «الشنقيطية» كـ (ودان، وشنقيط)[202].

وأول حادثة يسجّلها ابن اطوير الجنة في هذا التاريخ، هي وفاة الفقيه

201ـ ابن أحمد سالم، م. س، ص: 28، 29.

202ـ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 42، 43.

أعمر بن سيدي أعمر الشيخ الركادي، وانتقال ادوعلي «البيض» إلى تجكجه، ثم يسترسل بعد ذلك في الأحداث والوقائع حتى عام 1258هـ. وآخر حادثة سجّلها في هذا التاريخ هي بداية حرب كنتة وتجكانت[203].

ويكتسي تاريخ ابن اطوير الجنة أهمية كبيرة؛ نظراً لما حواه من أحداث ووقائع وإشارات تاريخية، منها ما نقله عن سابقيه، ومنها ما انفرد به هو. ولعل ذلك ما جعل ابن انبوجه العلوي ـ وهو ابن تلميذ ابن اطوير الجنة ـ يعتمد عليه في تاريخه، كما اعتمد عليه المختار بن حامد في موسوعته التاريخية. وقد أفضنا الحديث عن هذا النص ومضامينه ومصادره ضمن الفصل الرابع من هذه الدراسة.

203ـ نفسه، ص: 102.

خامساً: محمد صالح بن عبدالوهاب الناصري الولاتي (1152 ـ 1271هـ)

I ـ حياته ودراسته:

1 ـ المولد والنشأة:

هو محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي، ينتهي نسبه إلى ناصر بن مغفر بن أدي بن حسان[204]. وهو عالم ومؤرخ ونسابة مشهور، ترجم له المحجوبي في كتابه منح الرب الغفور فقال عنه: «كان رحمه الله تعالى عالما فقيها نبيها، له حظ كبير من فنون شتى؛ من فقه، ونحو، وحديث وغير ذلك (...) صدراً من صدور العلماء ومفخرا من مفاخر الفقهاء، قاضيا عدلا (...) شاعرا ناثرا، حسن الخط، جيد الفهم، ثاقب الذهن، حسن الخلق والخلق، حسن الدراية، ذا جد واجتهاد...»[205].

ولد صالح بمدينة ولاتة عام 1152هـ/ 1739م، وفيها نشأ وتربى، وكانت مهاجَر جده عبدالوهاب بن أعمر الذي كان أول من تاب[206] من بني حسان وفق ما قال حفيده صالح، حيث أنشد مفتخرا بذلك:

ونحن أقمنا للحجيج طريقه = ونحن سنَنّا توبةً للمغافر

ويقسّم الدارسون حياة الرجل إلى ثلاث مراحل؛ كانت الأولى منها مرحلة لهو وفراغ ولا مبالاة، والثانية والثالثة خصصهما لطلب العلم والتحصيل واكتساب المعارف والتصدّر فيها والقضاء والتأليف[207].

2 ـ دراسته:

درس صالح على العديد من علماء عصره ومصره وخارجه، وتصدر على أيديهم، من بينهم بوبه بن أحمد مولود والفقيه القصري بن محمد المختار الإديلبي وغيرهما. وقد جاب صالح مختلف مناطق البلاد من شرقيها إلى وسطها فشمالها، واختلف إلى العديد من علمائها كـ : سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم، وملأ وطابه علما، واطلع على بعض الأنساب التاريخ في مظانها، ثم قفل راجعا

204ـ انظر: إزيد بيه ولد محمد محمود وسيد أحمد ولد أحمد سالم، مقدمة تحقيق الحسوة، م. س، ص: 10، والحسوة، ص: 144.

205ـ المحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 114.

206ـ التوبة: ظاهرة دينية واجتماعية وسياسية عرفتها موريتانيا الأمس، وهي تعني تخلي "الحساني" عن حمله السلاح وهو ديدنه، والتفرغ للعلم والتعلم.

207ـ انظر: تقديم إزيد بيه لتحقيق الحسوة، وإن كان لا يرى أن المرحلة الأولى من حياة صالح كانت مرحلة لهو وفراغ. الحسوة، م. س، ص: 12 وما بعدها.

إلى «وطنه» الأول ومهاجَر جده ولاتة. كما كانت له حظوة وجاه عند أمراء البلاد وزعمائها، وذلك ما تكشف عنه رحلاته التي قام بها في مناطق مختلفة من البلاد، حيث كان يحلّ فيها ضيفا عليهم (في البراكنة، والترارزة، وآدرار). كما بعثه الأمير التروزي أعمر بن المختار «سفيرا يفاوض نيابة عنه أمراء النهر»[208].

ظل صالح مقيما بولاتة إلى أن انتقل مع ابن عمه أمير أولاد الناصر عثمان بن الحبيب إلى مضارب حي أولاد الناصر، حيث أقام بينهم قاضيا وحكما عدلا.

وتعتبر هذه المرحلة من حياة صالح ذات ميزة خاصة، انتشرت على غرارها شهرة الرجل وذاع صيته. وعلى الرغم من مشاغل صاحبنا العلمية والعملية من تدريس وقضاء، إلا أن ذلك لم يفتّ من عزيمته ولم يشغله عن التأليف والمشاركة في حقول مختلفة من المعارف والفنون، فألّف كتبا ونبذا وتقاييد عكست مكانته العلمية وزاده المعرفي العالي. ومن بين هذه المؤلفات:

- الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية
- أنساب صنهاجة
- كتاب الألقاب في الأنساب
- عطية الوهاب في تثبيت الأنساب
- نبذة في التاريخ
- كتاب الأعلام
- أسماء البلدان
- كتاب السير
- نظم الأوليات (في التاريخ)

وعلى الرغم من أن بعض هذه المؤلفات ما يزال مفقودا إلى حد الآن مثل «أنساب صنهاجه»، إلا أن بعضها الآخر الموجود مثل «**وفيات الأعيان ونبذة من تاريخ أعلام هذا الزمان**» و«**الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية**»، يشي بموسوعية عزّ نظيرها وحس تاريخي مرهف. ولعل ذلك ما دفعنا إلى انتخاب صالح ضمن النماذج المختارة في هذه الدراسة، حيث يمثّل النموج الفريد الذي يقدّم رؤية وتصورا مغايرا ـ إلى حد ما ـ عن المنطق «الزاويّ» الذي كان مهيمنا على تدوين التاريخ والمعارف والعلوم في البلاد[209].

208ـ نفسه، ص: 13 وما بعدها.

209ـ هناك كذلك العلامة محمد يحي الولاتي وهو مؤرخ مشهور حج ودوّن رحلته ومسارها ومحطاتها في كتابه الرحلة الحجازية، وله تأليف في التاريخ كما تقدم.

نشأ صالح وتربى في ولاتة التي كانت حاضرة علمية أشعّت بجهابذة علمائها وفطاحل فقهائها، وكانت وجهة يؤمّها كل طالب للعلم ويفيء إلى أفنانها ويرتوي من معينها الصافي. وقد أثّر هذا الواقع الذي أحاط بصاحبنا في ثقافته وزاده المعرفي الموسوعي، فكان عالما جهبذا، وقاضيا عادلا، ومؤرخا كبيرا، ونسّابة لا يجارى.

وحين نمعن النظر في التأليفين المنوه بهما أعلاه (النبذة والحسوة)، يتراءى لنا ذلك بوضوح، وبخاصة في كتابه الحسوة البيسانية. وقد تحدثنا عن **النبذة** المذكورة في الفصل الرابع من هذه الدراسة لذلك سنتجاوز ذكرها هنا تفاديا للتكرار.

II ـ النص: (الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية)

1 ـ محتويات النص:

سلك صالح في هذا النص منهجا مغايرا لما درج عليه علماء البلاد من قبله في تدوين الأنساب، مما ينمّ عن اتساع مدارك الرجل وطول باعه وكثرة اطلاعه وتميزّه على أقرانه ومعاصريه بما انفرد به في هذا الباب. وقد جاء تأليف هذه الموسوعة الأنسابية البديعة بطلب ـ كما هي عادة التآليف التي أشرنا إليها فيما تقدم ـ من ابن شيخه محمد المختار بن سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم؛ حيث يقول المؤلف: «.. هذه نبذة مما أعلمه من أنساب أولاد حسان جمعتها للسيد المشهور بالإحسان محمد المختار بن سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم حفظنا الله وإياه برعايته، ولحظنا وجميع المسلمين بعنايته.. آمين. وسميتها: الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية»[210].

ولّما تحدّث صالح عن دوافع تأليفه واسم مؤلَّفه، شرع في ذكر أصول قبائل بني حسان (موضوع التأليف) فقال: «ذلك أني وقفت على كتاب صحراوي في حاشية من نسخة من كتاب ابن خلدون وليست من الأصل فيها ما نصه: أولاد حسان خمسة: عبدالرحمن بن حسان جد الرحامنة، وأحمد المعروف بأُدَيّ بن حسان أبو المغافرة، ودليم بن حسان، وحمو بن حسان أبو البرابيش، ولم يذكر الكاتب الخامس، بل قال: فولد أُدي ثلاثة: عروك بن أدي ورزك بن أدي ومغفر بن أدي (...). ثم إني أذكر ما تلقيته من أفواه أكابر الرجال الثقاة، وذلك أني سمعت من الشيخ العالم الطالب عبدالله بن الحاج محمد الركيِّك العلوشي

210ـ صالح ابن عبدالوهاب، الحسوة، م. س، ص: 36، 37.

يذكر غير ما مرة أن خامس أولاد حسان المتقدم ذكرهم اعبيد اللّ بالحسانية وهو الجاري على الألسنة، وهو جد إديقب من قبائل تشمشه من زوايا المغرب الأقصى»[211]. أما سادس أبناء حسان ـ حسب ما ذكره صالح ـ فهو عمر حيث يقول: «... فعمر بن حسان على تقدير وجوده فهو سادس أولاد حسان، وعلى تقدير نفيه فخامسهم عبيد الله جد إديقب»[212].

وقد عرّف صالح من خلال هذه الموسوعة بأنساب قبائل بني حسان؛ سواء القاطنين منهم في أرض «الحوض» أو في آدرار والساقية الحمراء وغيرها، ذاكرا تفرعاتهم وأخبارهم ومواطنهم وتواريخ أيامهم وحروبهم وما وقع بينهم، وبيوتات الرئاسة فيهم، وأسماء رؤسائهم في القديم ومن كان منهم على عهد المؤلف، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ويضيق المقام عن عرضه وبسطه.

والقبائل المذكورة في الكتاب هي: (أولاد دليم، البرابيش، أولاد يونس بن عروك، أولاد داوود اعروك، أولاد رزك، المغافرة، أولاد امبارك، أولاد داوود امحمد، أولاد الناصر، الرميثات، أولاد يحى بن عثمان، الترارزه، البراكنة)».

ولم يقتصر صالح في هذه الموسوعة الأنسابية على محض الأنساب فقط، وإنما ذكر فيها الحروب والوقائع والأيام ـ كما تقدم ـ عارضا لها في مواضع كثيرة من موسوعته. ولعل ما يلفت الانتباه في تلك الوقائع أن بعضها لم يذكره صالح في نبذته التي استعرض فيها الكثير من الحروب والوقائع والأيام، رغم أنها وقعت قبل تدوينه للنبذة، ومن أهم هذه الوقائع حسب ورودها في النص: (كساري 1124هـ، وقعة أرطان 1203هـ، زركاكه 1233هـ، وقعة علب لكعب 1234هـ، وقعة ذيبه 1230هـ، وقعة تيط 1222هـ، وقعة آوليليك 1200هـ، يوم بونعوم 1232هـ..).

وتزخر الحسوة بالإشارات التاريخية الثمينة، والاستطرادات الكثيرة المتنوعة التي تمتزج فيها الأنساب بالأخبار والوفيات والتراجم المختصرة التي تعرض في سياقات مختلفة.

أما المنهج الذي اعتمده صالح في هذا الكتاب فهو يتطابق مع مناهج النسّابة القدامى من أمثال ابن حزم الأندلسي (ت: 440هـ) صاحب جمهرة أنساب العرب، وابن الكلبي (ت: 204هـ) صاحب جمهرة النسب؛ حيث سلك صاحبنا

211ـ نفسه، ص: 37، 38، 40.

212ـ نفسه، ص: 41.

نفس المسلك في الحديث عن القبائل وفروعها وأيامها وما إلى ذلك. ولعله اطلع على ذينك الكتابين أو أحدهما فأفاد منه منهجيا في ما كتب.

2 ـ مصادره:

اعتمد صالح في ما نقل في موسوعته على مصادر متنوعة رغم قلة المصرّح به منها:

ـ ورقات وردت في هامش تاريخ ابن خلدون المسمى «العبر»، ولم نتعرّف بعدُ على أصلها.

ـ كما اطلع صالح على مصادر أخرى مكتوبة، لكنه لم يحدّد عنوانها حيث يقول: «ورأيت بخط الحاج أبي بكر محمد بن الطالب صديق الجمّاني يعدّ آباءه فعدهم إلى عمر بن حسان»[213].

ـ كما استشهد ببيت من نظم لعبدالرحمن بن سيدي المختار العلوي الأرواني، يعتمد فيه التأريخ للوقائع بحساب الجمّل، وذلك مثل قوله في وقعة «كساري»:

في عام دَكْقَشٍ بشوال ألم = كساري، كسَّر عظام من ظلم[214]

ـ الشعر الحساني «الملحون»: وهذا اعتمد عليه في استشهاداته في ثلاثة مواطن، منها في معرض حديثه عن أبي بكر بن هنون الكوري بن اللب ـ «وكان من خيار المغافرة، قتله أولاد امبارك في يوم «جكم»، وهو المقول فيه:

يالسّايل عن أخيارْ لِعْربْ = وازينْهم دينْ وازْينْهم امْليكه

بوبكر ولد هنون ولد اللّب = ولد بوسيف ولد أوديكه

وكذا حديثه عن ديده «الذي قتله أخواله أولاد بوفايده، وقَتْلُه هو سبب وقعة كساري، وأطنبت أمه في النياحة عليه والتحريض على حرب قومها، تقول في ذلك:

راح الارماك اهظال = من تفكاد الفرَّاح

كيف ال ماج والى = وكتن ديده ما راح[215]

وقول البشير بن امعييف البركني في من مات من أهل «ابوبك بن آفشال» على يد اليتامى من البراكنه:

بهدل من خوف امر نظال = بن اعليَ لادِم كِتلوه

وأهل أبُوبَك ابن آفشّال = وأهل الهادي ديني كذفوه[216]

213ـ ابن عبدالوهاب، الحسوة، م. س، ص: 40.

214ـ تكرر الاستشهاد بهذا البيت في موضعين من الحسوة في ص: 89 و133.

215ـ نفسه، ص: 83، 89.

216ـ نفسه، ص: 125.

وأغلب مادة صالح مصدرها الرواية الشفوية، التي تلقاها ـ كما قال ـ «من أفواه أكابر الرجال الثقاة» عن طريق السماع، وتتردد هذه الروايات في مقدمة المؤلف؛ فأحيانا يكتفي بلفظ السماع «سمعت» فقط، وأحيانا يضيف إليه صفة الثقة، فيقول: «وسمعت من الثقة»[217]. وإذا كان الخبر فيه نوع من الغرابة والاضطراب، يذكره كما هو، تاركاً العهدة فيه على قائله، وذلك مثل قوله: «روى بعض نسابة أهل بلاد أقصى المغرب...». وعندما يكون موضوع النسب فيه خلاف ولم يترجّح فيه قول يردف المؤلف بعد ذكر رأيه بعبارة: «والله أعلم» أو بالقول المشهور: «الناس مصدقون في أنسابهم»[218].

وينضاف إلى تلك المصادر السابقة ما كان المؤلف معاصراً له أو شاهد عيان فيه، وهذا كثير مشاهد، وتدل عليه بعض الألفاظ التي استخدمها المؤلف والتي تحيل إلى الزمن، كقوله: «الآن»، و «في هذا العهد»، إلى غير ذلك من العبارات.

وقد كان صالح حصيف الرأي دقيق النقل يتحرى الصدق والصحة في ما ينقل، ولعل ذلك ما يتضح مما أسلفنا في ضوابطه في اعتماد الرواية التي كان ينقلها عن الثقات من علماء وأعيان عصره. وهذا ما أضفى على النص مصداقية كبيرة؛ حتى تلقاه الناس بالقبول، وكان من أهم مصادر المؤرخ الكبير المختار بن حامد عن قبائل بني حسان، بل إن ابن حامد لم يزد في ما ذكره عن أولاد امبارك وأولاد يونس على ما نقله صالح في موسوعته.

217ـ نفسه، ص: 40، 41.

218ـ نفسه، ص: 41.

الفصل الثالث

التدوين التاريخي خلال القرن 14هـ/20م

(تنوّع المادة وشموليتها)

أولاً: استمرارية الإنتاج القديم:

I ـ الأنساب والحوليات والمناقب:

حظيت مادة الأنساب بقسط وافر من اهتمام المؤرخين الموريتانيين خلال القرن الثاني عشر الهجري؛ فكانت الأغزر نتاجاً من بين أنماط المدونة التاريخية الأخرى، ولعل ذلك ما يدفعنا إلى القول بأن التدوين التاريخي في موريتانيا كان في بعض صوره وأشكاله وليد اهتمام القوم بعلم السير والأنساب الإسلاميين، فكان بالتالي وسيلة ولم يكن غاية[219]. لذلك لم تكن كتابات القوم خلال القرن الثاني عشر ـ رغم أهمية بعضها وانفراده ـ سوى إرهاصات أولى لنشأة تدوين تاريخي يحاكي نهج سابقه من المؤرخين المسلمين، ويماشيه في مضمونه ومنهجه. وهو في أحسن الأحوال يفتقر إلى المنهج الرصين وتتداخل مضامينه لدرجة يعسر معها التمييز بين الصميم واللصيق، والأُشابة والعريق، إلا بعد مقارنة النصوص ومقابلة بعضها ببعض. هذا فضلا عن كونه ظل حبيس المواضيع التقليدية حينا من الزمن كما تقدم، وظلت أغلب الإسهامات القديمة تتدرج ما بين تلك المواضيع ولم تراوح مكانها.

وقد عرف التدوين التاريخي خلال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلاي، طفرة عجيبة على مستوى كم المادة المدونة، لكن ذلك لم يرافقه تنوع في

219ـ محمد المختار ولد السعد، م. س، ص: 46.

المضمون أو تغيّر في المنهج والرؤية، وظلت المدونات التاريخية محصورة في نطاق الأنماط القديمة سالفة الذكر. وبرزت العديد من النصوص التاريخية التي نحا بعضها منحى موسوعيا تكاملت فيه بعض العناصر المنهجية والموضوعية، وأضفى على التدوين التاريخي سمة جديدة إطارُها التوسّع والشمولية في المواضيع المعروضة، وفي فترة مبكرة. ومن أبرز هذه النصوص: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، للطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي (ت: 1219هـ)، والطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي (ت: 1242هـ)، والحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية لصالح بن عبدالوهاب الناصري (ت1271هـ). وباستثناء هذه النصوص ظلت الإسهامات الأخرى حبيسة النمط الذي أشرنا إليه أعلاه، بل إن أغلبها ظل يسير بنفس الوتيرة، وامتد أثره إلى القرن الرابع عشر الهجري الذي عرف استمراريةً لتدوين القرن السابق، وبخاصة الحولية والأنسابية والمناقبية، مثال ذلك حوليات المدن التي توقف تدوينها مع مطالع القرن العشرين عندما بدأت البلاد ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي. كما ظهرت نصوص على شاكلة الأنماط السابقة، لكنها لم تضف جديداً ذا بال على مستوى المنهج والموضوع؛ من بينها: حوليات سيدي المختار بن الطالب بن حنكوش (ت: 1305هـ)، وحوليات محمد يحي الولاتي (ت: 1330هـ)، ومنح الرب الغفور للمحجوبي، وتاريخ ولاتة لأحمد بويا بن الطالب بوبكر المحجوبي (ت: 1326هـ)، وتاريخ أهل الشيخ ماء العينين لمؤلف مجهول، ونيل الأوطار في الغامض من الحروب والأخبار لعبدالودود بن انتَهاهْ السمسدى (ت: 1392هـ) وغيرها.

وتُضاف إلى هذه النصوص الحولية صنوتُها المنظومة، والتي ظهر أغلبها خلال القرن الرابع عشر، مثل نظم بابكر بن احجاب الديماني (ت1322 هـ)، ونظم المختار بن المحبوبي اليدالي (ت: 1391 هـ)، ونظم محمدو بن البرا الديماني (ت: 1363 هـ)، ونظم محمذن بن محمد فال الديماني (ت: 1386 هـ)، ونص عبد الوهاب بن حماه اليعقوبي، ونص محمد محمود الحسني، وتاريخ أحمد بن كدّاه الكمليلي، وتكملة أحمد سالم بن باكا (ت: 1401هـ) لنظم ابن البرا السابق. كما ظهرت كذلك نصوص أنسابية ومناقبية تحاكي النهج القديم وتماشيه، من بينها: إنارة المبهم والمظلم من أخبار أهل عبد المومن وأهل محمد مسلم لمحمدو بن أحمد الصغير التيشيتي المسلمي (ت: 1324هـ)، وساطع الإنارة في أخبار طلبة تيشيت وشرفائها

بأوضح عبارة لبويا حمدي ابن المختار بوعسرية، وذاتُ ألواحٍ ودُسُر لسيدي أحمد بن اسمُهُ (ت1392هـ)، وكتاب النسب في قبائل الزوايا والعرب لسيدي بن الزين، وإتحاف المبتغى في أخبار تندغا للشيخ عبدالله بن صلاح التندغي، وجوامع المهات في أمور الرقيبات لمحمد سالم بن عبدالحي، وغيرها كثير.

أما النصوص المناقبية فمن بينها: قرة عين ذي النظر السديد في إبراز مناقب علماء التجديد لمحمدو بن أحمد الصغير المسلمي (ت: 1324هـ)، الفتح المبين في ذكر مناقب الشيخ محمد فاضل بن مامين للمحجوبي (ت1335هـ)، وتحفة المسترشد في ذكر ما للدين من مجدد لعبدالله بن محمد الصغير بن انبوجه، وعيون الإصابة في مناقب محنض بابه لميلود بن المختار خَيْ، وغيرها.

ثانياً: استقلالية التأليف:

I ـ التراجم: (ظهور نماذج جديدة)

أما التراجم فقد كانت أكثر تميُّزاً عن غيرها من الأنماط السابقة، حيث دوّنت فيها نصوص ـ رغم علاّت بعضها ـ ذات قيمة تاريخية، واختلفت مضامينها باختلاف الدوافع والأسباب التي حفّزت أصحابها على تدوينها. ومن هذه النصوص: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي (ت1911)، وقد أشار ابن الأمين في مقدمة كتابه هذا إلى سبب تأليفه فقال: (ندبني من لا تسع مخالفته، ولا يحسن إلا ملاطفته، صديقي السيد محمد أمين الخانجي، أن أجمع له ما تسنى لي من شعر أهل بلدي، مما استقر في خَلَدي، لاستحسانه ما سمع مني معزوّاً إليه، فأجبته إلى ذلك الطلب)[220].

وقد عقد المؤلف في هذا الكتاب تراجمَ لتسعة وسبعين من علماء البلاد وأدبائها، موزعين على قبائلهم، أو ضمن باب الأفراد، وأضاف إليها ذيلاً تضمن (تاريخ مدة تلك البلاد وحدودها وحروبها وأصناف من يسكنها، إلى غير ذلك من عاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بهم)[221]. وقد سار ابن الأمين على سنن من كان قبله من المؤلفين الموريتانيين، ولم يخرج عن التقاليد التي اتبعوها في التأليف، وبخاصة التاريخي منه؛ حيث افتتح كتابه بذكر فوائد تدوين الآثار، وما يقتضيه من الاعتبار لأولي الأبصار، معتذراً لمن تطمح نفسه إلى أكثر مما جمع بقوله: (ولمّا لم يتقدمني في هذا من أستمد منه، ولم يكن في هذه البلاد من يمد إلي يد

220ـ ابن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، م. س، ص: 11.

221ـ المصدر السابق، ص: 12.

المساعدة، كنت حرياً بالمعذرة، ممن تطمح نفسه إلى أكثر مما جمعت)[222]. ثم إن الرجل على ما يبدو قد استُفِزّ من قبل بعض جلاّسه، وذلك ما يتضح من قوله: (وقد أخبرت بذلك بعض نبهاء مصر، فاستغرب ذلك، ظنا منه أن الآداب العربية لا يتصف بها غير الأقطار المشرقية، ولم يقل ذلك عن سوء نية، ولا خبث طوية، فحدتني الحمية العصبية، إلى نشر ذلك البزّ الدفين، لينشر في المغربين والمشرقين)[223].

ويتضّح مما تقدم أن ابن الأمين لم يعتمد في ما نقل على مصادر مكتوبة إلا النزر القليل من الشعر الذي أثبته في تتمات كتابه، ونقولا من «صحيحة النقل» لسيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم وتاج العروس للزبيدي وكتاب البغية للعربي بن السائح وغيرها، لكن السواد الأعظم مما دوّنه الرجل كان من حفظه وما استقر في خلده من تاريخ وثقافة بلده، كما صرّح هو بذلك في مقدمة كتابه. لذلك لم يسلم من بعض المآخذ والهفوات في ما أورده من معلومات تاريخية وجغرافية وأنسابية. وقد أشار إلى تلك المآخذ الدكتور محمد المختار ولد ابّاهْ في سياق تقديمه للطبعة الرابعة من الكتاب، ويمكن الرجوع إليها لمن أراد زيادة بيان، لأنها صارت بادية لا تخفى على أحد ولهجتها أقلام الباحثين كثيراً، فلا حاجة في تكرارها هنا[224].

وينبغي التنويه على أن المؤلف لم يكن غرضه من التأليف التاريخ وإن لامس بعض جوانبه سردا أو استطرادا في ثنايا الكتاب، بقدر ما كان يروم التعريف بآداب البلاد وأحوالها الاجتماعية وما إلى ذلك. ولعل ما يلفت الانتباه في هذا السياق هو قلة زاد المؤلف التاريخي رغم وجود رسائل وكتب ومؤلفات تاريخية في أوانه قبل اعتماله الرحلة إلى المشرق، وفي غضونها، وهذا ما يؤكد نظر الموريتانيين إلى التاريخ وعزوفهم عن الاهتمام به آنئذ إلا لماماً.

وفي سياق متّصل بالاهتمام بالتراجم (تراجم الأفراد)، ألّف المؤرخ هارون بن الشيخ سيديًا (ت: 1977م) كتابه الأخبار[225]، الذي خصّصه للترجمة لجده الشيخ

222ـ نفسه، ص: 11.

223ـ نفسه، ص: 11، 422.

224ـ نفسه، ص: 6 وما بعدها.

225ـ من المفترض أن يكون هذا النص متأخر الذكر نظرا لسياقه التاريخي، لكننا اعتمدنا هنا على التصنيف الذي أوردناه أعلاه لا على الفترة التي يعود إليها النص بالضرورة وإلا لكان نص بابه ومحمد فال الآتيان حريان بالتقديم زمنيا.

سيديّا الكبير وعرض سيرته المثلى وعلاقاته بالمحيط الاجتماعي الذي عاش فيه. وقد حوى هذا الكتاب بين دفتيه مادة تاريخية ثرية ومتنوعة، شملت بعض مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ونتفا متفرقة عن أنساب بعض القبائل والمجمـوعات. يقول المؤلف: «هذا كتاب جمعت فيه ما أمكن جمعه من أخبار القبائل الموريتانية والقبائل المجاورة لها، وجعلت أهم الروابط فيه بينها الرابطة الدينية، لأنها مصدر الروابط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولم أذكر فيه من الأنساب إلا ما طلب مني أهله إثباته، لأن من يتعرض للأنساب تعرض للسباب، وقد تقررت عند أهلها، فلا فائدة في ذكرها»[226]. وقد أشار هارون ـ في ملمح هام يدل على وعي الرجل وحسه التاريخي ـ إلى المنهج الذي اعتمده في تدوين الأخبار والوقائع فقال: (ولم أجعله كتاب تاريخ بالمعنى الاصطلاحي، لأن ذلك يحمل على ذكر ما لا داعية إلى ذكره في الحال)[227].

ويعتبر هذا النص ذا قيمة كبيرة، رغم محدودية سياقه، في الكشف عن أحداث ووقائع تاريخية ارتبطت بحياة الشيخ سيديّا الكبير ولم تكن معلومة عند الكثيرين. كما يضيء جوانب من التاريخ الثقافي والسياسي والاجتماعي لموريتانيا خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي.

ثالثاً: التطورات السياسية في موريتانيا وأثرها على التدوين التاريخي:

I ـ الاهتمام الفرنسي بتاريخ البلاد:

لقد كان القرن الرابع عشر الهجري في موريتانيا إيذاناً بتحوّل عميق في بنياتها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، حيث وقعت البلاد مع مطالع هذا القرن تحت نير الاستعمار الفرنسي، وذلك بموجب معاهدة الحماية التي تم توقيعها في إمارة الترارزة بين منظّر السياسية الاستعمارية الفرنسية اكزافي كبولاني[228] وبين أمير الترارزة لذلك العهد أحمد سالم ولد اعْلِ، سنة 1902، وبحضور كل من الشيخين الشيخ سعد بوه ولد الشيخ محمد فاضل[229] والشيخ سيديّا بابه ولد الشيخ سيديّا.

226ـ هارون ولد الشيخ سيدي بابه، **كتاب الأخبار**، م. س،ص 10.

227ـ نفسه، ص: 10

228ـ كزافي كبولاني: إداري فرنسي ومنظر السياسة الاستعمارية الفرنسية في البلاد، اغتيل سنة 1905 على يد سيدي ولد مولاي الزين وبعض معاونيه.

229ـ الشيخ سعد بوه: هو الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين، أحد علماء البلاد وأعيانها، أشتهر بموقفه المساند الاستعمار مع ضريبه سيدي بابه، وتوفي 1917.

وقد سعى الفرنسيون في خطوة أولى إلى جمع وتدوين الكثير من المعلومات التاريخية بهدف معرفة ماضي البلاد وتاريخها ومكوناتها[230]. وقد برز في هذا المجال بعض الإدرايين الفرنسيين الذين تفرغوا ـ إلى حد ما ـ لهذه الغاية. وكان من أوائل هؤلاء اكزافي كبولاني سابق الذكر، حيث رحل إلى السودان الفرنسي عام 1898م، وجاب مختلف المناطق الشرقية الموريتانية، والتقى في طريقه قافلاً بعض الزعامات الدينية في منطقة الجنوب الغربي الموريتاني. وقد كتب كبولاني تقريراً ضمّنه كل المعلومات التي استقاها في رحلته تلك من بعض الشخصيات التي اجتمع بها، فضلا عن مشاهداته، وهو التقرير الذي كان فيما بعد أساسا للمشروع الاستعماري الفرنسي في موريتانيا[231]. كما عكف الإداري الفرنسي بول مارتي Paul MARTY على جمع قدر كبير من المعلومات عن المجتمع "البيضاني" وقبائله وأعراقه وثقافته وماضيه بشكل عام، ومن جملة كتاباته: «كنتة الشرقيون»، «البرابيش»، «القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني وقصة احتلال فرنسا للمنطقة»[232]. على أن دراساته هذه تفتقر إلى الكثير من الدقة والتمحيص، خاصة إذا ما صرنا إلى ما كتبه مارتي عن أنساب القبائل الموريتانية وفروعها[233]، فضلا عما تطفح به تلك الكتابات من أحكام تعبرّ عن مدى سيطرة النزعة الاستعمارية على هذا الكاتب ـ كما هو حال غيره من دعاة الاستعمار ومنظريه ـ ورغم ذلك فلا تخلو كتابات مارتي بشكل عام من بعض المعلومات الهامة، خاصة فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد

230ـ عني الفرنسيون خلال القرن التاسع عشر بجمع العديد من المعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والثقافية عن المجتمع الموريتاني بغية الاطلاع على أحواله والتعرّف إلى مختلف أوضاعه لمعرفة المداخل التي يمكن أن ينفذوا منها إليه ويتحكموا من خلالها فيه. وقد سيّروا لهذا الغرض العديد من الرحالة الاستكشافيين الذين جابوا البلاد شرقا وغربا وجمعوا معلومات عن المجتمع "البيضاني" ودوّنوها ضمن تقارير رحلاتهم تلك. للمزيد انظر: الخليل النحوي، م. س، ص: 325 وما بعدها، ومحمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر "قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية"، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001، 134 وما بعدها.

231ـ ورد التقرير المذكور تحت عنوان: (LA MAURITANIE OCCIDANTALE. انظر: محمد المختار بن سيدي محمد، النضال الوطني في موريتانيا من 1903 ـ 1960، «أطروحة ماجستير»، جامعة بغداد، 1997، ص: 40، إزيدبيه بن محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، المطبعة الوطنية، 2001، ص: 166 وما بعدها.

232ـ ترجم هذه الأعمال البحاثة محمد محمود ولد ودادي. ولبول مارتي أعمال أخرى من بينها:

l'Emirat، Paris: E. Leroux، 1921، Etudes sur l›islam et les tribus maures: les Brakna_ 1920.،du Trarza

233ـ انظر: ما كتبه محمد محمود بن ودادي في مقدمات الأعمال المنوه بها أعلاه وبخاصة القبائل البيضانية.

ونحلة العيش وبعض التفاصيل الهامة التي نفتقدها كثيرا في الكتابات المحلية. كما تبع مارتي في اهتمامه ذلك لفيف من الباحثين والإداريين الفرنسيين الذين أفاضوا من حيث أفاض، لكن سياقنا لا يتسع لاستعراض كل الإسهامات الفرنسية لأنها خارجة عن شرطنا في هذه الدراسة. وحسبنا أن أشرنا إلى ذلك النموذج، نظراً لارتباطه بما نرمي إليه. ولم تكتف الإدارة الفرنسية بتسخير إدارييها لجمع شتات تاريخ موريتانيا وتراثها لحاجة في نفسها، وإنما انصب اهتمامها كذلك على استكتاب نصوص تاريخية وجغرافية من لدن شخصيات وازنة في المجتمع الموريتاني. وفي هذا السياق يتنزل كتاب امحمد بن أحمد يوره الديماني (ت: 1340هـ) الموسوم بـ «**إخبار الأحبار بأخبار الآبار**»، الذي ألّفه بطلب من الفرنسي كادين، حيث يقول: (.. أمرني من لا يسعني إلا مساعفته ومساعدته، ولا تليق بي مخالفته ومباعدته، من شدة محبته إليّ، ووجوب طاعته عليّ، السيّد المقدّم كماند كادين..)[234]. كما ألف الشيخ سيديّا بابه ولد الشيخ سيديّا رسالته في **تاريخ إمارتي إدوعيش ومشظوف** استجابةً لطلب حاكم منطقة بوتلميت آنذاك الكابتن Qarare. وقد أشار سيديا بابه إلى ذلك في مقدمة رسالته تلك بقوله: (... ثم لما كان عام ثلاثين من القرن المذكور تكلم الأمير الفاضل الأديب كابتن كرار في ذلك، فقلت له كما قلت لمن قبله، فرضي بما تيسر واقتنع بما حضر)[235].

وفي حمى هذا الاهتمام كذلك عكف الفرنسيون على ترجمة نصوص التاريخ الموريتاني ونشرها ضمن أعمالهم عن تاريخ المجتمع «البيضاني»[236].

ومهما يكن، فإن هذا الحدث الاستعماري المجلجل قد مثّل عاملاً هاماً لتجدّد الوعي التاريخي وإذكاء جذوته لدى نخب البلاد العالمة، حيث حمل التدوين في طياته خلال هذه الفترة إجابات صريحة عن السؤال القديم الجديد الذي ظل يراود الاستعمار منذ الوهلة الأولى حول أصول سكّان البلاد وتاريخهم.

II ـ تجدّد الوعي التاريخي:

أدّت التطورات التي عرفتها البلاد بعد خضوعها للسيطرة الاستعمارية وما صاحب ذلك من أحداث، إلى إذكاء جذوة الوعي التاريخي المتجذّر أصلاً لدى نخب البلاد «المثقفة» ـ كما تقدم ـ وقد ساهم ذلك في بروز نمط جديد

234ـ امحمد بن محمد يوره، إخبار الأحبار بأخبار الآبار، م. س، ص: 24.

235ـ سيدي بن السيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشظوف، م. س، ص: 95.

236ـ انظر: ما ذكرناه ضمن الفصل الرابع عن الحوليات التاريخية.

من التدوين التاريخي تمثّل في الأخبار والقصص التي تمثّل مادة تاريخ إمارتي إدوعيش ومشظوف وتكملته. ولجلاء الصورة أكثر سنقوم فيما يلي بإبراز مضامين ذينك النصين ومصادرهما، بدءاً بالتعريف بمؤلفيهما.

1 ـ **إمارتا إدوعيش ومشظوف لسيديّا بابه بن الشيخ** سيديّا (ت: 1342هـ) وهو عالم وسياسي ومؤرخ بارز، سليل أسرة علمية معروفة، له تآليف كثيرة من أهمها بالنسبة لنا نبذته هذه وتاريخ دخول المرابطين لبلاد شنقيط.

أ ـ محتويات النص:

بدأ المؤلف كتابه بذكر فوائد معرفة التاريخ وما يتّصل بذلك من المقاصد الشرعية، ولخّصها في قوله: (.. أما بعد فإنه لا يخفى على العاقل اللبيب، والعالم الفاضل الأديب، ما اشتملت عليه كتب فن التاريخ من المسائل العلمية التي لا تكاد توجد في كتب سائر الفنون، ومن الحكم والآداب التي لا تحصل من غيرها والحديث شجون، والأخبار عن أمور تتكشف بها أحكام شرعية لنظار العلماء، وآراء سديدة لأفاضل العقلاء، ومكارم مستحسنة يجعلها نصب عينيه من يستمع القول فيتبع أحسنه، وحكايات تديرها الفضلاء في الأسمار ليالي الأقمار وفي نسمات الأسحار ونفحات الأزهار الدخول إلى الموعظة والاعتبار من كل باب، بالنظر في قصص تلك القرون لأولي الألباب، كما قال قس بن ساعدة، ملاحظاً لتلك الفائدة:

في الذاهبين الأوليـــــــ ** ـن مــن القـرون لنا بصائرْ
لمّــا رأيت مــواردا ** للمـوت ليس لهــا مصادرْ
ورأيت قومــي نحوهــا ** يمضــي الأكابـرُ والأصـاغرْ
أيقنــت أنـــي لا محا ** لة حيث صار القوم صائر[237]

ثم شرع بعد ذلك في الحديث عن ندرة المصادر التاريخية على نحو ما سنوضّحه في حينه، عارضا لما اعتمد عليه منها ودوافـع تأليفه للكتاب، وموضوعه، وهو الطائفتان اللتان كانتا تتقاسمان السلطة في موريتانيا غداة مجيء الاستعمار، مركزا في ذلك على الطائفة الأولى الصنهاجية والمتمثلة في إمارتي إدوعيش ومشظوف[238]. وقد حاول سيديا بابه في ما يمكن اعتباره مدخلا مفاهيميا مناقشة مدلول كلمة صنهاجة وأصول المنتسبين إليها، مستظهرا في ذلك بابن خلدون والناصري وغيرهما. كما أفاض في الحديث عن الممالك السودانية

237ـ سيدي بابه ولد الشيخ سيدي، **إمارتا ادوعيش ومشظوف**، م. س، ص: 86 وما بعدها.
238ـ نفسه، ص: 95.

وأسلمتها وعلاقتها بتاريخ البلاد[239]. ثم خلص بعد ذلك إلى الحديث عن إدوعيش ومواطنهم الأولى، بقوله: (واشتهر أن إدوعيش وسائر الصنهاجيين في هذه البلاد الصحراوية، آدرار وتكانت وأرض الترارزة وأرض البراكنة وما يتصل بها، كلهم من جيش أبي بكر بن عمر اللمتوني)[240]، ومواطنهم (منذ قرون أرض تكانت وما يليها من جميع جهاتها). عارضاً لأهم أمراء هذه الإمارة، والذين من بينهم امحمد بن محمد شين وأخوه المختار وحفيده بكار ولد اسويد أحمد. كما استعرض المؤلف انقسام الإمارة الإعيشية بعد وفاة امحمد بن محمد شين إلى قسمين قسم بقيادة ابنه اسويد أحمد وإخوته وشيعته، يدعى "أبَكاكْ"، وقسم بقيادة عمه المختار وإخوته وشيعتهم، يدعى "اشْراتيت".

كما تحدث كذلك عن حروب الإمارة الإعيشية قبل انقسامها[241] وبعده، مع المغافرة وغيرهم، وبخاصة على عهد بكار ولد اسويد أحمد[242]. ثم شرع بعد ذلك في الحديث عن أصل مشظوف ومواطنهم الأولى وسياق رحلتهم إلى الحوض (ومن صنهاجة أيضا مشظوف اسم جد مسوفة (...) وكانت مواطن مشظوف تكانت وما يواليها، حتى أجلاهم منها ما كان ينالهم من إدوعيش من أنواع الأذى مع اقتضاء الإتاوات، فارتحلوا إلى أرض الحوض في زمان إمارة بكار بن اسويد أحمد في القرن الثالث عشر (الهجري) بمجرد احتلالهم الحوض أورثهم الله تبارك وتعالى الذي بيده الملك يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ملك أولاد امبارك في تلك الناحية كلها، وغلبوا على من كان فيها من الناس؛ فاستولوا عليه مثل: أولاد محمد ومن معهم، مثل الأغلال، وكان ذلك بعد حروب عظيمة منها يوم أفاره على أولاد محمد ومن معهم، ومنها يوم آنبيز على الأغلال)[243]. كما ذكر ما وقع بينهم مع الحاج عمر الفوتي عند "تاغطافت"، وكذا أولاد الناصر و"اشراتيت" وبخاصة في يوم "غرجوجة"[244]، لكنه لم يفصّل القول في هذه الإمارة بحجم عنوانه، بل لم يزد على ما ذُكر إلا لماماً. واستطرد بعد ذلك في ذكر مفهوم الزوايا ومدلولاته

239ـ نفسه، ص: 96 وما بعدها.

240ـ نفسه، ص: 111.

241ـ من أهم الوقائع التي ذكرها المؤلف خلال هذه الفترة حصار "الحنيكات" انظر: ص: 125.

242ـ نفسه، ص: 152 وما بعدها.

243ـ نفسه، ص: 160، 162، 163.

244ـ نفسه، ص: 164، 165.

وأنساب القبائل (إدَوَالحاج، إدوعلي، الأغلال، كنتة...)[245]، والحروب التي دارت بين الزوايا (المجلس وتندغه، تجكانت فيما بينهم بتنيكي، تجكانت والأغلال، أولاد ابيري وتندغه، ادغزينب وتكنانت، كنتة وتجكانت، كنتة وإدوالحاج، اجيجبه وأولاد ابيري. وأعرض عن التفصيل في ذكر حرب شرببه وغيرها لأنه قد تكفل بها علماء أبناء ديمان.[246] وقد عقب سيدي بابه على هذه الحروب بقوله: (والسبب في الحروب الواقعة بين الزوايا قديما وحديثا سيبة البلاد وعدم اعتناء من فيها من أهل الشوكة وغيرهم باتباع القرآن المجيد).[247] وربما ساق المؤلف كل هذه الحروب وأورد كل تلك الوقائع من أجل تبرير موقفه من الاستعمار وذلك ما عبّر عنه الرجل في مواطن كثيره وختم به كتابه[248].

ولئن أمعنا النظر في هذا النص وموضوعه فإننا نجد أن المؤلف لم يستعرض إلا النزر القليل من تاريخ إمارتي إدوعيش ومشظوف، بل إن هذه الأخيرة لم تحظ إلا بعرض بسيط لبداياتها فقط. بينما راح المؤلف بعد ذلك في سبح طويل خاض فيه في أنساب القبائل واستعرض ـ كما تقدم ـ حروب الزوايا وفسّر سبب وقوعها وعزاه إلى الفراغ السياسي الذي عرفته البلاد قبل مجيء الاستعمار وما رافقه من سلب ونهب. ولعل عزاء صاحبنا في ما أورد من معلومات قليلة عن موضوعه، هو شح مصادره وندرتها وضنها بشاف عن الموضوع. لكن ما يميز المؤلف في هذا النص هو وقوفه عند المصطلحات والمفاهيم، وضبطها وتفسيرها، واستغلال ذلك التفسير في ما يريد المؤلف أن يصل إليه[249]. ينضاف إلى ذلك ذاتية المؤلف التي ظلت مخيمة على النص وصاحبته في عرضه واقتضابه، وأبانت عن مواقفه حيال بعض الأحداث المعروضة والشخصيات التي تحدث عنها، والتي غالبا ما يضفي عليها صفة تميزها عن غيرها[250]. ولعل ما أسلفناه يدفعنا إلى التساؤل عن مصادر المؤلف في ما نقل، فما هي تلك المصادر؟ وما علاقتها بالموضوع؟

245ـ نفسه، ص: 170، 174، 177، 185، 186، 187، 189 وما بعدها.

246ـ نفسه، ص: 216، 220، 222، 226، 227.

247ـ نفسه، 228.

248ـ نفسه، ص: 230، 231.

249ـ انظر: مثالًا على ذلك حديث المؤلف عن أصل صنهاجة، ص: 98 وما بعدها.

250ـ انظر: مثالًا على ذلك من الأحداث حديث المؤلف عن مجيء الاستعمار، ص: 230، 231. وعن الشخصيات انظر: حديثه عن امحمد بن محمد شين الذي وصفه بأنه (من أفضل شيوخ العرب وأعدلهم وأعظمهم ملكا وأشدهم صولة). ص: 126.

ب ـ مصادره وأهميته التاريخية:

لقد استهل سيديا بابه تاريخه ذلك بامتعاض شديد من عزوف أبناء بلده عن تدوين التاريخ وكتابة أحداثه ووقائعه في كتاب جامع معتبر؛ حيث يقول: (.. وكنت أتعجب من علماء هذه البلاد البيضانية الصحراوية المغربية وأدبائها على فضلهم ونبلهم، كيف لم يعتنوا بتاريخها في كتاب معتبر من أول الزمان، مع كثرة ما وقع فيها من الأمور الكبار التي ينبغي الاعتناء بكتابتها، وكثرة من كان بها من الأكابر من كل صنف، الذين لا ينبغي أن تترك أخبارهم نسياً منسيّاً على جلالتها..)[251]. لكن هذا القول قد لا يكون مستساغاً أو مقبولًا إذا نظرنا إلى ما أسلفنا ذكره من نصوص تاريخية رغم علاّت بعضها إلا أنها في مجملها تقدّم صورة عن تاريخ البلاد على مدى أربعة قرون من الزمان، لكن عذر المؤلف فيما ذكر يبدو عدم اطلاعه ـ لسبب أو لآخر ـ على تلك النصوص، مما أدى به إلى القول: (... ولو وجدت فيها كتابا في ذلك لاعتمدت عليه، ولقيّدت منه ما يشار بالأصابع إليه)[252]. ومع ذلك فقد اعتمد المؤلف على بعض المصادر الخارجية التي اهتمت بالمحاور التي ناقشها في مقدمة كتابه، قبل أن يلخص إلى الحديث عن موضوعه الرئيس. وهذه المصادر هي: تاريخ ابن خلدون، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي، والمسالك والممالك للبكري، والحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول، وسيرة ابن هشام، وتاريخ السودان للسعدي. كما اعتمد على بعض الكتب اللغوية والدينية مثل تاج العروس للزبيدي، ويسر الناظرين ونيل النجاح ورشد الغافل وكلها لسيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم... إلخ

أما المصادر المحلية ذات العلاقة بالموضوع، فأغلبها عبارة عن روايات شفوية استقاها المؤلف من بعض معاصريه، أو من ثقات عاصروا من نقلوا عنه، أو ما كان شائعا في زمانه كما في قوله (.. مع السماع الفاشي بذلك)، (وقد اشتهر عند أهل تكانت... واشتهر أن إدوعيش..)[253]. كما اعتمد سيديا بابه كذلك على مصادر مكتوبة ـ رغم قلتها ـ كشيم الزوايا لليدالي، والرسالة الغلاوية والطرائف والتلائد

251ـ نفسه، ص: 90.

252ـ نفسه، ص: 76.

253ـ نفسه، ص110، 111، 112، 113.

وكلاهما للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، والوسيط في تراجم أدباء شنقيط لابن الأمين العلوي، وبعض الوثائق الفرنسية المتعلقة بالأنساب، كما يفهم من قوله: (وبعد كَتْبي لهذا رأيت في بعض التقاييد التي كتبها الفرنساويون أن مسومة من لمتونة وأنهم أصل تجكانت وإدولحاج، فجدهما أمسم جد مسومة)[254]. ويكثر استشهاد المؤلف بالشعر فصيحا كان أو عاميا ضمن استطراداته الكثيرة.

ولئن كانت معلومات المؤلف التي أوردها عن الطائفة الأولى (الصنهاجية) قليلة، فإن الطائفة الثانية (العربية) لم تحظَ إلا بجملة واحدة وردت آخر النص يقول فيها صاحبنا: (وأما الطائفة الثانية من أهل المملكة والشوكة في هذه البلاد وهم المغافرة ..)[255]. ويبدو أن المنية قد اخترمته قبل أن يتعرّض لتاريخ هذه الطائفة، مما دفع صديقه ـ بطلب من ابن المؤلف ـ إلى وضع تكملة لهذا النص.

2ـ **التكملة في تاريخ إمارتي البراكنة والترارزة** لمحمد فال بن بابه (ت: 1349هـ)، وهو عالم متصوف ومؤرخ مشارك له العديد من التقاييد؛ من أهمها فيما يعنينا تكملته هذه.

أ ـ محتويات النص:

بدأ صاحبنا تكملته من حيث انتهى سلفه، وشرع في تحديد موضوعه بقوله: (.. وأما الطائفة الثانية من أهل المملكة والشوكة في هذه البلاد وهم المغافرة)[256]، ثم قدّم مخططاً للقبائل الحسَّانية وتفرعاتها، وبخاصة المغافرة (فمنهم الترارزة وملوكهم اليوم محمد لحبيب بن أعمر بن المختار بن الشرقي بن اعلي شنظورة بن هدّي بن أحمد بن دامان بن عزوز بن مسعود بن موسى بن تروز* بن عمران* (...)، ومن بني عمران داود بن عمران جد أولاد بورده وأولاد علوش (...)، وأبو عمران عثمان وهو الذي يجتمعون فيه مع أولاد يحي بن عثمان، وعثمان بن مغفر بن أُدَيّ بن حسَّان (...)، ومن بني أُدي بن حسان بلّه بن داود وإخوته بوفايده وطلحة ونخله ومنصور. (...)، ومن بني أُديّ أولاد زين، وأولاد ممّو، وأولاد يونس، وألاد يطّه، وأولاد زعيم، ولكشارات، ورزك، وأولاد مزّوك، وأولاد عايد، والجعافره، والسّكاكنه، وياسين، ورحمون...)[257].

254ـ نفسه، ص: 162.

255ـ نفسه، ص: 234.

256ـ نفسه، ص: 22.

* ـ ترّوز بن هداج وهو الذي يجتمع فيه الترارزة والبراكنة وهما أبناء الزناقية. المصدر نفسه، ص: 23.

* ـ عمران وهو الجد الجامع للسابقين مع أولاد امبارك وأولاد الناصر وهما أبناء العربية. نفسه، ص: 23، 24.

257ـ نفسه، ص: 22، 24، 25، 26.

ثم شرع المؤلف بعد ذلك في الحديث عن إمارة البراكنة فذكر أمراءها الأُوَل وصراعاتها الداخلية بين مجموعاتها الطامحة للسلطة (أولاد نغماش وأولاد السيد بن امحمد) والوقائع التي حدثت بينهم (وقعة بجنكل 1251هـ) وكذا الصراعات التي حدثت ما بين العصبيات الخاصة على مستوى أهل «آغريشي» والتي أفضت إلى انتقال السلطة من أهل سيدي اعلي إلى أهل سيدي والوقائع التي جرت بينهم في خضم ذلك (يوم انفني العرش، يوم الفرع، يوم آنكنتان)[258]. قبل أن يستعيد سيدي اعلي حكم الإمارة بعد قتله امحمَّد بن سيدي غدراً عام 1275هـ. وقد كانت لسيدي اعلي أيام مع أولاد نغماش وأولاد أحمد، منها يوما «فيدفد» و«الخير فيه»[259].

ولما انتهى من ذكر البراكنة بدأ بأوَّلية إمارة الترارزة، ذاكراً ـ على عادته ـ أوائل أمرائها ووقائعهم مع جيرانهم، ومن مات من العلماء والأعيان خلال مدتهم، وبدأ بأحمد بن دامان (ت: 1045هـ) وهو أول أمير تروزي معروف، لعب دورا سياسيا وعسكريا في منطقة «القبلة» من خلال صراعاته مع أوديك الأقرع الامباركي وسيدي إبراهيم لعروسي وانتصاره في معركة انتيتام على أولاد رزك 1040هـ، ثم ابنه هدّي (ت: 1095هـ) الذي كان من قواد الحرب التي اندلعت بين المغافرة والزوايا (حرب شرببه). وتولى بعده ابنه أعمر آكْجَيّل (ت: 1114هـ) وخلفه أخوه اعلي شنظوره (ت: 1139هـ)، الذي وقعت بينه وبين البراكنة حروب عظيمة رحل من أجلها إلى المغرب صحبة صديقه العلامة ابن رازكة العلوي. وتولى بعده أخوه الشرقي[260] ثلاث سنين، وبعد الشرقي تولى أعمر ولد اعلي شنظورة (1170هـ)، ثم المختار ولد اعمر (ت: 1185هـ) وبعده أخوه اعلي الكوري (ت: 1200هـ) ووقعت له حروب شديدة مع البراكنة، من أيامها: يوم كراع ابن العيمار، يوم المرفك 1190هـ، ووقعة دامان 1198هـ)، وبعده تولى امحمَّد (الجواد) بن المختار بن اعلي (ت: 1208هـ)، وبعده أخوه عاليت (ت: 1209هـ)، ثم بعده أخوه أعمر (ت: 1215هـ) وبعد أعمر مات كبراء أهل أعمر بن اعلي فأفضت الإمارة إلى أعمر بن المختار[261]، الذي وقعت خلال عهده حروب بين المجموعات الترّوزية، من بينها: يوم التمركاي 1223هـ، أغْبُسّيتْ 1224هـ، وقعة انبيم 1225هـ، والتمر كاي

258ـ نفسه، ص: 27، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 34

259ـ نفسه، ص: 35.

260ـ انفرد به المؤلف ولم يرد عند ابن حامد ولا مارتي في كتابه إمارة الترارزة.

261ـ التكملة، ص: 49.

الأخيرة 1232هـ، أفجار، وأبَّاخ 1232هـ وهو يوم دارت فيه الدائرة على جيش أعمر بن المختار)، وولي بعد أعمر بن المختار ابنه محمد لحبيب[262].

وقد حظي هذا الأمير بذكر محمود وإطراء كبير من لدن المؤلف؛ حيث وصفه بقوله: (وكان من أهل الخير يبجّل العلماء ويعفّ عن أموال المسلمين)[263]. ذاكرا واقع الإمارة على عهده وما عرفته من صراعات بين مجموعاتها، وحروبه مع أخيه و«خندوسه»[264] وآدرار، ثم صلحه مع خندوسه، وحربه مع الفرنسيين (عام 1272هـ) وصلحه معهم في عام 1274هـ، انتهاءً بغَدرته على يد أبناء إخوته عام 1277هـ[265].

وتولى بعده ابنه سيدي الذي حظي هو الآخر بقسط من المدح؛ حيث قال عنه المؤلف إنه (كان من كبراء الأمراء يحب العلماء ويبجلهم ولا سيما أهل الورع، يسأل عن النوازل الواقعة، ويتناظر العلماء بين يديه، وتنظر الكتب حتى يظهر له الصواب ويفهم، تكثر الزوايا - ولا سيما العلماء - بمجلسه، يسير بنفسه في موكبه لدفع الظلم عن مسلم خاص، وتكون «الفتنة» بين قوم فيسير إليهم بنفسه (...) ويصلح بينهم (...) وكان حسن السياسة لم يحارب في جميع مدة ولايته)[266]. لذلك خفت وطأة الصراعات والحروب على عهده، بل إنه كان يعمل على فض النزاعات والحروب التي كانت تحدث بين الزوايا ناقدا على أبيه وقوع بعض حربهم في زمنه[267]. ومن الأحداث التي جرت على عهد سيدي: «داء البقر الذي يكون في الرئة؛ فافتقر كثير من الناس ممن كان ماله البقر، وهو عام الذريره الشديد الشدة على أهل الساحل»[268]. وفي عام 1285هـ «وقع مرض الهيضة المسمى عند الأطباء بالهواء الأصفر، مات به كثير من الناس، وأمره هول هائل قد يقتل في ساعتين»[269]. وبعد غدرة سيدي على يد أخيه أحمد سالم وإخوته من أبيه، دخلت الإمارة مرة أخرى في دوامة من الصراعات والحروب، فدارت بين اعلي بن محمد لحبيب وأخيه قاتل سيدي حروب من أهم وقائعها الملحمة

262ـ نفسه، ص: 50، 51، 52، 53، 54، 55.

263ـ نفسه، ص: 57.

264ـ تحالف من أولاد أحمد بن دامان متألف من أهل التونسي وأهل الشرقي بن هدي.

265ـ نفسه، ص: 57 وما بعدها.

266ـ نفسه، ص: 65، 66.

267ـ نفسه، ص: 65.

268ـ نفسه، ص: 66.

269ـ نفسه، ص: 68.

التي حدثت عند «ملزم الزريبه. ولم تستقر الأوضاع حتى بعد مقتل أحمد سالم 1290هـ، حيث ظل إخوته يثورون بين الفينة والأخرى[270]. ودارت بين اعلي (ت: 1303هـ) حرب مع أهل يحي بن عثمان واغتيل على يد جماعة أهل أحمد بن دامان برئاسة أحمد بن سيدي بن محمد لحبيب، فانتفض أخوه أعمر سالم (ت: 1311هـ) الذي كانت أيامه أيام أمن وعافية، رغم ما تخللها من وقائع مع أبناء سيدي، إلى أن حاربه أحمد سالم بن اعلي الذي دخل في صراع بعدما انتصر على السابق مع أبناء سيدي ودارت بينهم حروب ووقائع من أهمها (الشويطرة: 1320هـ) وظل الصراع قائما بين الطرفين إلى أن اصطلحوا[271].

وختم المؤلف نصه بذكر عابر لإمارة أولاد امبارك، لم يزد فيه على ما ذكره اليدالي عن مجيء أوديكه الأقرع لتشمشه يطلب المغرم، إلا قليلا تضمن حربهم مع الحاج عمر الفوتي ونهاية ملكم[272].

وبالنظر إلى ما تقدم؛ يمكننا القول إن المؤلف ألقى أضواء هامة على نشأة وتكوين إمارتي البراكنة والترارزة[273] خلال القرن الحادي عشر الهجري، وأطوارهما الأولى متبعا في ذلك النمط السردي للوقائع والوفيات. كما استعرض ابنُ بابه معلومات عن الانقسامات والصراعات الداخلية في كل إمارة وحروبها فيما بينها أو بين الإمارات المجاورة، ثم علاقاتها مع الفرنسيين الذين كانوا وقتها قد استقروا في السينغال، قبل أن تتجه أنظارهم إلى استعمار البلاد.

ولئن كان المؤلف قدّم صورة عما كان عليه الوضع في الجنوب الموريتاني، وحالة الصراعات والاغتيالات التي كانت سمة غالبة على تاريخ الإمارات الموريتانية السياسي، وظاهرة استفحلت وتعاظم خطرها خلال القرن التاسع الميلادي وبخاصة في إمارة الترارزة. إلا أن ثمة أموراً قد لا تقل أهمية في فهم سياق النشأة تلك أغفلها صاحبنا؛ منها حدود كل إمارة ومجال انتجاعها وانتشارها ونظامها الداخلي وما إلى ذلك. وقد ركّز المؤلف بشكل لافت على إمارة الترارزة التي حظيت بالقسط الأوفر من اهتمامه، ثم البراكنة التي تأتي في الدرجة الثانية

270ـ نفسه، ص: 68، 69، 70، 71، 72.

271ـ نفسه، ص: 72 وما بعدها.

272ـ نفسه، ص: 79، 80، 81، واليدالي، شيم الزوايا، ص: 82، 83، 84.

273ـ لتفصيل أكثر حول هاتين الإمارتين انظر: ابن حامد، التاريخ السياسي، م. س، ص: 106 ـ 126، وبول مارتي، إمارتا الترارزة والبراكنة، وكذا الدراسة التي أعدّها البحاثة محمد المختار ولد السعد عن الإمارات والنظام الأميري الموريتاني "النشأة والأطوار السياسية الكبرى، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2007.

من حيث المادة التي أوردها المؤلف عنها، بينما لم تحظ إمارة أولاد امبارك إلا بذكر خاطف كما ألمعنا أعلاه.

ينضاف إلى ذلك الاختصار الكبير الذي يطبع النص والذي يحيل في بعض وقائعه إلى الإبهام والغموض، شأنه في ذلك شأن غيره من النصوص السابقة.

ويشير النص إلى ملمح هام يتعلق بالدور الديني والسياسي لبعض علماء المنطقة، الذين تحدث عن وفيات بعضهم، وبخاصة الشيخ سيديا الكبير الذي كان حرمه آمنا يقصده كل من تتخطفه أعداؤه وتتربص به الدوائر[274].

وتظهر شخصية المؤلف كثيراً في النص، وموقفه من الأحداث والشخصيات، يبرز ذلك كثيرا في إطرائه لبعض الأمراء وتمجيده لهم بأفعالهم ومواقفهم التي استعرض بعضها في ثنايا نصه، ومن هؤلاء محمد لحبيب وابنه سيدي وحفيده أحمد[275].

وبغض النظر عما يعتور النص من اختصار واختلاف في تحديد تواريخ الوفيات والوقائع والحروب مع المصادر التاريخية الأخرى[276]؛ إلا أن المؤلف كان فيه حريصا على ما يبدو على الدقة في النقل، من ذلك قوله تعقيبا على وقعة «أبّاخ» بين محمد بن امحمد شين وأعمر بن المختار عام 1232هـ: (وغلط في الوسيط فقال يوم الملحس)[277]، ولعل هذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن مصادر المؤلف، فعلامَ اعتمد فيما نقل؟

ب ـ مصادره وأهميته التاريخية:

اعتمد محمد فال بن بابه في تكملته هذه على مجموعة من المصادر منها ماهو مكتوب ومنها ما هو شفوي.

أما المصادر المكتوبة فمن أهمها - وهو سابق على ما سواه -: تاريخ إدوعيش ومشظوف الذي وضع المؤلف تكملته هذه تذييلا له[278]، وشيم الزوايا لمحمد اليدالي (1166هـ)، ومنظومة والد بن خالنا (ت: 1212هـ) في وفيات المشاهير، والوسيط في تراجم أدباء شنقيط لابن الأمين الشنقيطي (ت: 1331هـ)، ورجز «أم الطريد» للنابغة الغلاوي (ت: 1245هـ). كما يحتمل أنه قد اعتمد على

274ـ التكملة، ص: 70 وغيرها.

275ـ نفسه، ص: 57، 65، 74.

276ـ يمكن الرجوع إلى ذلك في هوامش النص المحقق فقد بيّن محققه الدكتور جمال بن الحسن رحمه الله تلك الاختلافات.

277ـ التكملة، ص: 54.

278ـ ونعتقد أنه اعتمد عليه في ما يتعلق بالحروب والوقائع المشتركة بين الطائفتين العربية والصنهاجية انظر: مثلا التكملة، ص: 54.

منظومة والده بابه ولد أحمد بيبه في وفيات المشاهير، وكذا منظومة بابكر بن احجاب المتوفى 1322هـ في أحداث عصره[279]. كما يطفح النص بالاستشهاد بالشعر (الفصيح والملحون)، ذكراً لأمجاد أمير أو عالم أو نعياً ورثاء له[280]، أو تحسرًا على تقلّب الأحوال وحدوث الأهوال[281].

أما المصادر الشفوية: فلم يشر المؤلف إلى أسانيدها في نصه، ولم يذكر ما يفيد بذلك من صيغ الإسناد، لكن طبيعة مادته التي أوردها في نصه تشي بأنه اعتمد على روايات شفوية من معاصريه وهي تفوق ـ ربما ـ مصادره المكتوبة[282].

وينضاف إلى ذينك النصين السابقين نص ثالث لا يقلّ أهمية عنهما، وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بالنص السابق. والنص المقصود هو «تاريخ بلاد الترارزة» لأحمد سالم بن باكا المتوفى 1981، وهو كتاب مكرّس لتاريخ إمارة الترارزة السياسي ـ والثقافي إلى حد ما ـ من نشأتها إلى نهاية عهد اعلي بن محمد الحبيب في 1303هـ /1886م. وتكمن أهمية هذا الكتاب في كون صاحبه كتب تاريخ الإمارة من داخلها ولم يطلّ عليه من الخارج، وزاوج فيه بين التقاليد التاريخية العاملة في المنطقة، وروايات أولاد أحمد بن دامان الشفهية ورؤيتهم لتاريخهم السياسي. وحدد المؤلف طريقته في التعامل مع هذين النوعين من المصادر فقال: (هذا وإني لم آل جهدا في صحة هذا الكتاب وتحريره، فلم أذكر فيه إلا ما نقلته من الكتب المعتمدة لسعة علم مؤلفيها وورعهم (...)، ولم أرو شيئا مما ذكرت فيه من غير هذه الكتب إلا عن ثقة صدوق مشاهد لما رويت عنه، أو راو عن ثقة مثله مشاهد. وقد تجنبت فيه الحكايات المزخرفة التي ليس لها أصل صحيح...)[283].

وصفوة القول أن التدوين التاريخي الموريتاني عرف خلال القرن الرابع عشر الهجري توجّهاً جديداً تركّز في التاريخ السياسي للبلاد، وذلك ما تعكسه بشكل واضح النماذج التي أسلفناها. وإن لم يغب عن الأحداث المدوّنة الحديث عن وفيات الأعيان والأمراء والمشاهير وسني القحط والرخاء والظواهر الكونية، وما إلى ذلك مما شاع وانتشر في تدوين القرون السابقة، وإن اختلفت مستويات

279ـ نفسه، ص: 14.

280ـ نفسه، ص: 30، 31، 40، 44، 64، 65 وغيره كثير.

281ـ نفسه، ص: 81.

282ـ نفسه، ص: 15.

283ـ أحمد سالم بن باكا، **تاريخ بلاد الترارزة**، مخطوط، ص: 5 نقلا عن ولد السعد، إمارة الترارزة، م. س، ص: 19.

الاهتمام وتفاوتت درجات التركيز[284]. بيد أن أبرز سمات التدوين التاريخي خلال هذه المرحلة هي قلة النتاج التاريخي، وذلك يعود في بعض أسبابه إلى تطور الوجود الفرنسي في البلاد، الذي كان عاملاً حاسماً في انقطاع التدوين الحولي، رغم أنه كان كذلك سببا في تدوين بعض نصوص هذه المرحلة كما تقدم. لكن السمة الأبرز هي الطابع الموسوعي الذي تميزت به بعض النصوص ونقصد بذلك موسوعة حياة موريتانيا للمؤرخ الكبير المختار بن حامد (ت: 1414هـ)، فما هي إذن أهم مضامين هذه الموسوعة ومصادرها؟

3ـ **موسوعة حياة موريتانيا** للمختار بن حامد[285] (ت: 1414هـ)، وهو عالم ومؤرخ كبير أشهر من أن يعرّف، له الكثير من التآليف من أهمها فيما يعنينا الآن: موسوعته التاريخية (حياة موريتانيا). وله كذلك بحوث وأعمال مشتركة، من بينها: (معجم المؤلفين الشناقطة).

أـ محتويات الموسوعة وأهميتها التاريخية:

تشكّل موسوعة المختار ولد حامد عملا تاريخيا ضخما، لم يكن مثله قبله ولم يأت بعده إلى حد الآن مثله، وهي أول عمل تاريخي يسعى إلى الاستقصاء والشمولية والتنوّع. حيث ضمّت بين دفتيها ما ينيف على الأربعين جزءاً، موزّعة على التاريخ الثقافي والسياسي والاجتماعي والطبيعي للبلاد، لذلك اعتبرها البحاثة عبد الودود ولد الشيخ «أكبر إرشيف قبلي ضخم عن غربي الصحراء استطاع باحث جمعه حتى الآن»[286]. ويبدو أن هذه المعلمة التاريخية الفريدة قد ارتبط تدوينها بحدث هام حفّز المختار بن حامد على البحث والتقصي من أجل جمع مادة موسوعته. ذلك أن تاجرا لبنانيا كان يقيم بالسينغال تحدى المختار واستدرجه إلى مجلس سمر دافع فيه المؤرخ الكبير عن بني جلدته وبلده، وكان ذلك سببا فيما بعد في وضع هذه الموسوعة تعريفا بتاريخ موريتانيا وأحوالها وسير أعلامها. وتكمن أهمية هذا العمل الموسوعي الضخم في ما يقدمه للباحثين من

284ـ ورد في نصي سيدي بابه ومحمد فال ذكر لوفيات الأعيان والعلماء، لكن سنوات القحط والشدة والظواهر الكونية وغيرها من الأحداث لم تحظ إلا بذكر خاطف عند المؤلفَين رغم اختلاف مستويات اهتمامهما. انظر: كفكاف 1131هـ عند سيدي بابه، ص: 198. وحواطة 1187 أو 1185 حسب ابن احجاب، وعام الخط في السماء 1259هـ، داء البقر 66، مرض الهيضة 1285هـ عند ابن بابه، ص: 48، 66،62، 68.

285ـ عقد له العديد من الباحثين تراجم ضمن تحقيقهم لأعماله، وبخاصة الأجزاء المنشورة من الموسوعة.

286- Abdelwadoud Ould Cheikh، » Vous avez dit «Histoire »?« in: **Histoire de la Mauritanie**. **Essais et syntéses** (sous presse)، p 30 de l'original de l'auteur.

مادة تاريخية ما تزال خاما في أغلبها، وتتطلب الكثير من التمحيص والتنقيح والتصحيح حتى تسهل الاستفادة منها، وإلى ذلك يشير المؤلف بقوله: (وقد كتبته بالأسلوب القديم، راجيا أن يقوم باحثو الجيل الحاضر بإعادة صياغة المادة الخام التي قدمتها في هذا الكتاب، حسب مقتضيات المناهج الحديثة)[287]. ولسنا هنا في سياق يسمح لنا برصد كل شاردة وواردة عنها، لذلك سنكتفي بإبراز محتوياتها ومصادرها ما وسعنا ذلك.

تتألف موسوعة حياة موريتانيا من نيّف وأربعين جزءا ـ كما تقدم ـ موزّعة حسب موضوعاتها ومضامينها، وذلك ما يلخّصه المؤلف بقوله: (وفضلا عن التاريخ السياسي للبلاد، يشتمل الكتاب على التعريف بالبلاد من الناحية الجغرافية، إذ لا تتم معرفة حوادث الأزمنة إلا بالوقوف على ما وقعت فيه من الأمكنة. كما يتحدث عن العادات والتقاليد، وعن الإنتاج الفكري، والنظم السياسية والاقتصادية والتقليدية. وقد وجهت عناية خاصة إلى التعريف بأعيان البلاد ونجباء القبائل ـ من أمراء ومشائخ وسائر النبهاء ـ ممن بلغني خبره أو اهتديت إلى أثره (...) وعلى العموم فقد حاولت أن أعطي صورة عن ماضي هذه البلاد، أكثر من حاضرها)[288].

وعلى ذلك تنحصر أجزاء الموسوعة في الأجزاء التالية: جغرافي، وسياسي، وثقافي، واجتماعي ـ وهو أكثرها عـدداً؛ تناول فيه المختار أنساب القبائل الموريتانية وبطونها وأفخاذها ومجموعاتها وعشائرها ـ وفيات أعيان الزوايا، حوادث السنين، الأيام الحربية، لقطات حية....). وقد خضعت بعض هذه الأجزاء للتحقيق والطبع والنشر؛ وهي: التاريخ السياسي[289]، الحياة الثقافية[290]، الجزء الجغرافي[291]، تجكانت[292]، بعض المجموعات الشمشوية[293]، بنو حسان وممالك السودان وأعلامهم[294]، حوادث السنين[295].

287ـ المختار بن حامد، التاريخ السياسي، م. س، ص: 10.

288ـ نفسه، ص: 9، 10.

289ـ الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

290ـ الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1990.

291ـ الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

292ـ الجزء السادس، منشورات الزمن، الرباط، 2009.

293ـ الجزء السادس عشر، منشورات الزمن، الرباط، 2009.

294ـ الجزآن السادس والعشرون، منشورات الزمن، الرباط، 2009.

295ـ هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، 2011.

وحدّد ابن حامد المنهج الذي اعتمده في تدوين الأخبار والوقائع؛ حيث يقول: (وطريقتي ـ غالبا ـ هي الإتيان بالخبر على أكمل وجه إن أمكن، وحكاية رواياته إذا تعددت (...) ولم ألتزم أن أشير في الهوامش إلى المراجع، وعزيمتي أن أفرد جزءا خاصا لحوادث السنين الهجرية أذكرها فيه ـ بتلخيص وتصرف ـ مع عزوها إلى مصادرها المحلية التي لم تنشر)[296].

وقد كان المختار أكثر وعياً من سابقيه من المؤرخين؛ ليس فقط من حيث إدراكه لأهمية تحديد منهجه ومصادره التي استقى منها مادته التاريخية، وإنما كذلك من حيث نمط التدوين في حد ذاته وطبيعته، حيث كان المؤلف ذا معرفة واطلاع واسع وإدراك تام لتطور منهج البحث التاريخي وكتابة التاريخ وتجاوزها للنمط السردي الحولي التقليدي البعيد عن التحليل والتفسير، وذلك فحوى قوله وعين بيانه: (... ومع ذلك فلا أدعي أن هذا الكتاب يمثّل تاريخا بالمعنى العلمي الحديث للكلمة (...) وقد كتبته بالأسلوب القديم، راجيا أن يقوم باحثو الجيل الحاضر بإعادة صياغة المادة الخام التي قدمتها في هذا الكتاب، حسب مقتضيات المناهج الحديثة)[297].

ب ـ مصادرها:

لم يغب عن المؤلف ذكر مصادره التي متح منها مادته التاريخية؛ فذكر ما اعتمد عليه منها بشكل عام: (وحسبي أني جمعت فيه مما كان متفرقا في شتى المصادر التي لا تزال مخطوطة، بالإضافة إلى ما أخذته من أفواه عدد كثير من الثقات الذين التقيت بهم في مختلف أنحاء هذه البلاد(...) أضفت إلى ذلك ما قرأته في المصادر الخارجية المطبوعة)[298].

وعلى هذا فمصادر المؤلف تنقسم إلى قسمين:

مصادر مكتوبة: وهذه منها ما هو «محليّ» ومنها ما هو خارجي:

فالمحلي في أغلبه عبارة مادة هذا العمل التي تحدثنا عنها في السطور السابقة.

أما المصادر الخارجية: فهي كثيرة ومتنوعة من بينها مصادر الرحالة والجغرافيين العرب، والمصادر التنبكتية والوثائق الفرنسية.

أما الرواية الشفوية: فقد اعتمد فيها المؤلف منهج الإسناد لضبط رواتها

296ـ نفسه، ص: 9، 10، 11.

297ـ نفسه، ص: 10.

298ـ نفسه، ص: 10.

«الثقات». كما عمد إلى المقارنة بين مختلف الروايات التي استقاها من مصادره، وبخاصة تلك التي لم تخلُ في مضامينها من غرابة بادية، وذلك كما في قوله (... بالإضافة إلى ما أخذته من أفواه عدد كثير من الثقات الذين التقيت بهم في مختلف أنحاء هذه البلاد (...) وتحريت في ما أخذته عن الحكايات الشفهية التي تختلف رواياتها ـ غالبا ـ ما رأيته أقرب إلى الصحة، بعد المقارنة، تاركا للباحثين رأيهم ورواياتهم)[299]. (وطريقتي ـ غالبا ـ هي الإتيان بالخبر على أكمل وجه إن أمكن وحكاية رواياته إذا تعددت)[300]. وهي تمثل السواد الأعظم من مجموع مصادر المؤلف، ولا يتسع المقام هنا لعرضها نظرا لكثرتها ووفرة مادتها التاريخية.

299ـ نفسه، ص: 10، 11.

300ـ نفسه، ص: 9.

الفصل الرابع

الحوليات (كتب التواريخ)

نماذج مختارة من المدونة التاريخية الموريتانية

الحوليات (التواريخ)

أولاً: تعريفها وأهميتها وتصنيفها:

I ـ تعريفها:

الحوليات: هي كما مر معنا عبارة عن نصوص تم تدوينها على النمط الحولي، وتضمينها أبرز الأحداث السنوية من وقائع شهيرة ووفيات أعيان وسني قحط وشدة وخصب ورخاء وظواهر كونية وطبيعية، مع ضبط تاريخ كل منها حسب التسلسل الزمني، فجاءت مختصرة بعيدة عن التفصيلات والاستطرادات، وهي ظاهرة انفردت بها بعض المدن الموريتانية القديمة مثل ولاتة والنعمة وتيشيت وتجكجة، وانعدمت في بعضها رغم أهميته ومركزيته مثل شنقيط وودان. ولم يكن هذا النمط من التدوين التاريخي يعرف على عهد واضعيه بالحوليات وإنما كانت تسمى «بالتواريخ». ولعل تسمية الحوليات قد جرى إطلاقها على هذه «التواريخ» في نطاق الاهتمام الفرنسي بتاريخ البلاد وتراثها كما تقدم، إذ كلمة حوليات مرادفة لكلمة (Chroniques) باللغة الفرنسية، فتأمل[301].

301ـ انظر: سيدي أحمد ولد أحمد سالم، مقدمة تحقيق تاريخ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 11.

ومهما يكن من شيء فإننا لا نملك من المعلومات ما يجعلنا نسلّم بذلك الاعتقاد كمسلمة تاريخية أو ننسفه من أساسه، على أنه يبقى في نهاية المطاف مستساغاً بالنسبة لنا؛ نظراً لوجاهته في هذا السياق وإن كان نمط التدوين في حد ذاته يحيل إلى مصدر التسمية.

ويلحق بهذه النصوص نصوص أخرى اعتمد مؤلفوها نفس النمط الحولي في تدوين الأحداث والوقائع، وإن اختلفت تسمية كل نص، حيث يرد حينا باسم المؤلف كـ تاريخ جدو ولد الطالب الصغير، أو الموضوع كـ نظم وفيات أمراء البراكنة والترارزة لوالد بن خالنا، أو باسم مدينة التأليف كـ تاريخ ولاتة للطالب بوبكر بن أحمد المصطفى المحجوبي، فضلا عن وجود تسميات ذات بعد تاريخي وهي من وضع المؤلف في الأساس، مثال ذلك ما ورد في مقدمة النبذة لصالح بن عبدالوهاب الناصري حيث يقول: (هذه نبذة من وفيات الأعيان، وتاريخ أعلام هذا الزمان)[302].

II ـ أهمية الحوليات كمصدر تاريخي:

تكمن أهمية الحوليات التاريخية كمصدر هام للتاريخ الموريتاني في بعدين أساسين: أولهما يتعلق بالمؤلف ومكانته العلمية والاجتماعية ووعيه وثقافته التي دفعته للاعتناء بأحداث زمانه والذي قبله، وصدّرته لتدوينها، وقد تطرقنا لذلك ضمن الفصل السابق.

أما البعد الثاني فيتمثل في نمط تدوين الأحداث والوقائع، ذلك النمط الذي اعتمد على صرامة منهجية قائمة على الترتيب الزمني الدقيق ـ أحيانا ـ للأحداث بمختلف أنواعها من ميلاد ووفاة ورخاء وقحط وحرب. وقد لفت هذا الصنف من التدوين التاريخي أنظار الفرنسيين فعكفوا على جمع نصوصه وترجمتها ونشرها ضمن دراساتهم عن تاريخ «البيضان»[303]. كما حظي كذلك باهتمام محلي من لدن مؤرخي البلاد ونخبها حيث شكّل مصدرا هاما ضمن المادة التاريخية

302 ـ صالح بن عبدالوهاب، وفيات الأعيان، م. س، ص: 26.

303ـ انكب مجموعة من الباحثين والإداريين الفرنسيين من أمثال رني باسيّ وبول مارتي وفينسان مونتي، على جمع معلومات عن تاريخ المجتمع الموريتاني وحضارته، وقاموا بترجمة الكثير من النصوص التاريخية من حوليات وأنساب ومناقب، فنشر الأول ضمن دراساته: وفيات أمراء الترارزة والبراكنة لوالد بن خالنا، وإخبار الأحبار بأخبار الآبار لامحمد بن أحمد يوره، والنجم الثاقب في ما لليدالي من مناقب للنابغة الغلاوي. ونشر الثاني تاريخ ولاتة والنعمة ونصوصا أخرى ضمن حوليات ولاتة والنعمة وأعماله الأخرى عن «مجتمع البيضان وقبائله». بينما ترجم الثالث حوليات تيشيت. انظر: ولد احمد سالم، م. س، ص: 11، 12.

التي جمعها المؤرخ الكبير المختار بن حامد في عمله الموسوعي "حياة موريتانيا" وخاصة في جزئية "وفيات أعيان الزوايا" و"حوادث السنين"، حيث اعتمد في هذا الأخير على تواريخ ولاتة والنعمة وتيشيت وتجكجة ونبذة صالح بن عبدالوهاب الناصري وتاريخ بن اطوير الجنة وتاريخ أهل الشيخ ماء العينين وتاريخ أحمد بن كداه الكمليلي وتاريخ عبدالودود ابن انتهاه السمسدي المسمى نيل الأوطار في الغامض من الحروب والأخبار وغيرها من النصوص[304].

ولا يقتصر الاهتمام بمثل هذه النصوص على المؤرخين الموريتانيين المتأخرين فحسب، بل إن ابن امبوجة العلوي يصرّح في نهاية كتابه "فتح الرب الغفور في ذكر تواريخ الدهور" بأنه اعتمد فيه على تاريخ جدو بن الطالب الصغير البرتلي وتاريخ ابن اطوير الجنة الحاجي[305]. كما قال أحمد بويا بن الطالب بوبكر المحجوبي، أحد مؤلفي تاريخ ولاتة، أنه اعتمد في تاريخه على تاريخ لعبدلله بن الطالب عثمان اليلبي، وتاريخ الحاج بن عمر التيشيتي[306].

ورغم ما أسلفناه من أهمية الحوليات كمصدر للتاريخ الموريتاني؛ إلا أن بعضها يطرح بعض الإشكالات المنهجية والمعرفية، وبخاصة حوليات المدن. حيث يصعب أحيانا التمييز بين مؤلفيها، وإن كانت ثمة بعض الإشارات التي يمكن أن يستنتج منها من أين بدأ هذا أو انتهى ذاك[307]. زد على ذلك أن بعضها يضمّن "تواريخ" أخرى دون أن يشير إلى ذلك، مثل تاريخ جدو الذي اشتمل على الجزء الأول من تاريخ الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي، والتوافق، بل والتطابق الذي يطبع حوليات ولاتة وتاريخها وحوليات النعمة[308]. أما حوليات تيشيت فالعلاقة بينها وبين تاريخ ابن اطوير الجنة واضحة بيّنة كالشمس في وضح النهار[309].

304ـ المختار بن حامد، حوادث السنين، م. س، ص: 37.

305ـ سيدي عبدالله بن امبوجه العلوي، م. س، ص: 19.

306ـ محمد بويا بن الطالب بوبكر المحجوبي، تاريخ ولاتة، م. س، ص: 50.

307ـ انظر: حوليات تيشيت، م. س، ص: 89، 97 عند عامي 1302 و1317. ففي الأول وفاة والد محمدٌ بن عمر بن عشّاي الماسنى وهو صاحب النص الثاني من حوليات تيشيت. وفي العام الثاني (1317هـ) توفي أحمد بن امحمد بن امباكة والد بوي أحمد الملقب بوعسرية التيشيتي صاحب النص الثالث من حوليات تيشيت، مما يعني تضييق دائرة الشك في نهاية تأليف الأول وبداية الثاني، فتأمل.

308ـ انظر: مثلا حوليات ولاتة، م. س، ص: 18، 19، 20، 21...وحوليات النعمة، م. س، ص: 9، 10، 11، 12 وغيرها.

309ـ تاريخ، ابن طوير الجنة، م، ص: 42 ـ 81، وحوليات تيشيت، م. س، ص: 14 ـ 36.

على أن ما يسترعي الانتباه هنا هو أن مجمل تلك النصوص لا تستوي في عرضها واقتضابها للأحداث والوقائع المدوّنة، بل إن منها ما يسهب حينا في عرض بعض الأحداث، فيقدم معلومات شبه مفصّلة عن حياة عالم مثلاً أو واقعة ما إلى غير ذلك، وإنَّ منها ما يوجز ويختصر حتى يصير الحدث المدوّن أشبه باللّغز كما تقدم[310].

وقد قدّمنا في إطار حديثنا عن نشأة التدوين التاريخي في موريتانيا موضوع المدونة التاريخية، وأشكالها بما فيها الحوليات، وبقي علينا ـ تفادياً للتكرار ـ أن نعرض بشكل مفصل لمحتوياتها ومضامينها، فما هي نوعية الأحداث التي شغلت اهتمام كاتبيها؟ وهل كانوا يميزون فيها بين مستويات معينة؟

III ـ تصنيفها:

قبل أن نخوض في محتويات الحوليات التاريخية، ونناقش مضامينها؛ نرى لزاما علينا أن نشير إلى التصنيف المتداول لها في بعض الدراسات، وإن كنا لن نعتمده في دراستنا رغم أهميته، لأننا نرى وجاهة في غيره كما سنوضح.

والتصنيف المذكور يقسّم الحوليات تقسيماً مناطقياً إلى (حوليات منطقة الشرق، الشمال، "الكبلة".. إلخ).

ولئن كان هذا التصنيف لا يخلو من فائدة، ويمكن الاستئناس به لفهم طبيعة النص ومجاله الذي دوّن فيه، حيث كان المؤلفون يركزون - عن قصد أو غير قصد - على محيطهم المكاني الذي كان يحظى بالقسط الأوفر من الأحداث المعروضة وإن لم يهمل ذكر بعض الوقائع والوفيات التي حدثت في مناطق أخرى خارجة عن نطاقه الضيّق. إلا أنه مع ذلك قد يحيل إلى غير المراد منه، وربما يفهمه البعض فهما ضيّقا "قاصرا". لذلك نرى ـ بالنظر إلى مضمون تلك النصوص ـ أن ثمة تصنيفاً آخر قد يكون أولى وأجدى معرفيا في التمييز بينها، وهو تقسيمها حسب طبيعتها أو نمط تدوينها إلى: حوليات منثورة وأخرى منظومة، وهو تصنيف إجرائي تبسيطي يفي بالغرض المطلوب في دراستها، إذ يساعد على فهم السياق العام لاعتناء الموريتانيين بالتاريخ وتدوينه.

وتغطي نصوص الحوليات المنثورة زهاء أربعة قرون من الزمن، رغم خلو بعض الأعوام من ذكر أحداث أو وقائع، حيث تعود أقدم حادثة تم تسجيلها إلى

310ـ انظر: مثلا المحجوبي، منح الرب الغفور، م، س، ص: 11 وما بعدها، وانظر: أيضا ابن انبوجه، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، م، س، ص: 29 وما بعدها.

القرن العاشر كما أسلفنا، وآخر حادثة سجلتها حوليات ولاتة هي قدوم فرنسا وبناؤها فيها عام 1330هـ بينما كانت آخر حادثة سجلها تاريخ ولاتة هي وقائع العام الخامس والثلاثين بعد الثلاثمائة والألف، حيث توفي فيه في صفر "رئيس لحمنّات حمود ولد أعمر، غدره ابن عمه أحمد بن سيدي امحمد بن إبراهيم، ثم أخذوا الإفرنس القاتل وأربعة من قومه منهم بكار بن أحمد وإخوته وابن عمه"[311].

وآخر حادثة تسجّلها حوليات تيشيت كانت في عام 1326هـ وفيه "بُني منارة تيشيت، وافتتنت ماسنة وطائفة سيدي أحمد بن عبدالله بن ابنيجاره، وهزموهم وقتلوا منهم واحدا قريبا من ديارهم، صائلا إليهم، واصطلحوا على ظلمهم بأربعة مائة بيصة. والمقتول سيدي بن الحضرامي"[312].

أما آخر حادثة يسجلها ولد انتهاه السمسدي في تاريخه "نيل الأوطار" عام 1352هـ فهي "بناء الفرانسة لدار عند قليب الكدي المسمى بافديرك"[313].

أما النصوص المنظومة فلعل أهم ما يميزها هو التتابع الذي يطبع نصوصها مثل العِقد، وإن كانت معرّضة للتصحيف والتحريف أكثر من غيرها ـ كما تقدم ـ حيث تعتمد في تأريخها للأحداث والوقائع على حساب الجُمّل. وهي تغطي عموما نفس الفترة السابقة تقريبا، حيث تبدأ من القرن الحادي عشر وتنتهي عند القرن الرابع عشر الهجري.

وقد جمع المؤرخ الكبير المختار بن حامد أغلب هذه النصوص وضمّنها في موسوعته التاريخية وبخاصة جزء حوادث السنين، فاشتمل على تاريخ موريتانيا على مدى أربعة قرون، فضلا عما تضمنه الكتاب، وكذا النصوص، من معلومات وأخبار عن الجوار السوداني والمغرب والصحراء الكبرى[314].

311ـ الطالب بوبكر المحجوبي، حوليات ولاتة، مصدر سابق، ص: 61، وتكملة الشيخ امحمد ولد سيدي عثمان التاكاطي لتاريخ ولاتة لشيخه أحمد بويا بن الطالب بوبكر المحجوبي. انظر: تاريخ ولاته، م. س، ص: 97.

312ـ حوليات تيشيت، م. س، ص: 102.

313ـ عبدالودود بن انتهاه السمسدى، نيل الأوطار في الغامض من الحروب والأخبار، نص مطبوع على الحاسوب الآلي، ص: 59.

314ـ المختار بن حامد، حوادث السنين، م. س، ص: 37.

ثانياً ـ محتويات الحوليات ومصادرها:

I ـ محتوياتها:

تتناول نصوص الحوليات بشقيها المنثور ـ الذي يهمنا هنا أكثر من غيره ـ والمنظوم الأحداث والحروب والوقائع والأيام ووفيات الأعيان وسني القحط والجدب والجفاف والخصب والرخاء والنماء والظواهر الكونية، فضلا عن بعض الإشارات التاريخية التي كثيرا ما ترد عرضا ضمن سياق الأحداث المعروضة. وتشترك هذه النصوص في الغالب في ذكر الوقائع المعروضة والأحداث، وإن كانت أحيانا تختلف في رسم واقعة أو تأريخها.

وانطلاقاً من ذلك فالمادة التاريخية المعروضة يمكن تصنيفها إلى: أحداث سياسية تتمثل في التأريخ للصراعات والحروب والأيام[315]، بين الإمارات الحسانية واللمتونية، وبين قبائل الزوايا فيما بينها، أو بينها وبين بعض القبائل المغفرية. وتهيمن هذه الأحداث على مجمل المادة المدوّنة ويمكن من خلالها التأريخ لمراحل وأطوار نشأة الإمارات الموريتانية في الشرق والوسط والشمال والجنوب، وأطوارها التي مرت بها قوة وضعفا وتقدما وتراجعا وظهورا وأفولا، على مدى قرون كانت حبلى بالأحداث. هذا بالإضافة إلى الإخبار عن وفيات العلماء والأعيان والمشاهير، وذكر سني القحط والرخاء والظواهر الكونية.

فعن الأحداث السياسية عرضت نصوص الحوليات للحروب والصراعات والوقائع والأيام التي جرت بين القبائل الحسانية فيما بينها، وبينها وبين القبائل الزاوية والإمارات الصنهاجية والقبائل الطارقية والسودانية المصاقبة للبلاد، وكذا الحروب بين بعض القبائل الزاوية فيما بينها وبين الزوايا وحسان كما تقدم.

وتعتبر بعض الوقائع التي عرضت لها الحوليات فاصلة في تاريخ البلاد؛ حيث أدى بعضها إلى أفول إمارة وانهيارها، كما حدث في معركة انتيتام 1040هـ، وحروب مشظوف وأولاد امبارك، وحرب شرببة التي كانت فيصلاً حاسماً بين الزوايا وحسان في منطقة الجنوب الغربي الموريتاني، وغيرها من الحروب التي

315ـ استعرضنا ضمن أطروحتنا للدكتوراه مخططا علميا دقيقا ـ كما نحسبه ـ بأبرز الحروب والوقائع والأيام التي دارت بين قبائل البلاد حسانية كانت أو لمتونية أو زاوية. وحاولنا استقراء ما تشي به تلك الوقائع أو ترمز له من دلالة في سياق التاريخ السياسي الموريتاني، مع مقارنة شاملة بين مختلف الوقائع المدوّنة. كما أفضنا في الحديث عن قيمتها التاريخية في نطاق التاريخ الحربي لموريتانيا. انظر: منّي عبدالقادر، الكتابة التاريخية في موريتانيا ما بين القرنين 18 ـ 20، "دراسة هيستريوغرافية لنصوص التاريخ الموريتاني"، أطروحة دكتوراه قيد المناقشة.

يضيق المقام عن سردها وحصرها هاهنا. وقد اشتركت أغلب النصوص الحولية في ذكر هذه الحروب والوقائع والأيام، وبخاصة النصوص «الحوضية»، وإن كانت أحيانا تختلف في رسم الواقعة وتاريخها[316]، كما انفردت بعض النصوص بمعلومات تتعلق بوقائع أخرى لم تذكر في غيرها.

وتتفق حوليات **ولاتة وتاريخها** وحوليات **النعمة** وكذا **نبذة** صالح و**حوليات** محمد يحي الولاتي و**منح الرب الغفور** للمحجوبي مع ما ذكره جدو من وقائع مع اختلافات بسيطة في ضبط الاسم والتاريخ ـ كما تقدم ـ وتضيف هذه النصوص وقائع جديدة حدثت بعد نهاية **تاريخ جدو**[317]. كما اشتملت نبذة صالح على وقائع لم تذكر في حوليات ولاتة والنعمة[318].

وتركز هذه النصوص بشكل خاص على منطقة الحوض وجوارها السوداني، وما عرفته من تحولات وتبرمات وتقلبات في حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، من خلال ما استعرضته من معلومات وإشارات عن الصراعات القبلية والحروب بين الإمارات والرئاسات الحربية، والتي تشكلت على غرارها اتحاديات قبلية كبرى في الحوض (مشظوف) ظلت تمارس سلطتها السياسية في المنطقة وتخضع بالسّنان من يجاريها أو يتحرش بحدودها التقليدية. كما توضح المعلومات المعروضة كذلك عن المجاعات والأوبئة والظواهر الكونية. كما سيأتي ـ ذلك البعد بشكل جلي.

بينما يركز **تاريخ ابن اطوير الجنة** وحوليات **تيشيت** و**تجكجه** على الأوضاع السياسية والصراعات والحروب والتفككات الأسرية والهزات الداخلية التي عرفتها الإمارة الايعيشية، مع عدم إغفالها لما دار من حروب وصراعات واضطرابات في الحوض لارتباط بعضها بما نُقِل في هذه النصوص من أحداث.

ويركز تاريخ ابن اطوير الجنة بشكل لافت على تاريخ إمارة ادوعيش والأطوار التي مرت بها نهوضا ونكوصا وتقدما وتراجعا، والانقسامات الأولى التي عرفتها

316ـ انظر: حرب «شرببه» عند جدو، ص: 58، وحوليات ولاتة، ص: 19، وحوليات النعمة، ص: 10. بينما كان ابن اطوير الجنة أكثر ضبطا لاسم هذه الحرب وكذا النصوص المنظومة. انظر: تاريخ ابن اطوير الجنة، ص: 46، ومنظومة والد، ص: 59. وانظر مثلاً حول اختلاف التواريخ: وقعة «تكلط» عند جدو، ص: 56، ونبذة صالح، ص: 27، وحوليات ولاتة، ص: 18، وحوليات النعمة، ص: 9.

317ـ انظر مثالًا على ذلك: حوليات ولاتة، ص: 35 وما بعدها، وحوليات النعمة، ص: 15 وما بعدها، ونبذة صالح، ص: 48 وما بعدها.

318ـ انظر: النبذة، ص: 52.

بين فرعيها «بخواكه» و«مكزوزه»، ثم الانقسام الأكبر إلى حلفين هما «أبكاك» و«اشراتيت»، كما يستعرض في ثنايا الوقائع المعروضة نتفا متفرقة تبرز علاقة إمارة إدوعيش بمحيطها والإمارات المغفرية كذلك.

وفي النص ذكر لحروب أولاد امبارك وبخاصة فرعي أهل بهدل بن امحمد الزناكي وأهل هنون لعبيدي، وإشارات عن الإمارات المغفرية، وإن كان تجاهل، عن قصد أو غير قصد، وقائع إمارة أهل يحي بن عثمان.

و فضلا عن ذلك فقد اشتمل تاريخ ابن اطوير الجنة على العديد من وفيات الأعيان والفقهاء والعلماء والرؤساء والوجهاء من العرب والزوايا.

وإجمالاً فقد تضمن تاريخ ابن اطوير الجنة جلّ الوقائع والحروب التي تحدثت عنها النصوص الحوضية، وآخر الوقائع التي تحدث عنها هي: «وقعة قصر البركة (الجّاكلي) وتسمى يوم البطحة 1244هـ، وصلح أهل سيدي محمود وكنتة 1245هـ، وحروب كنتة وتجكانت 1258هـ»[319].

كما ركزت حوليات تجكجه في بعض سردها على إمارة ادوعيش وأيامها ووقائعها مع الإمارات المغفرية وحلفائهم في حصار «الحنيكات»، و«انواج» و«تنتينة» وغيرها، وادوعيش والمثاليث في «العجينكي»، و«تكدمت»، «الصفية»، و«تيشيت انكونه»، وهزيمة إدوعيش أمام مشظوف في 1293هـ. كما استعرضت بعض الوقائع والأيام التي دارت بين حزبي الإمارة الإيعيشية بعد انقسامها، فذكرت منها «ادروم» و«اجاكلي» و«بوعنز»، و«كصاص»، و«تاقطافت»، و«ادبلكي»، و«مال». وتطرق النص كذلك لحرب ادوعلي (شنقيط) وايدوالحاج (وادان) في واقعة «آعراريظ»، وغزوة الأغلال لتجكانت 1225هـ التي فني فيها خلق كثير من الأغلال بسبب العطش، وحرب كنتة وتجكانت وبعض وقائعها «حاسي الغابة»، و«تاوجافت»، وحرب أهل سيدي محمود وكنتة وأولاد الناصر في يوم «العيون»[320].

وسجّل ابن انتهاه السمسدي في تاريخه «**نيل الأوطار**» نتفا متفرقة من الوقائع والأحداث التي عرفتها إمارة آدرار وعلاقتها بالإمارات المغفرية الأخرى. كما حوى **تاريخ أهل الشيخ ماء العينين** بعضاً من تلك الوقائع وإن كانت قليلة في مجملها، ومن بينها: عام «الذريره» الأولى على أولاد غيلان ومشظوف

319- ابن اطوير الجنة، ص: 100، 101، 102.

320- حوليات تجكجه، ص19، 20، 23، 24، 25، 29، 30، 31، 33، 36.

1278هـ، وعام «لميّظ» 1279هـ بين مشظوف آدرار وأولاد ادليم، الذريره الثانية 1282هـ وهي حرب في آدرار، وقد نتج عنها جفاف وشدة، و«السفيرات» وهو موضع وقعت فيه حرب بين أولاد ادليم ويحي بن عثمان 1292هـ، و«اتخابيطه» (1297هـ) وهي وقعة بين عشيرتين من أولاد غيلان هما «نغموش» وأهل «مانت الله»، عام «الحصره»(1302هـ) وهو عام صلح بين أمير الترارزه وأمير آدرار، وقعة ترين بين كنتة وأولاد بالسباع 1317هـ، عام «تويزغره»، وهو موضع وقعت به وقعة بين الرقيبات وأولاد غيلان 1321هـ، عام «لحماده» وهو يوم من أيام المقاومة 1330هـ[321].

أما **المعطيات الثقافية** فتطفح النصوص الحولية بالكثير منها، وهي مضمّنة بشكل عام في الوفيات والمواليد والتراجم المختصرة الخاطفة التي عقدها مؤلفو الحوليات لعلماء وفقهاء زمانهم، و«الذين سبقوهم بإحسان». وهي تفيد بلاشك في التأريخ للحياة الثقافية في البلاد خلال تلك الفترة، نظرا لما تشتمل عليه من معلومات عن الخطط الدينية من إمامة وإفتاء وقضاء ورياسة. وتعكس التحليات والألقاب التي يسم بها هذا المؤلف أو ذاك من يتحدث عنهم ذلك المعنى بشكل واضح، فضلا عن المصنفات والكتب المشهورة التي كثيرا ما تعرض هنا أو هناك[322]. وتتبع الحوليات في ذلك تقليدا قديما متعارفا عليه عند العلماء في التراجم والوفيات. كما تبرز قيمة تلك الوفيات أو المواليد في دقة العرض، حيث تأتي بالاسم والنسبة والصفة وتاريخ الميلاد أو الوفاة بالسنة والشهر واليوم وبالساعة أحيانا كثيرة[323].

ولا تقتصر الوفيات على علماء منطقة بعينها، وإن كانت منطقة المؤلف تحظى بالقسط الأوفر من ذلك، فعلى سبيل المثال تضمنت حوليات الحوض وفيات لعلماء تنبكتو من الأقيتيين والونكريين وغيرهم، بينما يغيب هذا الاهتمام إلى حد كبير في حوليات المناطق الأخرى البعيدة عن المجال السوداني مع تفاوت درجه الاهتمام والتركيز.

وثمة ميزة يمكن استنباطها من خلال الكلمات التي يشفع بها المؤلف تراجمه أو وفياته، كأن يقول توفي فلان أو مات فلان. فجدو مثلا لا يستخدم الكلمة

321ـ تاريخ أهل الشيخ ماء العينين، ص: 37، 38، 40، 48، 50، 60، 62.

322ـ جدو، م. س، ص: 53، 60،62، 67، 68، 69، 77، 80، 85، 88 وغيرها كثير.

323ـ نفسه.

الأولى إلا للفقهاء والعلماء وبعض الرؤساء ممن هو على صلة بهم أو معرفة بحالهم، بينما يكتفي بعبارة مات لغيرهم من القادة والأعيان. وقد تبع جدو في هذا الأسلوب من جاء بعده من مؤلفي الحوليات وغيرها.

كما تؤرخ الحوليات للأوضاع الاقتصادية التي عرفتها موريتانيا وجوارها السوداني من خلال استعراضها لسني **القحط والجفاف والمجاعة والشدة**، وما ألحقته من أضرار بالبهائم والدواب وكثير من الناس، حيث نجد أول حديث عن هذه السنوات التي أشبه بعضها «السنين»، ما ذكره جدو في حوادث عام 1048هـ، حيث يقول: «وفيه في شوال ابتداء الغلاء المفرط الذي لم يعهد لمثله في جني، وبقي يزداد حتى عم الآفاق والأقطار، وبلغت الشدة مبلغا حتى أكلت امرأة ولدها، والعياذ بالله تعالى من الجوع، فإنه بئس الضجيع! ومات فيها من الخلق ما لا يحصي عدده إلا الله، وبلغ الجهد بالناس مبلغاً، حتى عجزوا عن تجهيز الأموات، ودام نحو ثلاث سنين وانصرف والحمدلله رب العالمين»[324]. وكذلك قوله: «وفيه (1159هـ) نزل قحط شديد ببلاد التكرور كلها وما يليها من بلاد السودان، واستمر ثلاث سنين، وفني من أجله خلق كثير، ولا سيما في السودان»[325]، «وفيه (1204هـ) أو في العام الذي يليه وقع قحط شديد لولاتة وتيشيت بواديهما وسودانهما، وجاء الجراد في تلك المدة حتى صارت الناس تقول: وقع كذا سنين الجراد»[326]. يقصد أنه صار من شدة الجفاف حدثا يؤرخ به، «وفيه (1213هـ) وقع قحط شديد بولاتة وتيشيت وبواديهما و»سوادانهما»، وجاء الجراد في تلك المدة حتى صارت الناس تقول وقع كذا سنين الجراد»[327]. كما تسجل حوليات ولاتة الغلاء المسمى «كرتومة» عام 1237هـ، والنوصري عام 1240هـ، وحبس عام 1241هـ، وقحطا شديدا وجدبا وقع في بلاد «التكرور» عام 1249هـ، حتى بيعت العديلة بمد واحد في ولاتة، والمخزومة بنصف مد، ومات فيه خلق كثير من العبيد وغيرهم، ويسمى عام شرواكه»[328]. وتشترك حوليات النعمة مع سابقتها في ما سبق من أحداث، وتضيف بعض السنين مثل عام «أم اركب» 1229هـ، والغلاء

324ـ نفسه، ص: 53.

325ـ نفسه، ص: 74.

326ـ نفسه، ص: 96.

327ـ جدو، م. س، ص: 96.

328ـ المحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 35، 77 وغيرهما، وحوليات ولاتة، م. س، ص: 38.

الذي حدث في تيشيت عام 1271هـ حتى بيعت «العديلة» بمد بتكانت[329]. ومن شدة ما وقع من الغلاء ما ذكره ابن أعمر في حوادث عام 1311هـ: «وفيه الغلاء الذي وقع في التكرور ولم يعد مثله حتى صارت البيضة في النعمة لا تجد البيع بشيء حتى فتح الله على أهل النعمة «بالتليت» حين منعتهم الظلمة من التقاط «آزْ»، وفتح على أهل ولاته بحب أم ركبه». وكذا ما حدث في عام 1315 حتى صارت فيه «البيصة خمسة أوصـع»[330]. وفي عام 1318هـ ضرب المنطقة غلاء وشدة عمّت البدو والحضر، حيث يقول ابن سيدي أعمر: «وفيه (1318هـ) وقع الغلاء في الحاضرة والبادية وصار جل عيش الناس «أوزاك» و«أيْزَنْ»[331].

ويؤرخ ابن اطوير الجنة لسنوات القحط والشدة بأعوام «اتغازه» 1095هـ، و«سنوات الجراد» 1213هـ، و«عطش أهل المواشي عطشا هائلا عظيما» 1227هـ، وعام «العبار» 1228هـ[332]. وتضيف حوليات تيشيت بعض سنوات القحط والشدة، حيث تؤرخ في عام 1272هـ «لغلاء وقع بتيشيت حتى بيعت العديلة بثلث مدها»، وفي عام 1282هـ «بمجيء الجراد لجميع البلدان ووقعت الشدة أي المجاعة في تيشيت وشنقيط وولاتة وأروان وتمبكتو بل في بلاد التكرور»، وفي 1307هـ «وقع القحط في جميع البلدان سوى شنقيط، وفي تيشيت وقع الجوع جدا حتى بيعت «العديلة» بمدها والبيضة بمد ونص(نصف)»[333].

وتؤرخ حوليات تجكجه لبعض سني القحط والشدة ـ زيادة على ما ورد في تاريخ ابن اطوير الجنة وحوليات تيشيت ـ بـــ: «تسلّط «عرّات» على أكل الشعير عام 1303هـ»، وانتشار الجراد زمن الشتاء وأكله «الحراثة» عام 1308هـ[334].

ويبدو أن المناطق الشمالية من البلاد قد عرفت هي الأخرى خلال هذه الفترة صنوفا من أنواع الشدة والقحط و«السنين»، حيث نجد في نيل الأوطار لابن انتهاه السمسدي وتاريخ أهل الشيخ ماء العينين تأريخا بأعوام وقع فيها قحط وغلاء شديدان، مثل عام 1298هـ، وهو عام «شلواد» وقع فيه جدب وانتشر فيه المرض، وعام النجم 1300هـ، وعام «ريهط» وهو صغار الجراد 1311هـ، وهو عام

329ـ حوليات النعمة، م. س، ص: 13، 21.

330ـ نفسه، ص: 42، 44.

331ـ نفسه، ص: 45.

332ـ تاريخ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 46، 86، 91، 92. وانظر: حوليات تجكجه، م. س، ص: 26.

333ـ حوليات تيشيت، م. س، ص: 60، 72، 91، وحوليات تجكجه، م. س، ص: 37.

334ـ حوليات تجكجه، م. س، ص: 26، 37، 43، 46.

خصب لكن الجراد أتلف فيه النبات، وعام «الشوطه» وهي ريح شديدة صحبها قحط وغلاء، عام 1318هـ وهو عام شدة وقحط على عامة الأرض، عام إكيدي الأول وهو مجيء الجراد 1332هـ، ثم «دفاره» 1337هـ وهي سحاب شديده أهلكت الحرث والنسل[335].

كما أرّخت نصوص الحوليات كذلك لسنوات **الخصب والرخاء والنماء**، وإن كانت قليلة مقابل «السنين» التي توالت على البلاد.

وتنحصر سنوات الرخاء في الأمطار واستصلاح بعض المزروعات والأراضي، وانتشار الخصب. ففي العام العاشر بعد المائة والألف، يؤرخ جدو لمطر النيسان وكذا في عام 1178هـ «أيضا النيسان وقع فيه الخصب الكثير حتى أتاه من الخريف»[336]. كما تؤرخ حوليات ولاتة «لصلاح فندي» عام 1244هـ، و«أردانة» عام 1324هـ[337].

وأرّخ ابن اطوير الجنة لعام «النيسان» 1115هـ، و«انيوصكاي» 1146هـ. ونفس الأمر في حوليات تيشيت، أما حوليات تجكجه فقد استعرضت بعض سني الأمطار والخصب في عام «أردانه» 1201هـ، و»صلح «آرزاك» بعد موته بزمن طويل» عام 1287هـ، وظهور عين شرق «الملكه» عام 1309هـ[338]. ويطفح تاريخ أهل الشيخ ماء العينين بذكر سنوات الخصب والرخاء التي عرفتها المنطقة الشمالية بخاصة، ومن هذه السنوات: عام «العلفيات» 1264هـ وعام «الطير» 1269هـ، وعام «اتويشط» في «ايمركلي» 1279هـ، وعام «النّعم» 1288هـ، وعام «الحيرش» في تيرس (وهو جبل كان به خصب) 1289هـ، وعام «امجيجيده» قلب في تيرس 1290هـ، وعام «إيزياك» أقلاب تيرس 1291هـ، وعام تكانت 1293هـ، وعام «الظاية الخظرة» 1296هـ، وعام «لكفيفات» بقلة لا تؤكل 1299هـ، وعام «الحصره» 1302هـ، وهو عام غيث فيه الناس، وعام «اروادين» 1303هـ وغيرها كثير[339].

335ـ عبدالودود بن انتهاه السمسدي، نيل الأوطار، م. س، ص: 27، 44، وتاريخ أهل الشيخ ماء العينين، م. س، ص: 50، 55، 71.

336ـ جدو، م. س، ص: 62، 80.

337ـ حوليات ولاتة، م. س، ص: 37، 60. وانظر: حوليات النعمة، م. س، ص: 16، 48.

338ـ حوليات تجكجه، م. س، ص: 21، 39، 46.

339ـ عبدالودود بن انتهاهْ السمسدي، نيل الأوطار، م. س، ص: 27، 28، تاريخ أهل الشيخ ماء العينين، م. س، ص: 29، 31، 38، 43، 44، 45، 50، 52.

أما **الأمراض والأوبئة** فلم تكن بمعزل عن اهتمام مؤرخي الحوليات، نظراً لتأثيراتها على المجتمع بأكمله، ويبدو أن أغلبها كان من الطاعون والجدري و«مقاطة» و«بوحيمرون» و«كعوان» وبعض الأوبئة التي لم يذكر اسمها على وجه التعيين، وكانت منتشرة في فترة من الفترات.

وتسرد الحوليات أحيانا من توفي بسبب تلك الأمراض من الأعيان والأكابر وعامة الناس، مع ذكر أسماء بعضهم وخاصة من الأعيان والعلماء، حيث يطلعنا جدو على طاعون «سقري» الذي أصاب ولاتة عام 1148هـ ومات فيه خلق كثير من بينهم أبوبكر الصديق بن عبدالله البرتلي، كما وقع عام 1207هـ «وباء عظيم (وهو المعروف بمقاطة) بتمبكتو وولاتة وبواديها، حتى دخل عليه العام الثامن وتم، واستشهد فيه خلق عظيم. عافانا الله وجميع المسلمين من جميع البلاء والبلواء والوباء!». وكذا حدث في العام التالي ومات فيه خلق كثير[340].

ويذكر المحجوبي في حولياته ـ وفي المنح كذلك ـ بعض الأمراض التي كانت تفني البهائم، كـ «مقاطة» التي انتشرت عامي 1207هـ، 1219هـ، وبعض الأوبئة الأخرى. ومن الأمراض الأخرى التي ذكرها: مرض الجدري و«الحبَيْبْ» الذي مات فيه كثير من «الصبيان»[341]. بل إن بعض الأوبئة والأمراض لشدة ما أفنت من الخلق صارت تأريخاً يؤرَّخ به، مثل ما ذكر ابن أعمر عن وباء ولاتة الذي انتشر فيها عام 1247هـ، ومات فيه رجال وهو عام الحسرة[342]. ثم عام بوحيمرون 1269هـ[343].

ويزيد ابن اطوير الجنة على مرض «الحبيب» و«مقاطة» والجدري التي ذكرتها المصادر الولاتية والنعماوية، مرضاً آخر كان منتشراً على ما يبدو في تجكجه عام 1232هـ، وهو «كعوان» (مرض يصيب الإبل)، وذكرت حوليات تجكجه أنه وقع قبل ذلك بعام أي في عام 1231هـ[344].

ويشير ابن انتهاه السمسدي في سياق حديثه عن عام «شلواد» (1298هـ) الذي كان عام قحط وشدة كما أسلفنا، إلى أنه كثر فيه المرض، خصوصا «بوحيمرون»

340ـ جدو، م. س، ص: 56، 70، 80، 81، 91، 99، 111.

341ـ حوليات ولاتة، م. س، ص: 21، 26، 35، 37، 49، 51، 57، 58، والمحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 20، 21 وغيرهما.

342ـ حوليات النعمة، م. س، ص: 12، 13، 15، 16، 25، 27، 28، 43، 57.

343ـ تاريخ أهل الشيخ ماء العينين، م. س، ص: 31.

344ـ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 58، 84، 93. وحوليات، تجكجه، م. س، ص: 20، 22، 26.

المسمى بمرض الحصباء، وهلك منه بعض الناس، كما كان الجدري منتشرا في آدرار كذلك عام 1316هـ، وهو آخر أعوامه فيه[345].

أما **الظواهر الكونية** فقد حظيت هي كذلك باهتمام واسع، وهي عبارة عن «كسوف الشمس، أو خسوف القمر أو ظهور بعض المذنبات، أو الزلزلة، أو «الدويّ». وعلى الرغم من أن المؤلفين لا يربطونها بحياة أو وفاة، لكن ثمة بعض الإيحاءات التي توحي بذلك[346]. وقد رصد لنا جدو بعض هذه الظواهر حيث يقول: «وفي افتتاح العام التاسع والستين بعد المائة والألف يوم الأحد أول القائلة لثلاث بقين من المحرم الحرام، وقعت زلزلة عظيمة في الأرض بعد دويّ في الهوى(الهواء)، وهذه الزلزلة ما جاءنا أحد من جهة من الجهات إلا حدثنا أنه رآها في الوقت الذي رأيناها فيه إلا من كان نائما أو راكبا»، «وفي آخر هذا العام (1173هـ) قبضت الشمس حتى ظهر النجوم والله أعلم». «وفيه (1202هـ) كسفت الشمس في آخر شعبان». وفي نفس العام (1214هـ) «تساقطت النجوم تساقطا كثيرا لم يعهد مثله، ولا سمعنا به من آخر هذه الليلة حتى كادت الشمس تطلع»، وفيه (1226هـ) في رمضان عند صلاة العشاء سمع صوت في الهواء مثل الرعد العاصف من غير مزن ولا سحاب وسمعه كثير من الناس». «وفيه (1227هـ) ظهر نجم له ذنب»، «وفيه (1230هـ) ظهرت ظلمة شديدة قبلها اصفرار شديد لم نر مثلها قط، وسقط من فعلها كثير من الأشجار الطوال من غير ريح عاصفة، ولم يرها إلا من كان بأرض السودان»، «وفي هذا الشهر (من عام 1234هـ) سمع دويٌّ في الهواء سمعه بعض الناس دون بعضهم»[347].

وقد زاد المحجوبي على ما ذكره جدو، بعض الظواهر التي من أهمها ما سجّله في عام 1259هـ، حيث ظهر خلال هذا العام «خط مستطيل في السماء من جهة الغرب ومكث في السماء شهرا يطلع مع القمر ويغيب معه». وفيه (1268هـ) سمع دوي في السماء آخر النهار ومعه نجم أحمر»، «وفيه (1303هـ) تساقط النجوم، في انتصاف رمضان سقط نجم أحمر»[348].

ورصد ابن أعمر في حولياته بعض الظواهر التي لفتت انتباهه، ومن أهمها ـ بالإضافة إلى ما ذكره المحجوبي ـ الزلزلة العظيمة التي وقعت عام 1286هـ،

345ـ عبدالودود بن انتهاه السمسدي، نيل الأوطار، م. س، ص: 27، 43.

346ـ جدو، م. س، ص: 97، وحوليات النعمة، م. س، ص: 34، 36.

347ـ جدو، م. س، ص: 78، 79، 88، 96، 104، 105، 108.

348ـ حوليات ولاتة، م. س، ص: 40، 45، 51، 56، والمحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص48، 49، 52، 75.

وكسوف القمر آخر الليل عام 1301هـ، و«خسوف الشمس يوم الأحد وقت الظهر لليلتين بقيتا من رمضان عام 1310هـ، وأظلمت الأرض وظهرت بعض النجوم. وفي 1319هـ «خسف القمر.. وفي جمادى الأولى سقط نجم مضيء أضاءت منه الأرض، ووقع بعده صوت كالرعد وخسف القمر في رجب الفرد ليلة الجمعة عند انصداع الفجر وسقط مخسوفا»[349].

ويبدو أن بعض هذه الظواهر عنّ لأغلب أهل المناطق الموريتانية، لأن ابن اطوير الجنة ـ وكذا حوليات تيشيت وتجكجه ـ يشير إلى المذنبات التي تحدثت عنها النصوص الولاتية، ولعلها قد تراءت للكل فتناقلوها في كتبهم[350]، بل إن بعضها صار تاريخا يؤرخ به للأحداث؛ مثل عام النجم 1227هـ، وعام الخط (1256هـ). بيد أن بروز مثل هذه الظواهر كان يرتبط في «المعتقد الشعبي» بالكوارث، لأنها ـ يعني الظواهر ـ أشبه ما تكون بنذير الشؤم وفق ذلك المعتقد. وقد أورد ابن اطوير الجنة بيتا من الشعر يشي بهذا المعنى حيث يقول الشاعر:

فليحذر الناس من دهياء داهية ** إذا بدا الكوكب الغربيُّ ذو الذهب[351]

وفضلا عما أسلفناه، يمكننا أن نضيف ميزة خاصة وهامة تميزت بها الحوليات بشقيها النثري والمنظوم، وكذا بعض الأنماط الأخرى، وهي **التأريخ بالأحداث العظام والأمور الجسام** التي عرفتها البلاد؛ من حروب وقحط وجفاف أو رخاء ونماء، ومن أهم هذه الأعوام:

سنة البنود 1027هـ، عام أم «اعبانه» 1107هـ، عام موت آقزازير 1112هـ، عام «أب المغاير» 1114هـ سنة «سرك» 1126هـ، عام «الززو» 1146هـ، عام «انواملين» 1146هـ، عام «دركل» 1152هـ، عام «عكبه» 1153هـ عام «انكدي» 1154هـ، عام «الدراريع» 1155هـ، عام «اسردوب» 1156هـ، عام «الزاز» 1156هـ، عام «بعرار» 1158هـ، عام «لمخيشبه» 1159هـ، عام جكم 1160هـ عام افركان 1161هـ حوط 1163هـ، عام كلب النور 1163هـ، عام إيسيل 1163هـ، عام لعكل البيظ 1164هـ، عام تاوشيت 1164هـ، سنة الدهن بامكيبنه عند أهل وادان

349ـ حوليات النعمة، م. س، ص: 28، 34، 36، 41، 46.

350ـ مثال ذلك ما تناقلته نصوص الحوليات في تاريخها عن ظهور نجم عام 1227هـ انظر: تاريخ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 91، وحوليات تجكجه، م. س، ص: 26، وحوليات تيشيت، م. س، ص: 45، وجدو، م. س، ص: 104، وحوليات ولاته، م. س، ص: 29، وحوليات النعمة، م. س، ص: 13، والمحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 49.

351ـ تاريخ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 91.

1165هـ، عام لسيخيه 1166هـ، عام الشرطة 1166هـ، عام بوزايله 1183هـ، سنة الغوغر 1189هـ، سنة الكطار 1193هـ، الجراد 1204هـ، سنة البوص 1210هـ، عام الذيب 1214هـ، سنة بوخزامه المشهورة في تيشيت 1216هـ، سنة آبلاك على أهل أدرار 1217هـ، عام تغازة 1219هـ، أم ركبة 1228هـ، عام تنيولك الأولى 1216هـ، عام طيحت لكور 1253هـ، عام مد الله 1257، عام الخط 1259هـ، عام دنداره 1267هـ، عام أردانه الكبيرة 1268، عام البترور 1271هـ عام الحسرة 1247هـ عام شرواكه 1249هـ، عام اكشتيم 1260هـ عام أردانه العظيمة 1268، عام «بوحيمرون» 1269هـ، بجكنت 1273هـ، عام غدرة محمد الحبيب 1277هـ، «آماش» 1303هـ[352].

ولم تعدم **الأحداث الخارجة عن السياق المحلي** بعض عناية القوم، وإن لم تستوِ النصوص في عرضها واقتضابها، حيث اشتمل تاريخ جدو على الكثير من الإشارات والمعطيات التاريخية عن الجوار السوداني، فتحدث في سياقات مختلفة عن تاريخ الحملة السعدية على السودان وما رافقها من أحداث هزت المنطقة وبثّت الذعر في أهلها، وأدت إلى هجرة ونزوح جلّة علمائها، ثم محنة أحمد باب التنبكتي وانفراجها[353]. كما عرض وفيات بعض الأساكي ملوك الصونغاي كالأسكيا سليمان بن داوود، وهارون بن الأسكيا الحاج محمد وباشوات تنبكتو. كما استعرض إشارات عن مملكة سيكو وبعض أحداثها وتقلباتها، وتحركات الفلّان وبمباره في المجال السوداني، واحتكاكهم بالقبائل البيضانية المصاقبة لهم في الحوض[354]. كما تضمن تاريخ جدو كذلك معلومات خاطفة عن الدولتين السعدية والعلوية في المغرب، وهي تتركز أساسا حول وفيات سلاطين المغرب من الأسرتين. فبدأ بأحمد المنصور السعدي الذهبي وابنه مولاي زيدان وأبي مروان عبدالملك بن مولاي زيدان ومولاي الوليد بن مولاي زيدان ومولاي محمد الشيخ.

352ـ تاريخ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 49، 57، 60، 62، 63، 64، 65، 67، 68، 76، 78، 84، 87، وحوليات تيشيت، م. س، ص: 43، 44، والنبذة، م. س، ص: 35، 44، جدو، م. س، ص: 63، 70، 73، 75، 90، 99، 104، حوليات ولاتة، م. س، ص: 25، 39، 40، 41، 44، 45، 46، حوليات النعمة، م. س، ص: 16، 18، 20، 22، حوليات تجكجه، م. س، ص: 18، 24، 43، والمحجوبي، منح الرب الغفور، م. س، ص: 36، 90، وتاريخ أهل الشيخ ماء العينين، م. س، ص: 31، وهذا النص كله يتحدث عن هذا الصنف من التأريخ بالأحداث.

353ـ جدو، م. س، ص: 36، 37، 38 39.

354ـ نفسه، ص: 43، 44، 46، 54،59، 68، 74، 78، 80،82، 83، 84، 106 وغيرها كثير.

كما استعرض ضمن عهد مولاي زيدان ثورة أحمد بن عبدالله السوري (ت: 1022هـ) المعروفة بثورة أبي محلي.

وعن الدولة العلوية؛ تحدث جدو عن وفيات بعض سلاطينها، بادئاً بمولاي إسماعيل وتوليه مقاليد الحكم ثم وفاته، كما تحدث عن تولي مولاي سيدي محمد بن عبدالله السلطة ومولاي اليزيد ووفاته ثم تولي مولاي سليمان الذي حارب البربر وانتصر عليهم[355].

وقد أفاض كل من تبع جدو من مؤرخي ولاتة وغيرها من حيث أفاض، هذا إن لم يكن أصل ما نقلوا منقولا عنه، حيث أورد المحجوبي في حولياته بعض النتف التي كتبها جدو في تاريخه، وبخاصة ما نقله من غرائب الأخبار عن بعض حروب القبائل الفلانية السودانية والطوارق في أحداث عام 1233هـ، حيث يقول: «ومات من الفلانيين نحو ألف وسبعمائة رجل، ومات من الطوارق رجل واحد»[356]. وقد علّق المحجوبي على هذا الحدث بقوله: «وهذا ما ينكره العقل»[357].

وقد تناقل هذه الحادثة كل من تاريخ ولاتة وحوليات النعمة، حيث عقّب محمد بويا على هذه الحادثة بقوله: «ولكن الدليل على صحة وقوعه أن الله على كل شي قدير» بينما لم تضف حوليات النعمة تعليقا ولا تعقيبا على الموضوع[358].

وينضاف إلى ما سبق أن العلاقة مع الجوار السوداني قد مثّلت إطارا هاما في تاريخ المناطق الشرقية الموريتانية، لذلك كثيرا ما نجد أصداء بعض الأحداث التي تدور داخل المجال السوداني في تواريخ ولاتة والنعمة وغيرهما، بل إن الولاتيين يؤرخون لهجمات بعض المجموعات السودانية على مدينتهم ضمن تواريخهم المحلية من ذلك مثلا عام «طيحت لكور»[359].

كما اشتملت حوليات ولاتة على بعض الإشارات عن المغرب؛ مثل «قدوم المولى إسماعيل ملك المغرب، ووفاته، وقتال مولاي سليمان للبربر سنة 1227هـ، ونزول مولاي الحسن الأول لواد نون عام 1303هـ[360]، وهي في عمومها أحداث سطحية معدومة القيمة في سياق الحوليات.

355ـ نفسه، ص: 57، 65، 89، 90، 109.

356ـ نفسه، ص: 107.

357ـ المحجوبي، حوليات ولاتة، م. س، ص: 32.

358ـ محمد بويا، تاريخ ولاتة، م. س، ص: 53، وحوليات النعمة، م. س، ص: 14.

359ـ حوليات ولاتة، من س، ص: 40، وانظر: تاريخ جدو عند حديثه عن وقعة "يغر لعور البنباري" على رفقة ولاتة عام 1160.

360ـ حوليات ولاتة، م. س، ص: 18، 19، 29، 56.

ونفس المعلومات التي تحدث عنها جدو أوردها ابن اعمر في حولياته مع اختلافات بسيطة، حيث تحدث بشكل متقطع عن حركة الحاج عمر الفوتي ومجيء الحملة السعدية إلى تنبكتو بقيادة الباشا جؤذر الذي أورد فيه وصفا، كما في تاريخ ولاتة، يقول فيه:

أتى تاسع التسعين فاحفظه جودر ** خَصِيٌّ قصيرُ القَـد أعلاه شوطر

كما استعرض ضمنيا نتفا عن العلاقة بين المراكز السودانية وولاتة والنعمة، وصراعات القبائل السودانية والطارقية فيما بينها، وصراعات بعضها مع بعض القبائل الموريتانية، وغارات القبائل السودانية على ولاتة، وغيره كثير[361]. كما قدّم عن المغرب نفس المعلومات التي استعرضها المحجوبي[362]. كما اشتمل تاريخ ولاتة وتاريخ ابن اطوير الجنة على نتف متفرقة عن الممالك السودانية وباشوات تنبكتو ووفيات بعض سلاطين المغرب[363]. بيد أن تاريخ أهل الشيخ ماء العينين يبقى أكثر النصوص الحولية تعرضا لذكر سلاطين المغرب، وذلك لعلاقة الشيخ ماء العينين رحمه الله بهؤلاء، ووفادته عليهم مرات عديدة في سياقات مختلفة كما يذكر النص على استحياء[364].

II ـ مصادرها:

ساهم عزوف الرعيل الأول من الموريتانيين عن تدوين التاريخ، كما أسلفنا، في عدم وجود مصادر يمكن الاتكاء عليها في كتابة التاريخ، لذلك كانت هذه المسألة هاجساً وعقدة أرّقت بعض المتأخرين من المؤرخين الموريتانيين الذين حاولوا كتابة تاريخ البلاد فلم يجدوا ـ حسب تعبيرهم ـ أمرا ذا بال يمكن الاعتماد عليه في ذلك، حيث يقول سيدي بابه بن الشيخ سيدي ممتعضا، كما ألمعنا، من هذا الحال: (.. وكنت أتعجب من علماء هذه البلاد البيضانية الصحراوية المغربية وأدبائها على فضلهم ونبلهم، كيف لم يعتنوا بتاريخها في كتاب معتبر من أول الزمان، مع كثرة ما وقع فيها من الأمور الكبار التي ينبغي الاعتناء بكتابتها، وكثرة من كان بها من الأكابر من كل صنف، الذين لا ينبغي أن تترك أخبارهم نسيا منسيا على جلالتها، ولو وجدت فيها كتابا في ذلك أعتمد عليه لقيّدت منه

361ـ للمزيد يمكن الرجوع إلى التواريخ التالية: 1247هـ، 1276هـ، 1277هـ، 1298هـ، 1303هـ، 1304هـ، 1307هـ، 1308هـ، 1309هـ.

362ـ حوليات النعمة، م. س، ص: 11، 36، 39.

363ـ تاريخ ولاته، م. س، ص، 50، وتاريخ ابن اطوير الجنة، م. س، ص: 45، 50 وغيرها.

364ـ تاريخ أهل الشيخ ماء العينين، م. س، ص: 52، 55، 57، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 69، 70.

ما يشار بالأصابع إليه..)[365]. ويعود ذلك إلى الوضع الذي أشرنا إلى بعض سماته وخصائصه، حيث لم تكن ثمة حاجة، ربما، إلى تدوين التاريخ، وكان الشاغل للقوم الانكباب على العلوم الدينية وما يتعلق بها. على أن ذلك لم يمنع من بروز نصوص تاريخية اتسمت ببعض الخصاص والسمات الفارقة، وهي في مجملها لم تخرج عن الأنماط التي حددناها من قبل.

وتحتل نصوص الحوليات، بشقيها المنثور والمنظوم، مكانة هامة ضمن تلك النصوص، فعلامَ اعتمد مؤلفوها في تدوينها؟ خاصة وأن بين بعضها من التداخل، بل والتطابق أحيانا ما يجعل هذا التساؤل أكثر إلحاحاً.

لا يخفى أن الإجابة الشافية عن ذلك السؤال تعتبر أمرا صعبا غير ميسور، ذلك أن جلّ مؤلفي ما بين أيدينا من نصوص لا يصرّح بمصادره التي استقى منها مادته التاريخية، وإن كان من الممكن، بعد بذل الجهد في الاستقراء والمقارنة، تحديد بعضها. فقد اعتمد الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت: 1219هـ) في تاريخه (الوقائع والوفيات) على تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي، حيث قام بجرد الوقائع الواردة فيه، وترتيبها زمنيا، ثم أضاف إليها بعض الوقائع التي عرفتها المنطقة من 1066هـ إلى حين اكتمال تاريخه سنة 1169هـ[366].

واعتمد جدو بن الطالب الصغير المتوفى بعد 1236هـ في تاريخه على تاريخ البرتلي السابق، حيث مثّل، كما أسلفنا، تاريخه الجزء الأول من تاريخ جدو. كما أنه من غير المستبعد اطلاعه على مؤلفات أحمد باب التنبكتي، وبخاصة كتابيه نيل الابتهاج وكفاية المحتاج، حيث تطغى على نصه مادة التراجم. وما من شك كذلك في أنه اعتمد على الرواية الشفوية في المعلومات التي عاصرها، يستشف ذلك من قوله في آخر الأحداث التي دوّنها، حيث قال معقّباً على إغارة هنون بن بوسيف على لادم سنة 1236هـ: «وسمعت أنه هو القاتل له بنفسه، أعاذنا الله من ذلك»[367].

أما نبذة صالح بن عبدالوهاب التاريخية؛ فلا نكاد نقف فيها على خيط يوصلنا إلى مصادر المؤلف، وإن كان فيها من التداخل، رغم أنها انفردت بذكر

365ـ سيدي بابه والشيخ سيدي، إمارتا ادوعيش ومشظوف، م. س، ص: 90، 92.

366ـ عبدالودود ولد عبدالله، م. س، ص: 35.

367ـ جدو بن الطالب الصغير، م. س، ص: 112.

بعض الوقائع والأحداث، ما يجعلنا نعتقد أنه اطلع على تاريخ جدو السابق وبعض التواريخ التي اطلع عليها في رحلته التي جاب فيها مختلف أرجاء البلاد وبخاصة في تيشيت، بالإضافة إلى الرواية الشفوية من معاصريه، فضلا عما كان المؤلف شاهد عيان فيه، لأن النبذة كتبت، كما صرّح المؤلف في مقدمته، عام 1255هـ، وانتهت في نفس العام.

ونفس الحكم ينسحب كذلك على تاريخ الطالب أحمد بن اطوير الجنة فيما يتعلق باعتماده على مصادر سابقة له استقى منها مادته التاريخية وإن لم يصرّح بذلك. حيث تضمن تاريخه بعض الإشارات العابرة التي يمكن أن يستشف منها، ولو على استحياء، بعض مصادره. من ذلك قوله في مستهل كتابه: «وقد أخبرني شيخنا سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم العلوي ـ قدس الله روحه ونوّر ضريحه ـ في عشرة من هذا القرن الثالث أي ما بعد المائتين والألف، أن وادان له سبعمائة سنة ولشنقيط أربعمائة سنة»، وقوله: «وكتب شيخنا بخط يده سيدنا سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم العلوي وهو عام ولادتنا»، يعني 1153هـ، ثم قوله: «.. وتاريخنا هذا صحيح»[368]. وتشي هذه المعطيات مجتمعة، رغم ضبابيتها، بأن لابن اطوير الجنة مصادرَ فيما نقل خارج ما عاصره من أحداث. وهي مصادر نعتقد أن أغلبها روايات شفوية أخذها من بعض معاصريه كما تفيد ذلك كلمة «أخبرني»، ثم إنه يصرّح باطلاعه على ما كتبه شيخه عن تاريخ ميلاده، كما يفهم كذلك من قوله «وتاريخنا هذا صحيح» أن هناك تواريخ أخرى متداولة في مصادر معينة تناقض ذلك التاريخ، وإلى هذا المعنى ذهب ابن انبوجه العلوي في تعليقه على هذه الجملة[369].

أما حوليات ولاتة والنعمة فتشتركان في الكثير من الأحداث والوقائع والإشارات التاريخية، ويصل ذلك أحيانا إلى درجة التطابق، رغم اختلافهما في التركيز أحيانا أخرى على أحداث بعينها، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن المصدر الذي متحَ منه مؤلفاهما واحد. وثمة إشارة في بداية حوليات ولاتة إلى تاريخ تيشيت في سياق محاولة المحجوبي، مؤلف حوليات ولاتة، التحقّق من تاريخ وفاة المولى اسماعيل، أحد سلاطين المغرب، ولعل المقصود الجزء الأول منه وهو قطعة من تاريخ ولد اطوير الجنة. كما نعتقد أن المحجوبي ومحمد المصطفى بن أعمر الإديلبي،

368ـ تاريخ ابن طوير الجنة، م. س، ص: 43، 44، 60، 97.

369ـ ابن انبوجه، فتح الرب الغفور، م. س، ص: 128.

مؤلف حوليات النعمة، قد عادا إلى تاريخ جدو، لأن بعض الأحداث التي تحدثا عنها لم تكن متداولة على نطاق واسع، بل انفرد بها جدو في تاريخه[370]. يضاف إلى تلك المصادر الرواية الشفوية التى نحسب أنهما قد ركنا إليها وبخاصة الإديلبي، وذلك ما تشي به بعض الألفاظ التي استخدمها في حولياته، كقوله: «وفيه في رجب بلغنا أن عال دند سلطان فوته غلب النصارى وردهم على أعقابهم بعد مقتلة عظيمة..»، وقوله: «بلغنا أنهم أطلقوه»، وقوله: «هكذا نقلت من فاطمة الزهراء المعروفة بأم اخت». كما يستشف من قوله: «والذي صححناه من هذه الوقعة أنها عند قصر البركة..»[371]، في إشارة إلى مصادر لم تذكر تصريحاً. والوقعة المذكورة هي بين كنتة و«ازناكة»، وقد ورد ذكرها في فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور لابن انبوجه، وتاريخ ولاتة وحوليات تيشيت[372].

ويصرّح أحمد بويا بن الطالب بوبكر المحجوبي، مؤلف تاريخ ولاتة، المتوفى 1326هـ في مقدمة تاريخه، بالمصادر التي اعتمد عليها فيه، حيث يقول: «.. فجمعته من تاريخ لعبدالله بن الطالب عثمان اليلبي وتاريخ الحاج أعمر التيشيتي وتاريخ بعض أهل ولاتة، لم أدر من جمعه، واختصرت منها ما كان مشتهرا في أهل ولاتة ومن في حكمهم ممن والاهم من أهل البلدان»[373].

أما سيدي عبدالله ابن انبوجه العلوي صاحب فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور (ت: 1300هـ)، فيصرّح في نهاية تاريخه باعتماده على تاريخ جدو بن الطالب الصغير البرتلي وتاريخ الطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي. كما بدأ نصه بمقدمة استعرض فيها بعض كتب التاريخ الإسلامي[374].

وفي مقدمة حوليات تيشيت تحدث بويا أحمد بن أحمد المعروف ببوعسرية التيشيتي، بأنه فتّش عن كتب التواريخ أو عن كتاب مؤلف في تاريخ بناء تيشيت «ومن كان فيها من العلماء والأولياء وما وقع فيها من وقائع الزمان.. فلم يجد فيها شيئا من كتب التواريخ في شأنها إلا شيئا قليلا مكتوبا بعد انتهاء الكتاب

370ـ انظر مثلًا: تاريخ جدو، م. س، ص: 107، وحوليات ولاتة، م. س، ص: 32، وحوليات النعمة، م. س، ص: 14 وغير ذلك كثير.

371ـ حوليات النعمة، م. س، ص: 33، 40، 44، 46.

372ـ حوليات النعمة، م. س، ص: 40، ابن انبوجه، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، م. س، تاريخ ولاتة، م. س، ص: 71، وحوليات تيشيت، م. س، ص: 95.

373ـ تاريخ ولاتة، م. س، ص: 50.

374ـ ابن انبوجه، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، م. س، ص: 20 وما بعدها.

المسمى «تنبيه الأنام في بيان علو مقام سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام»، ولم يسم جامعه نفسه ولم يكن تأليفا مستقلا ولم يكن لشخص واحد، ولم يتكلم إلا في أهل المائة الثالثة بعد المائتين». مشيرا إلى أنه اطلع على الديباج لابن فرحون، وكفاية المحتاج لأحمد بابا التنبكتي، وتاريخ الخلفاء للجلال السيوطي.

وبتفحّص حوليات تيشيت نجد أنها مؤلفة من ثلاثة نصوص، الأول عبارة عن قطعة من تاريخ ابن اطوير الجنة، وهي تبدأ من 1070هـ وتنتهي 1200هـ، وفيها تصحيف كثير طال أسماء الوقائع وتواريخها. والجزء الثاني من تأليف محمد بن عمر بن عشّاي الماسني، وهو يبدأ من 1201هـ، وينتهي بعد 1302هـ بقليل. وقد قام بوعسرية ـ حسب ما قال ـ بتصحيح هذا الجزء من تاريخ تيشيت وتنقيحه وتصويب ما رآه صحيحا[375]. أما الجزء الثالث فهو من تأليف بوعسرية نفسه، وهو لا يغطي إلا فترة قليلة لا تتجاوز ربع قرن على أكبر تقدير.

375ـ حوليات تيشيت، م. س، ص: 37، 40.



خاتمة

يمكننا أن نجمل أبرز الخلاصات والاستنتاجات التي يمكن الخروج بها من هذه الدراسة في النقاط التالية:

1ـ أن التدوين التاريخي في موريتانيا ارتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الخبر عند المؤرخين المسلمين القدامى، ولا أدل على ذلك من اعتماد المؤرخين الموريتانيين فيما نقلوا على الإسناد في الخبر وضوابطه. وتشير نصوص المدونة التاريخية الموريتانية إلى هذا المعنى بشكل واضح لا يحتاج كثير بيان، حيث يقول المختار بن حامد: (وطريقتي ـ غالبا ـ هي الإتيان بالخبر على أكمل وجه إن أمكن، وحكاية رواياته إذا تعددت، ضنا بها عن الضياع والنسيان). على أن الاعتماد على الإسناد ـ على طريقة علماء الحديث ـ قد لا يفيد في ضبط الرواية التاريخية وصحتها، إذ ثمة بون شاسع بين رواية التاريخ والرواية التاريخية. ومنهج الإسناد يحيلنا إلى الأولى بحذافيرها، مما يعني أنها عرضة للوضع والكذب والزيادة والنقصان، وذلك ما عبّر عنه ابن حامد في قوله: (.. وضمنته ما وعت ذاكرتي، وحوت تقاييدي، حاكيا ـ ما رويت ـ وإن كان لا يخلو بعضه من غرابة ـ تاركا العهدة في ذلك على ناقله)، (وتحريت فيما أخذته عن الحكايات الشفهية التي تختلف رواياتها ـ غالبا ـ ما رأيته أقرب إلى الصحة، بعد المقارنة، تاركا للباحثين رأيهم ورواياتهم).

2ـ مرّ التدوين التاريخي في موريتانيا خلال القرنين 12 ـ 14هـ بمراحل متمايزة اتسمت كل منها بميزات فارقة يمكن إجمالها في:

ـ المرحلة الأولى: وهي مرحلة محتشمة وخجولة، تميز التدوين التاريخي فيها بندرة الإنتاج وشحّ المعلومات التي ظلت مقتصرة على رصد بعض الوقائع والأحداث والوفيات والتراجم والأنساب والمناقب، لكنها بقيت في عمومها قليلة وشحيحة. كما عرفت هذه المرحلة ظهور أول معجم تراجمي موسوعي (فتح

الشكور) حوى مادة تراجمية غزيرة عزّ نظيرها، وما يزال إلى حد الآن فريدا في بابه. وتغطي هذه المرحلة من الناحية الزمنية القرن الثاني عشر الهجري.

ـ المرحلة الثانية: وهي من أزهى مراحل التدوين التاريخي، تميزت بغزارة الإنتاج التاريخي ووضوح المادة المدوّنة، وهي المرحلة التي دبّجت فيها أبرز النصوص التاريخية الموريتانية (كتب الحوليات، الأنساب، التراجم.. إلخ). كما ظهر فيها جيل من المؤرخين الموسوعيين. وهي تغطي من الناحية التاريخية القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي.

ـ المرحلة الثالثة: وهي تتّسم بتنوع المادة التاريخية وشموليتها، بحيث لم تعد محصورة في المواضيع التقليدية الصرفة، بل أصبحت تمزج بين الثقافتين العالمة والشعبية، وتتناول مواضيع لم تكن مطروقة في المدونات القديمة. وتمثل هذه المرحلة أوج التدوين التاريخي من حيث استيعاب المضمون العام، وعمق الوعي التاريخي، ولكنها أقل نتاجا بكثير من المرحلة السابقة، كما تراجعت خلالها إلى حد كبير الكتابات الأنسابية والتراجمية. وتغطي هذه المرحلة القرن الرابع عشر الهجري.

3 ـ تركّز التدوين التاريخي الموريتاني في البداية على النمط الحولي والمناقبي والأنسابي والتراجمي، في حين ظلت بعض المواضيع الأخرى خلواً من التدوين كالتاريخ السياسي مثلاً، وإن وجدت نتف من أحداثه ووقائعه مبعثرة في تلك الأنماط، لكنها لم تتجاوز العرض الحولي المختصر دون التفصيل والإسهاب، ولم يظهر هذا النوع من التدوين بشكل مستقل إلا خلال القرن الرابع عشر الهجري، ويعود ذلك في بعض أسبابه إلى الأوضاع التي كانت تعيشها البلاد آنذاك. كما ظل التدوين خلال القرون الأولى مرتبطاً بالأعيان والمشاهير والوقائع المشهورة، ولم يلامس حياة العامة إلا من خلال ظلال عابرة، لذلك تعتبر المجامع الإفتائية والرسائل وغيرها من المصادر غير القصدية لتاريخ البلاد، أهم مظان التاريخ الصامت، حيث تكشف عما كانت عليه أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، من خلال النوازل التي كانت تجدّ بين الفينة والأخرى، ورسائل النصح وغيرها.

4 ـ أهمية النصوص المدوّنة خلال هذه المرحلة ـ رغم ما يعتور بعضها من هفوات وهنات ـ وقيمتها في التأسيس لكتابة تاريخ البلاد بعد التنقيح والتمحيص والمقارنة.



المصادر والمراجع

١ ـ اللغة العربية:

ـ ابن أحمد المصطفى (الطالب ببكر المحجوبي):
حوليات ولاتة، تحقيق سيدي عبدالله بن البخاري، إشراف ددود بن عبدالله، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991ـ 1992.
ـ منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، تحقيق محمد الأمين ولد حمادي، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1992 ـ 1993.
ـ ابن أبي بكر الصديق البرتلي (الطالب محمد):
فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1981.
فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق عبدالودود بن عبدالله وجمال ولد الحسن، القاهرة، مركز نجيبويه للمخطوطات وحفظ التراث، 2010.
ـ ابن أحمد يوره (امحمد):
إخبار الأحبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد ولد الحسن، الرباط، معهد الدراسات الإفريقية، 1992.
ـ ابن احجاب (ببكر):
منظومة ابن حجاب، تحقيق خديجة بنت الحسن، بيت الحكمة، تونس، 1991.
ـ ابن أبي بكر (سيدي المختار الكنتي):
رسالة في أنساب بني حسان، تحقيق سيدي أحمد بن أحمد سالم، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، العدد: 5، 1996.
ـ ابن أعمر (محمدٌ):
حوليات تيشيت، تحقيق محمدو ولد لمرابط، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991 ـ 1992.

ـ ابن أعمر (محمد المصطفى):
حوليات النعمة، تحقيق محمد ولد اعلي فال، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997 ـ 1998.
ـ ابن اطوير الجنة (الطالب أحمد):
تاريخ ولد اطوير الجنة، تحقيق سيدي أحمد ولد أحمد سالم، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1995.
ـ ابن الأمين (أحمد الشنقيطي):
الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الخانجي القاهرة ومؤسسة منير بموريتانيا، الطبعة الرابعة 1989.
ـ ابن امبوجه (سيدي عبدالله):
ـ فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، تحقيق محمد الأمين ولد سيدي المختار، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1994ـ 1995.
ـ ابن انتهاه (عبدالودود): نيل الأوطار في الغامض من الحروب والأخبار، نص مطبوع على الحاسوب الآلي.
ـ ابن اسمه (سيد أحمد):
ـ ذاتُ ألواحٍ ودُسُر، مخطوط بحوزتنا صورة منه.
ـ ابن ابّاه (محمد المختار):
ـ الشعر والشعراء في موريتانيا، تونس، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، 1987.
ـ ابن إسماعيل (شهاب الدين):
ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزآن، تعليق إبراهيم شمس الدين، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2002.
ـ ابن احمدان (محمد المصطفى):
مساهمة في كتابة تاريخ ودان، بحث مرقون.
ابن الحاج إبراهيم (سيدي عبد الله):
صحيحة النقلِ في علوية إدوعلِ وبكرية محمد قلِّ، مخطوط بحوزتنا صورة منه.
ـ ابن حامد (المختار):
ـ التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.
ـ الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1990.
ـ الجزء الجغرافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

ـ حوادث السنين، تحقيق سيدي أحمد بن أحمد سالم. هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، 2011.
ـ ابن الحسن (أحمد):
ـ الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، «مساهمة في الأساليب»، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الطبعة الأولى، 1995.
ـ «مظاهر الوعي القومي عند مثقفي بلاد شنقيط في القرنين 19/18»، المستقبل العربي، العدد72، 1985.
ـ ابن خالنا (والد):
منظومة وفيات أمراء المغافرة 1092 ـ 1180هـ/ 1681 ـ 1766م، تحقيق محمدن ولد الطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، 1991، 1992.
ـ ابن خلدون عبدالرحمن، المقدمة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987.
ـ ابن الشيخ سيديا (هارون):
كتاب الأخبار المدوّن في أخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة بهم، جزآن، نواكشوط، المطبعة السريعة، د. ت.
ـ ابن الشيخ سيدي (سيدي بابه):
إمارتا إدوعيش ومشظوف، دراسة وتحقيق إزيد بيه بن محمد محمود، نواكشوط، المعهد التربوي الوطني، 1994.
ـ ابن الشيخ سيدي المختار (سيدي محمد):
ـ الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، تحقيق ابن باب أحمد بن حم الأمين عابدين، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1994.
ـ الرسالة الغلاوية، تحقيق حماه الله ولد السالم، الرباط، منشورات امربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة المعارف الجديدة، 2007.
ـ ابن الطالب الصغير البرتلي (جدو):
تاريخ جدو، تحقيق محمد المختار ولد زيني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، 1993ـ 1994.
ـ ابن عبدالوهاب (محمد صالح): وفيات الأعيان ونبذة من تاريخ أعلام هذا الزمان»، الجانب المتعلق بموريتانيا»، تحقيق الجيلاني ولد العربي، بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995ـ 1996.
ـ الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، تحقيق إزيد بيه ولد محمد محمود وسيد أحمد بن أحمد سالم، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1991.
ابن محمد عبدالله (محمد الأمين):

ـ «التعليل التاريخي عند الشناقطة»، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد: 43، 2005.
ـ «أشكال التدوين التاريخي في بلاد شنقيط»، مجلة التعليم، العدد: 32، 2001.
بروفنسال (ليفي):
مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، الرباط، 1977.
ـ بنت حمادي (مريم):
الفشتاليات الشنقيطية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط 1993 ـ 1994.
ـ بوبريك (رحال):
المدينة في مجتمع البداوة، «التاريخ الاجتماعي لمدينة ولاتة خلال القرنين 18 ـ 19»، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2002.
ـ جعيط (هشام):
«المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر»، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، جين افريك ـ اليونسكو، باريس، 1983.
ـ الدوري (عبدالعزيز):
نشأة علم التاريخ عند العرب، العين، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000.
ـ (رستم أسد):
مصطلح التاريخ، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2002.
السبتي (عبدالأحد):
«من المناقب إلى الأخبار ومن الأخبار إلى المناقب»، ضمن التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث العلمي، الرباط، 1988.
السيوطي (جلال الدين):
الحاوي للفتاوي، المكتبة العصرية، 1990.
ـ الشكري (أحمد):
الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن 18م (نموذج بلاد السودان)، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2010.
ـ العروي (عبدالله):
مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، جزآن، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 2005.
ـ الغلاوي (النابغة):
أم الطريد، تحقيق محمد بن الشريف أحمد، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991.

فرحات (حليمة):
«كتب المناقب كمادة تاريخية»، ضمن التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث العلمي، الرباط، 1988.
لوغوف (جاك):
التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2007.
اللمتوني (محمد امبارك):
نظم الدولة اللمتونية «أصولها وفروعها»، مخطوط بحوزتنا صورة منه.
مجموعة (مؤلفين):
حوليات تجكجة، تحقيق عائشة بنت ديدي، بحث مقدّم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1990/1989.
مجهول (مؤلف):
تاريخ أهل الشيخ ماء العينين، تحقيق سيدي أحمد بن أحمد سالم، الدوحة، دار الكتب القطرية، 2004.
مارتي (بول):
كنتة الشرقيون، تعريب محمد محمود بن ودادي، دمشق، مطبعة زيد بن حارث، د. ت.
ـ النحوي (الخليل):
بلاد شنقيط المنارة والرباط.. عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة المحاضر، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1987.
ـ وقيدي (محمد):
كتابة التاريخ الوطني، الرباط، دار الأمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1990.
ولد الزين (سيدي):
ـ كتاب النسب في قبائل الزوايا والعرب، مخطوط بحوزتنا صورة منه.
ـ ولد سيدي محمد (محمد المختار):
ـ النضال الوطني في موريتانيا من 1903 ـ 1960، "أطروحة ماجستير»، جامعة بغداد. 1997.
ـ ولد السعد (محمد المختار):
ـ إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703 ـ 1860، الجزء الأول، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، الطبعة الأولى 2002.

- حرب شرببه أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، الطبعة الثانية 2008.
- الإمارات والنظام الأميري الموريتاني.. النشأة والأطوار السياسية الكبرى، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2007.
- « عوائق البحث في التاريخ الموريتاني»، المؤرخ العربي، العدد. 48، 1994.
- ولد السالم (حماه الله):
- موريتانيا في الذاكرة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2003.
- تاريخ موريتانيا «العناصر الأساسية»، الرباط، منشورات الزمن، 2007.
- تدوين التاريخ الموريتاني.. مراجعة في المنهج والقراءة، في التصوف والتقريب الطائفي بين مصادرة الحق وتضارب الأولويات، أعمال ندوة تيكماطين للفكر الإسلامي، الدورة الخامسة، 8 و9 و10 يوليو 2005، تيكماطين، موريتانيا، تنظيم المركز الإفريقي للدراسات والأبحاث الصوفية بتكماطين، بالتعاون مع مؤسسة آل البيت، 2006.
- ولد بونعامه (منـّي):
- الكتابة التاريخية التقليدية في موريتانيا ما بين القرنين 18ـ 20، «دراسة في قضايا المصطلح والمنهج»، أطروحة ماستر، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء ـ بنمسيك، 2009.
- التاريخ الشفوي الموريتاني.. مقتضيات الفهم وعوائق التدوين، دراسة مرقونة، وقد نشر ملخص عنها ضمن الندوات الفكرية لأيام الشارقة التراثية في دورتها العاشرة، 4 ـ 2012/4/20.
- ولد محمد محمود (إزيد بيه):
- الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، المطبعة الوطنية، 2001.
- ولد محمذن (محمدو):
- المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر.. قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001.
- المصادر الأجنبية للتاريخ الموريتاني المعاصر.. قراءة في الأرشيف السنغالي، في منهجية كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي: أعمال المؤتمر الأول لمنتدى التاريخ المعاصر المنعقد بزغوان من 27 إلى 29 نوفمبر 1997، زغوان، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 1998.
- اليدالي (محمد): نصوص من التاريخ الموريتاني، شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة، تقديم وتحقيق محمذن ولد باباه، قرطاج، بيت الحكمة، 1990.
- الحلة السِّيَرا في معرفة أنساب العرب وخير الورى، مخطوط.

٢ ـ اللغة الأعجمية:

Basset (Réné):

Recherches Historiques sur les Maures (Mission au Sénégal) Paris، Emest Leroux، 1913.

- Bloch (Marc):

Apologie pour l›histoire ou Métier d›historiens، éd.annot. par Etienne Bloch، préf. de Jacques Le Goff، Paris، A. Colin، 1997.

- Hame (Ismail):

Chroniques de la Mauritanie Sénégalaise: Nacer Eddine، 1911.

- MARTY (Paul:)

l'Emirat du Trarza، 1920.

Norris (H.T.):

Znaga Islam during the seventeenth and eighteenth centuries، London 1969.

- Ould Cheikh (Abdelwadoud):

»Vous avez dit «Histoire» ? «in: Histoire de la Mauritanie. Essais et syntéses (sous presse)، p 30 de l'original de l'auteur.



المحتويات


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com